عبد الهادي العلمي

قصر المتاعب

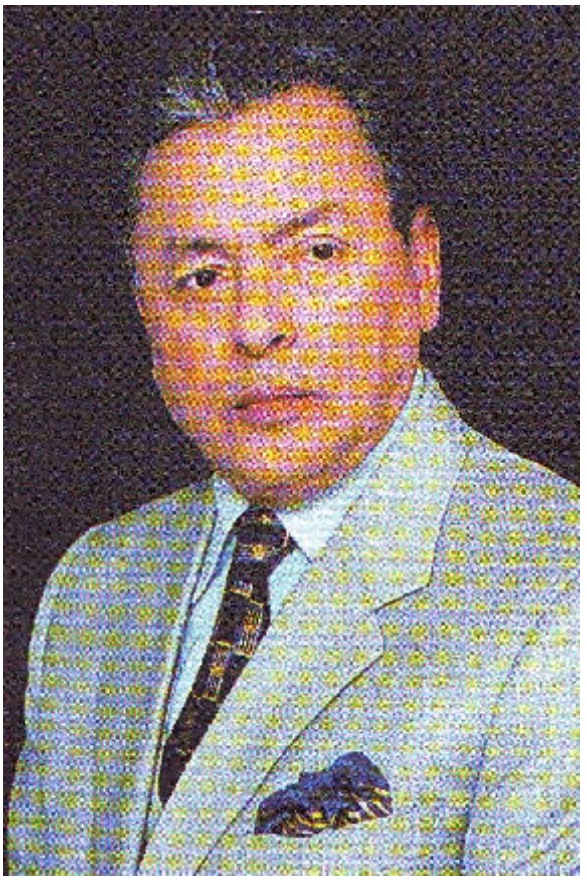

قصة صراع ضد الأشباح

الجزء الأول: زمن القتلة

الجزء الأول

زمن القتلة

إهداء

إلى من ورث ملكه عن أكبر ملوك الأسرة العلوية، إلى حفيد محمد الخامس قائد تحرير المغرب من الاستعمار الفرنسي.
إلى محمد السادس، الذي أتمنى له بكل إخلاص وصدق أن يتغلب على **الأشرار** و المنافقين أينما اختبئوا، في دواليب الإدارة والحكومة والدولة.

لماذا هذا الكتاب؟

شاءت الأقدار أن يتم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في اليوم الذي التحق فيه المغفور له الحسن الثاني إلى الدار الباقية، ولم أكن أتصور أنني قادر على تأبين الملك الراحل وسط كل معاناتي، وأن يكون تأثري بتلك الدرجة الكبيرة والتلقائية بموت الملك والتي جعلت من مشكلة قصر المؤتمرات مجرد حادثة بسيطة أمام هذا المصاب الجلل.

هذا الكتاب يرسم تاريخ قصر المؤتمرات بمدينة مراكش بمراحله التاريخية والمالية والإدارية والقضائية. إنه قصةتَحَدٍّ رفعته شركة مواطنة إسمها دنيا الفنادق أو دنيا أوطيل، كما تسمى عامة.

لم أكن أظن في وقت من الأوقات أن ظروف مهنتي كصاحب ومسير فنادق سياحية ستزج بي في دهاليز التلوث الإداري وتجعلني أقف على ما لم أصل إلى إدراكه في وزارة المالية وصندوق الإيداع والتدبير، حيث مكثت ما يقرب من خمسة عشر سنة.

إن كتابة قصة قصر المؤتمرات بمراكش بكل تحدياته، أملتها علي ظروفي النفسية آنذاك ورغبتي في التعريف بهذه التجربة، علما مني بأن أغلب، حتى لا أقول كافة المستثمرين المغاربة، يعيشون ويموتون ولا أحد تصله أخبار مسيرتهم، بأرباحها وخساراتها وأفراحها وأحزانها. وهذه مشكلة في حد ذاتها، حيث إن المرء كيفما كان، لا يحسب على البشرية كفرد، ولا تكتمل عضويته فيها إلا بمشاركته الآخرين همومهم ومتاعبهم وتجاربهم.

كنت خلال مراحل هذه التجربة مطمئن البال، مؤمنا كل الإيمان بقضيتي، واعيا بأنني أقحمت رغم أنفي، في مناورات وأطماع لوبيات لم أحسب لها من قبل حساب، وهذه اللوبيات هي المسؤولة عن تضخيم ملف لم يكن ليثير في بلد له إدارة عادية وحكومة **واعية** أي رد فعل عنيف.

فهذا الكتاب إذن، ليس نزوة، ولا فسحة رجل أعمال أصابه الضجر من أعماله، وليس استجداء في وقت شدة، ولا انتقاما إزاء ظلم، وليس محكمة ولا مجلس محاسبة.

هذا الكتاب قصة حقيقية مرتبطة بشخص واحد، ولكنها ليست سيرة ذاتية محضة. إنها شهادة على مرحلة التسعينيات تضيء بعض جوانب العتمة في عالم عجيب؛ أغلب من لعبوا دورا ما فيه, هم اليوم أحياء يرزقون، وأحداثه أغرب مما يحتمل الخيال، ونتائجه مؤملة، يعيش الكاتب جزءا منها، ويعيش المغرب هذه النتائج كلها.

هذا الكتاب حلقات من الوقائع والأحداث والأسرار والكواليس والقرارات الإدارية والوزارية والحكومية التي كونت تاريخ بناء مركب قصر المؤتمرات بمقاعده الخمسة ألف وقاعاته "الملكية" و"الوزارية" وغيرها، وبفندقه الكبير ذي الخمسة نجوم والألف سرير. وإني أتوخى من كل هذا تأكيد قناعة لم تفارق الكثير منا، وهي أن المغفور له الحسن الثاني واجه بعض إخفاقات الحكومة والإدارة والنخبة المغربية حسب منظوره الخاص وتقييمه للواقع المغربي بأسلوبه الشخصي وعبقريته الفريدة.

كان آنذاك من السهل على العديد من العناصر أن تلقي باللائمة

على الدولة بدعوى تقصيرها أو وقوفها أمام الإصلاحات، وكان من باب الخلط أن نسمع أن طريقة تسيير دواليب الدولة هي المسؤولة على تعثر الإقلاع الإقتصادي والإجتماعي. كان للمغرب آنذاك قدرات لا يستهان بها ورجال مؤهلون، ولكن كانت له إدارة غير مواكبة وعدد من الوزراء دون مستوى المسؤولية.
كانت للمغرب إمكانات هائلة، ولكن كانت تختبئ هنا وهناك جماعات من الجشعين ومن اللاهثين وراء مصالحهم، أطماعهم أضخم من هذه الإمكانات.
لم يكن الحسن الثاني نبيا ولا ملاكا، ولكنه عاش كقائد يحقق الانتصارات ويتكبد الخسائر، وكنت معجبا بالرجل /الملك، وكم كان له من المعجبين في حياته وأيام قوته، غير أن إعجابي وتقديري له كان غير إعجابهم.
كانوا يتطلعون إلى الجاه والمال والنفوذ من جاهه وماله ونفوذه، وكنت مواطنا عاديا أحبه وأتمنى رضاه، ولم يحصل أبدا أن فزت بامتياز سعيت وراءه ولا تشريف أو تقدير لم أكن أهلا له.
فعسى محبتي وتقديري وتعلقي بهذا الرجل/الملك من جهة، وحبي الجنوني لوطني وخوفي من الله من جهة ثانية، أن تشفع لي عند من ربما سيعيبون علي غضبي من أشياء باتت لا تغضب أحدا، وألفها العادي والبادي وسلموا أمرهم لله فيها. **قصة قصر المؤتمرات لم تؤسس على حلم لكاتبها يبحث فيه على المدينة الفاضلة فلم أكن من السذاجة لأتصور أن في إمكان أي بلد في العالم بعد اقل من خمسين سنة من استقلاله أن يحقق كل ما يتمناه وان المجتمعات المكونة للشعوب تجمع بين الصالح والطالح. كنت أدرك كل الإدراك أن الملك كرئيس للدولة يعين المسؤولين طبقا للدستور من دون أن يكون على علم سابق ودقيق بسيرتهم وقدراتهم الحقيقية وحتى في حالة معرفته بهم لا يمكن أن يطمئن كل الاطمئنان لمرد وديتهم وإخلاصهم . هكذا تسير الأمور في العالم بأكمله .الاختلاف يقع بين المواطنين فمنهم من يعيش ولا يشعر بأنه معنيا بما يدور حوله ومنهم من يغار على بلده ويتعلق بكل ما من شانه أن يعزز استقراره وأمنه.**
قصة قصر المؤتمرات هي شهادة أتوخى من ورائها المساهمة قدرالمستطاع في إنارة الطريق التي تجمعك حتما بالشرفاء وغير الشرفاء .
لقد سهر الملك الحسن الثاني من بعيد على تشييد هذه المعلمة، وعندما ضاقت السبل بهذا المشروع، بادر جلالته وأعطى تعليماته بأن يفتح رأس مال الشركة أمام بعض المؤسسات العمومية، ومنذ سنة 1993 والتعليمات الملكية في رفوف الإدارة،

وأنياب موظفين ووزراء تتوالى للانقضاض على هذا المشروع.
لم تكن الملكية ، أي وقت من الأوقات، وبالخصوص منذ تربع الحسن الثاني على عرش الملوك العلويين، سببا مباشرا في تعثر الإقلاع الاقتصادي والنمو الاجتماعي، وكان الملك الراحل قد صرح مرة بأنه يسعد عندما تتوج قراراته بالنجاح بنسبة 40%، علما بأن **في المغرب أناس** غير مؤهلين **للعمل الجدي في الادارات الوطنية والجهوية وفي الحكومات والبرلمانات لمواكبة** سياسات نمو اقتصادي واجتماعي مستدام، وكان الملك الراحل بالطبع يتمنى لبلده الأفضل، غير أن ثقافته وتكوينه ووعيه ونضجه وعبقريته جعلته أكثر واقعية. وكنت شخصيا أتألم لهذا الوضع الذي كنا فيه كمغاربة لهم بلد غني وملك عظيم، ويعيشون تحت قبضة جماعات من البشر، **إدارية وسياسية،** لا يخافون الله أصلا فما بالك بأولياء الأمر، وهذا ما جعلنا لا نسائل وزراء هدموا تعليمنا وتربيتنا وصحتنا وفلاحتنا، ولا موظفين جشعين ولا مسؤولين قليلي النزاهة وفاقدي المصداقية، ولا نطالب بالحساب من عدد كبير من المشرعين وهم جهلة يقضون جل وقتهم في النوم في بيوتهم أو داخل قاعات البرلمان، وكلهم ينادون بالدفاع عن الصالح العام.
إن أي **نظام سياسي** في العالم لا يستطيع القيام بعمله **كما يريد** إذا كبلت **أياديه بمثل هذه السلبيات** .
هذا الكتاب تحد، وهو ليس الأول في مسار قصة مجموعة سياحية تحولت إلى هرم بفضل مراكمة النجاحات، فراكمت وللأسف الأعداء والطامعين أيضا.
نصحونا منذ عشرات السنين بالسكوت عن التجاوز والظلم،

وكنا نتحدى. فقلنا كلمتنا في وسائل الإعلام، فغضبوا. قلنا كلمتنا أمام الإدارة فهاجمتنا. قلنا كلمتنا أمام الوزراء فأصبحنا **أعداءً الهم**. حاولوا إقناعنا بأن المصالح الخاصة لا تتوافق مع الجهر بصراحة جارحة، فتحدينا.

واليوم كذلك، نتوج هذا التحدي بهذه الشهادة إزاء **لوبيات** يتيه فيها من يدخلها. فيها وزراء ومستشارون وموظفون سامون ولجان... والكل بالطبع يدعي الدفاع عن المصلحة العامة.

من أجل هذا التاريخ، أكتب للقراء المغاربة الذين **دأبت هذه اللوبيات** على محاولة تشويه الحقيقة والواقع أمامهم. نكتب للمستثمرين المغاربة الجدد حتى يأخذوا العبرة، فالمواجهة القادمة لن تدور رحاها مع العولمة، ولكنها ستجرى أساسا مع مثل هذه **الخليات** .

أن يخسر مواطن واحد ما يملك، فهذا ممكن، ولكن أن تخسر إدارةُ بلد ذي حضارة وماض مجيد مصداقيتها، فهذا هو المؤلم، وهذا ما أريد توضيحه في هذا الكتاب علَّ من يصنعون المستقبل القريب والبعيد يجدون فيه ما يساعدهم على خدمة الصالح العام، إن استطاعوا إليه سبيلا.

ولقد كنت في الحقيقة طيلة مدة بناء مجمع قصر المؤتمرات ووقت افتتاحه وخلال تسييره أحس بشعور المسؤولية كرئيس لمقاولة مواطنة لم يضغط عليها أحد للقيام بما قامت به. وفي نفس الوقت، كنت أشعر بإحساس يغمره نوع من الفخر والاعتزاز، وهذا بالطبع كان يؤول بشكل يصور العلاقات بين شركتنا والإدارة على أنها مطبوعة بالكبرياء من جهتنا، غير أنها لم تكن كذلك أبدا.

كنت ولازلت أومن بأن مسار الأشخاص ليس له علاقة بالعفوية بتاتا وأن الأمور مرتبطة ببدايتها وحلقاتها المتوالية.

لقد شاركت ، وسني لم يتجاوز الثانية عشرة ، بمظاهرات

المطالبة بالاستقلال، وتأثرت حتما بمناخات هذه المرحلة، ثم ولجت سوق العمل سنة واحدة بعد تربع فقيد المغرب والمغاربة الحسن الثاني على عرش أسلافه، وتابعت مسيرة هذا الرجل العملاق الذي أسس دولة عصرية لم يشهد المغرب مثلها من قبل، وتعلمت الكثير، وبالخصوص حب العمل الدؤوب والصبر على المكاره ومواكبة الأحداث مواكبة إيجابية تاركا ورائي أقوال الناس وتعاليقهم، وجاعلا نصب عيناي في الأفق البعيد أهدافي وطموحاتي.
كان من المنتظر أن **أكتفي** بالأحداث الواردة في هذا الكتاب، إلا أن ما جرى بعد الانتهاء من تحريره من أحداث ومفاجآت جعلني مضطرا لأخصص له أجزاء أخرى، حتى أتمكن من الإحاطة الشاملة بقصة قصر المتاعب.
"زمن القتلة" إذن، هو الجزء الأول. وسيليه إن شاء الله الجزء الثاني، وهو "هزيمة الأشباح". والجزء الثالث، وعنوانه "الرجوع إلى الطمأنينة".

والله ولي التوفيق

عبد الهادي العلمي

وكانت البداية

عندما أخبرني الحاج المديوري، مدير الأمن الملكي، بأن الملك الحسن الثاني سيزور الجنوب، كنت أحدس أن لي موعدا مختلفا مع التاريخ، كنت مغمورا بفرح عارم، وبخوف غريب لم يتملكن خلال هذه المرحلة الطويلة التي قضيتها في مشوار التحديات منذ 1960.

أصبحت في صيف سنة 1985 هذا، أعيش جنبا إلى جنب مع رهبتي، وأستحضر المحطات السابقة، ولا أجد لحظات أقوى من هذه الأيام التي سينزل فيها الملك، وهو في وارزازات بفندق كرم بالاص.

لقد كانت المرة الأولى التي يقرر فيها عاهل البلاد النزول بفندق داخل المملكة، وكانت المناسبة الأولى التي سأحظى فيها بلقاء مباشر مع جلالته. صحيح أنني التقيته في بعض المناسبات الرسمية، ولكنها لقاءات عابرة لا يظفر فيه المرء إلا بذلك السلام القصير الذي لا يشفي غليل رجل أعمال فخور بملك من مستوى الحسن الثاني.

كان فندق كرم عبارة عن بداية مشروع عندما اتصل بنا صاحبه سنة 1981 وأقنعنا بشرائه. وفي سنة واحدة أصبح الفندق جاهزا بجميع مرافقه؛ وقد يصدم من كان بوارزازات قبل سنوات وهو يرى أن ذلك الخلاء الموحش الذي كان يوجد بين

فندق أزغور العتيق والنادي المتوسطي الذائع الصيت، قد أصبح عبارة عن موقع جميل مجهز بمائة وخمسين غرفة.
استطاع المهندس الفرنسي باتريس لوتيكسورون أن يجعل من فندق كرم بالاص تحفة.
كان باتريس نحيفا، ولكن عينيه كانتا تشعان ذكاء، وروحه تضمر ذلك الإعجاب الكبير بجمال وتنوع المغرب في طبيعته، لذلك اختار أن يعيش في إحدى مدنه الساحلية، باتريس مهندس عملاق يحب مهنته ويضحي من أجلها بالغالي والنفيس، وكانت هذه المناسبة بداية لعمل مشترك قادنا نحن الاثنين إلى ملحمة بناء قصر المؤتمرات بمراكش.
أعطى باتريس لفندق كرم طابع القصر الذي يتوسطه مسبح على الطراز المعماري الكاليفورني، وتتوزع غرفه على شكل مربعات متباعدة تتقابل في كل واحد منها أربع بنايات يتوسطها رياض، وفي قلبه نافورة يتفجر منها الماء بخيلاء.
لم ننته من الأشغال سنة 1983 عندما أصبح الفندق جاهزا، بل أضفنا إليه ناديا لكرة المضرب على أربع هكتارات يشتمل على ملاعب للتنس، وحدائق يزهو فيها النخيل. ومسبح واسع يأخذ سطح مائه الأزرق من سماء وارزازات، واحة المغرب الجميلة، التي أراد لها الأمازيغ أن تكون فضاء يحتضن الصمت ويوحي للزائر بالكف عن اللغو والخضوع للسحر والجمال.
كانت الترتيبات بالفندق لاستقبال جلالة الملك تجري على قدم وساق، وكنت مع مجموعة من أطر دنيا أوطيل نشارك رجال الأمن الملكي الخاص وفريق پاكار في ذلك، وپاكار هو المهندس المعماري والمقاول الفرنسي المشهور صاحب المعجزات الفنية في تجديد القصور الملكية، وكذا معلمة فندق المامونية وصاحب القدر التعس كذلك، حيث انتهى وحيدا

ومفلسا ومات كمدا. كان الفندق يهيأ داخليا، وكان الاهتمام منصبا على تجهيز الشارع المؤدي إليه ليكون باحة للاستقبالات الملكية، وهو شارع مولاي رشيد.

كنت أجوب هذا الشارع عشرات المرات في اليوم، وفي كل لحظة، أستحضر شريط ورش بناء الفندق؛ ولم تكن صورة عامل الإقليم آنذاك، السيد علال السعداوي، تفارقني. كنا مقتنعين بأن فك العزلة عن مدينة وارزازات لا يمكن أن يتحقق إلا ببناء الفنادق وفتح مطار دولي يربطها بعواصم أوربا كلها.

كان علال السعداوي رجل ميدان، وكان يقف في الورش ليس كعامل إقليم، بل كمشرف على ورش بناء، كان يلبس سروال الجينز وقميصا رياضيا، وينخرط في المراقبة والتوجيه وتسهيل الإجراءات الإدارية.

ولما كان لابد لفندق من حجم كرم بالاص من فتح شارع معبد، فقد اتفقنا على إنجازه، وهو ما تم بالفعل. حيث إن شركة دنيا تحملت نصف تكاليفه، وتوجنا هذا بالاتفاق على تسميته، فكان شارع الأمير مولاي رشيد.

كنا مع السيد العامل نخصص جلسات طويلة للنظر في سياستنا السياحية والكشف عن مكامن الضعف فيها وتهيئ مذكرات لتحسيس مصالح كل الوزارات الممثلة بالإقليم، يقينا منا بأن الصناعة السياحية حساسة للغاية، ولا يمكن بأي وجه من الوجوه أن تعطي نتائجها الإيجابية إلا بتظافر الجهود وجمعها وتنسيقها، ولازلت أتذكر ما كانت تخلص إليه أحاديثنا من كون الإقلاع السياحي مرتبط بإصلاحات جذرية إدارية وقانونية وميدانية، أهمها آنذاك فتح ما يسمى بـ "الشباك الوحيد" الذي يريح المستثمر من عناء ولوج العديد من الإدارات ومحاولة إقناعها بشتى الوسائل.

قبيل وصول جلالة الملك، كان شارع مولاي رشيد قد لبس حلة تقليدية رائعة، وأصبحت تَحُفُّ بشطره القريب من مدخل الفندق جدارات منبثقة من خيمة مخزنية كبيرة، والكل مزركش باللونين الوطنيين الأخضر والأحمر.

كان بودي، وأنا أنزل من الإقامة التي وضعها رجال الأمن رهن إشارتي، وأجوب الشارع، أن أحول العالم كله إلى هنا، كنت غارقا في الواقع أحسب الدقائق قبل وصول جلالة الملك، وكان الماضي كذلك يشدني إليه بقوة. وبين الانتظار الذي يؤججه الشارع ومدخل الفندق، والحنين الذي يشتعل لما أختلي بنفسي في غرفتي، كان شريط الحياة ينساب أمامي، والوجوه والمحطات والمصادفات تتراقص وكأني مجبر من الأعماق على تقديم الحصيلة.

أرى نفسي اليوم رئيسا لهرم سياحي يدعى دنيا أوطيل، وأستعد لاستقبال جلالة الملك في أحد فنادقنا، فماذا لو كان القدر قد سايرني فيما كنت أريده في صيف 1960 عندما حصلت على الباكالوريا في الفلسفة ودبلوم في اللغة العربية؟

رحم الله الحاج أحمد باحنيني، قال لي في مكتبه بوزارة الداخلية وهو يستقبل حماس الشاب الذي كنته: إنك لا تصلح لمهنة المحاماة، فمزاجك الحاد لا يمكن أن يتقبل استخفاف قاض قد لا يبالي بمرافعة تعتقد أنها ستبسط العدل.

كنت أحب هذا الرجل الذي كان محاميا، ثم سكرتير دولة بوزارة الداخلية، ثم وزيرا أولا قبل أن يُطلق عليه الرصاص في الصخيرات في المحاولة الإنقلابية لسنة 1971، ويموت ضحية جنون كنا نظن في سذاجتنا أن مناعتنا الدينية والمؤسساتية تحمينا منه. وكان باحنيني متزوجا بخالتي من الرضاعة خديجة رحمها الله، ولم يكن مبعث حبي هو وسامة الرجل ولا ابتسامته

الساحرة ولكن ذكاءه وحفظه للشعر وفصاحته هي التي كانت تدفعني لاقتفاء أثره، وها هو يحبطني.
لا أعرف هل عدلت حينها عن فكرة امتهان المحاماة أم لا، المهم أنني خرجت من مقر وزارة الداخلية، ومشيت قليلا أفكر وأستمتع بجو العاصمة الإدارية للمملكة التي كنت أزورها في أول سفر لي خارج مدينة فاس حيث ولدت.
دور فاس القديمة تتشابه. تبدو لأول وهلة كعلب مغلقة كئيبة موضوعة جنبا إلى جنب، وتبدو الأزقة الضيقة، التي لا تتسع في نهاياتها المتعددة لشخصين، كمتاهات يضيع فيها كل أجنبي عنها، وضمن كل مدن المغرب العتيقة، تبقى لفاس خصوصية العراقة والغموض الساحر.
كل أجزاء الصور التي تحتفظ بها ذاكرة الطفل الذي كنته تبقى بعيدة عن ضيق الأزقة وروائح الدباغين ورطوبة الجدران وعتمة الأمكنة؛ وإذا كنت لا أذكر درب العرصة بقصبة النوار حيث ولدت بالدار رقم 19، فإنني أحتفظ بصورة عن سويقة الذبان بحي الصاغة حيث رحلنا وسني لا يتجاوز السنة الواحدة، وسكنا بها سبع سنوات.
لا يختلف حي الصاغة عن حي النجارين حيث رحلنا لما اكتمل بناء دارنا.
كل صخب الطريق المؤدية للأزقة الضيقة لا تزال كما كانت منذ خمسين عاما، البغال والحمير تختلط بالبشر المزدحم على أشرطة من الدكاكين التي لا تنتهي، من النجارين إلى العطارين إلى باعة الأثواب والعطور والملابس. وبعد كل هذا الصخب، تضيق الأزقة أكثر، وينتشر الصمت رويدا رويدا، إلى أن تصل إلى العمق المسدود.
الدور في أزقة فاس العتيقة لا تكشف عن هويتها للمارة.

كل شيء مغلق، حتى تلك النوافذ شبه المغلقة، وتلك الأعمدة الخشبية التي ترفع جزءا من البناء البارز من كل دار لا تزيد الفضاء الخارجي إلا تكتما وانكماشا.

لم يكن هناك شيء أرحب من تلك الأزقة بالنسبة لي، كنت كمن رحل إلى قصر عندما استقر أبي في درب مينة. كانت الدار الأخيرة في العمق، وكانت الأزقة الملتوية الداكنة كشرايين الجسد تماما.

كان أبي هو الحياة في تدفقها. كان يضحي بالآتي ليظفر بكل الحاضر. وإذا ظفر، لا يطمئن إلا إذا تقاسم إشراقة اللحظة مع الآخرين، وعندما انتقلنا إلى بيتنا، ظهر له أن طابقا واحدا يكفي أسرته. أما الطابق التحتي فقد وهب إحدى غرفه لأحد أصدقائه، ووهب الباقي لمعلم مراكشي يحترف النقش على الخشب والجبص أعجب بعمله عند بناء دارنا، فزوجه أخته.

كان الحاج أحمد باحنيني يرافقنا باستمرار في رحلاتنا الإستجمامية إلى مولاي يعقوب وسيدي حرازم بمعية زوجته المرحومة للاخدوج.

أذكر أنني كنت أحب الذهاب عند للاخدوج. وقد كانت هذه الفاضلة متزوجة قبل أبا حنيني بجنرال فرنسي يدعى "لوبلان"، وترك لها دارا بسقاية العباسين بفاس الجديد، وما يقرب من عشر كيلوغرامات من الحلي والمجوهرات، وبين حينا بفاس العتيق، ومسكن أبا حنيني بسقاية العباسين، كانت الطريق مخاطرة حقيقية، فأطفال فاس الجديد كانوا يعترضونني ويواجهونني بعنف، ولم أكن أفلت منهم إلا بالتنازل عن كل ما كنت أخفيه في جيوبي.

لم تكن الوالدة قدتجاوزت الثالثة عشرة من عمرها عندما تزوجها أبي. كان وجهها ملائكيا، وحروفه دقيقة كتقاسيم

التماثيل اليونانية القديمة، وكانت حياتنا هادئة، رغم بعض الثورات التي كانت والدتي تحتج بها على أسفار أبي **المهنية المتعددة**، إلى أن شاء القدر أن يحولها إلى حيث الوجه الآخر للحياة، حيث الامتحان.

كان والدي يملك مقاولات في قطاع الصناعة التقليدية تُصَدِّر الثياب المصنوعة من الصوف إلى فرنسا في وقت اشتعلت الحرب فيه بين ألمانيا والدول الغربية الأخرى التي واجهت هتلر وجيوشه، وقد داهمه مرض اشتد عليه ونحن لم نُقِم بمنزلنا الجديد إلا قليلا.

كاد أن يسلم الروح إلى بارئها، ولكنه شفي بعد صراع طويل مع المرض، وأقسم بعدها ألا يمكث في البيت الذي بناه اعتقادا منه أن عتبة هذه الدار لم تكن بالنسبة إليه فأل خير.

غادرنا ما نملك إلى ما لا نملك بحي الشرابليين. واكترينا طابقا بأكمله في انتظار ما هو أسوأ، حيث أبى سوء الطالع إلا أن يلازم رجلا أحب الحياة، فلبس ثوب الكرم فيها، فخذلته وأدارت وجهها عنه. فإذا كان ربيع نمو تجارة الوالد قد انطلق منذ سنة 1938، فإن الخريف لم ينتظر طويلا، إذ حل مع سنة 1945 عند توقف الحرب ونهاية تصدير الثوب المغربي التقليدي إلى فرنسا، التي كان يروج فيها مبالغ كبيرة.

كانت علامات أزمة "الدرازة" تلوح في الأفق، وكانت بضاعة والدي وشركائه قد وصلت مرسيليا فيما كان جزء منها ينتظر دوره بإحدى المخازن بدرب عمر بالدار البيضاء.

وكان لوالدي، الذي كان أميا، مساعد يدعى ألبير، وكانت له وكالة من الوالد يتصرف بها في تجارته تسهيلا للعمليات، وعندما أحس ألبير بالأزمة، كتب كل البضاعة باسم زوجته واختفى.

أحس الوالد بهول المصاب، ولكنه لم ينهر، فكر أولا في شركائه، واعتبر نفسه مسؤولا شخصيا عما جرى، وقرر تعويضهم ببيع أملاكه الخاصة.
قد يصبح المرء فقيرا بعد الغنى، ولكن هناك أشياء في جوهره لا تتغير، تماما كالمعادن النفيسة، المهم أن يكون في دواخله ذلك المنجم الذهبي الذي يعطي للإنسان القوة حتى يتشبث بعزته وأنفته. وربما كان الجرح الذي أصاب أبي في كبريائه هو الذي عجل بوفاته. أما الحسرة، فلم تكن توجد في قاموس رجل لا يعتبر أن في الحياة شيئا أهم من كرامة الإنسان ومصداقيته.
أصبحت الوالدة أرملة بلا أجنحة في ريعان شبابها، وكنت أحس بمعاناتها وبمخاطر النفق الذي كنا نجتازه.
أتذكر الآن وأنا جالس أراجع هذه القصة على كرسي وثير، وأمامي مكتب مصنوع من أحسن أنواع الخشب الإيطالي، وبيدي قلم يصل ثمنه إلى قيمة الأجر السنوي لعامل يدوي بسيط وتحيط بي آخر التجهيزات المتطورة، وأطل على حديقة معلقة، أتذكر أمي وهي تلح علي كي أكف عن المطالعة المكثفة رأفة بعيناي، وأنا جالس على مكتب مهترئ يشغل نصف مساحة الغرفة الصغيرة جدا، والتي خصصت لي في البيت الذي عدنا إليه بقصبة النوار بعد زواجها من جديد. إن قيمة الأشياء لا يحددها إلا الإحساس بها. ومكتبي ذاك حيث كنت أهيئ دروسي الثانوية وأنا بكوليج مولاي إدريس العريق، كان في نظري فخما، لأنه مملكتي الصغيرة، حيث أمارس سيادتي بصفة كاملة لا ينازعني فيها أحد.
كان الكوليج قريبا من منزلنا، وكان منبعا دافقا زود البلاد بجزء هام من أطرها، وأذكر أنني تعرفت فيه، من ضمن من عرفت، على الفنان عبد الوهاب الدكالي والمشتغل بالسياسة أحمد

لحليمي، وعندما وصلت إلى السنة النهائية، تفضل السي جسوس، وكان رئيسا لجمعية قدماء تلاميذ الكوليج وصيدليا ناجحا وعضوا بارزا في حزب الإستقلال، وعينني مساعدا للمسؤول عن داخلية الكوليج، فكان هذا ثاني عمل في حياتي أتقاضى عنه راتبا بعد أن اشتغلت طيلة عطلة مدرسية كاملة وأنا في السادسة عشرة من عمري في معمل للنسيج بحي الدكرات عند أب الدكتور فؤاد بنجلون.
أذكر أول لقاء بهذا الفاضل.
ـ أهلا بك. ألا تجد أنك في سن الدراسة؟
ـ بلى.
ـ ومن أتى بك إلى هنا؟
ـ عمي السي أحمد.
ـ أرى ذلك، لكن مكانك في المدرسة.
ـ نعم لكني محتاج إلى عمل ولو كان متواضعا.
تطلع الحاج محمد بنجلون إلى وجه عمي فلم يقرأ فيه شيئا، إذ كان عمي مطرقا رأسه إلى الأرض.
ـ ما كاين باس مرحبا بك.
ونادى على أحد العمال، وكلفه أن يعلمني كيف أراقب آلة للنسيج لا تتطلب مجهودا كبيرا.
لم أصرف ولا سنتيما من أجرتي حتى استطعت أن أكتري لأسرتي بيتا بالمدينة الجديدة بحي الأطلس.
كنا إذن، وقبل سفري إلى الرباط, قد تركنا النفق وراءنا، وخرجنا إلى سماء الله الرحبة، وسترافقني أمي وزوجها في رحلتي التي انتقلت فيها من فاس إلى الرباط ثم أكّادير فمراكش، وكانت مستقرة في فيلا بأكّادير بمعية زوجها الذي أصبح واحدا من كبار تجار المدينة.

رجعت من الذكرى إلى أيام 1960.
استوقفني إعلان أمام مقر وزارة المالية يطلب موظفين.
دخلت إلى المصلحة المعنية، فاستقبلتني سيدة متوسطة القامة، بيضاء البشرة، حسنة الوجه تدعى السيدة بنيس، ولما عَلِمت أنني حائز على دبلوم في اللغة العربية، عرضت علي الوظيفة على الفور بمبلغ 570 درهما في الشهر، وعندما أبديت نوعا من الاستخفاف بالمنصب وقلت لها فيما يشبه الشرط بأنني لن أبقى بمصلحة التعريب كثيرا وأنني سأشتغل وأهيئ إجازتي في نفس الوقت، ردت بهدوء المجرب:" ثبت أقدامك في المنصب أولا، وأطلق العنان لكل طموحاتك بعد ذلك".
كان السي محمد بنعبد الله رحمه الله رجلا وطنيا، يرأس مصلحة التعريب. كنا نقضي فيها وقتنا ونحن نترجم وثائق الوزارة ونضعها في الرفوف، وكان مخلصا في عمله، واسعا في ثقافته العربية، وكانت سياسة الحكومة آنذاك هي تعريب الوثائق قبل معرفة من يستعملها. ولم يكن رئيسي هذا صارما، فقد كان يدفعني إلى المواظبة على محاضراتي بكلية الحقوق إلى أن حصلت على إجازتي سنة 1963.
ثم أخذ مولاي عبد السلام العلوي محل السيد بنعبد الله، وكان يحفظ الشعر كذلك ويحب أن أستمع إليه وأدون ما يستحضره من أبيات مأثورة.
كنت أسمع عن المفتش السي المفضل لحلو، وهو خريج الفوج الثالث للتفتيشية العامة للمالية ورئيس مصلحة التفتيش المالي؛ فتعرفت عليه وبقيت لي معه اتصالات إلى أن عين على رأس القرض الفلاحي حيث كان يعمل أحمد لحليمي.
شاءت الأقدار أن يتصادف حصولي على الإجازة مع تغيير حكومي أصبح بموجبه مامون الطاهري مسؤولا عن الوزارة؛

ورغم أن الطاهري سينتهي في السجن في إطار تهمة بتلقي رشاوى من شركة أمريكية، فقد كان إطارا خارقا للعادة، وقد عين وكيلا للوزارة في حكومة ترأسها أحمد باحنيني في 13 نونبر 1963، وكان السيد السلاوي مسؤولا فيها عن حقائب الشؤون المالية والإقتصادية والفلاحة.

تغير أسلوب العمل بالوزارة، وتغيرت رجالاتها، وكانت مجموعة الطاهري من الكفاءة بحيث إنني لم أكن أصدق أن يستطيع رجال الوصول إلى المستوى الذي كان عليه مسؤول مثل عبد العزيز العلمي، رئيس البنك التجاري المغربي السابق قبل اندماج هذا الأخير مع "وفا بنك"، الذي كان نابغة في الشعر بالفرنسية ، أو عبد الكريم لزرق، الشاب المتألق وصهر صاحب وفا بنك المرحوم الكتاني والذي كان هو الآخر شعلة من الذكاء والثقافة يحسن صياغة الكلام وتحريره ويتمتع بأخلاق نادرة، أو هانري بازان الذي كاد أن يكون رئيس جمهورية بلده هايتي، بعد أن تقلد منصب وزير المالية وذلك عندما عاد إليها.

ومامون الطاهري الذي كان محاميا في الأصل، وتعلم الإنجليزية بإمكانياته الخاصة، كان يدرس مع ديوانه جميع الوثائق التي ترد عليه من مختلف المصالح في نفس اليوم ويعيدها بتعليمات محددة.

كانت الوزارة ورشا مفتوحا، وكانت المجموعة التي تقودها تعيد بناء جميع المصالح.

نصيبي كان هو مصلحة التأمينات بعدما اجتزت مباراة مفتشي المالية، ولعل وضعي الإجتماعي أثر في هذا التعيين. كان مامون الطاهري يفحص ملفاتنا ويسأل مدير ديوانه عن أصل كل واحد منا، أنا كنت في نظره ابن الشعب، أبي لم يكن سوى مقاول في الصناعة التقليدية، لذلك كلفوني بأصعب مصلحة

وأكثرها فوضوية وهي مصلحة التأمينات، أما زملائي في الفوج الرابع لمفتشي المالية فقد كان حظهم يقابل أصلهم، وهكذا عينوا محمد جسوس، ابن الثري صاحب معصرة الزيوت، في مصلحة المالية الخارجية، ومحمد لحلو، ابن تاجر الذهب، في الخزينة، والفاسي الفهري في المراقبة المالية. وعلى كل، فهكذا كنت أتخيل بسذاجة بالغة آنذاك أسباب تعييننا.

لم أخف دهشتي عندما استدعاني عبد العزيز العلمي، وقد شرح لي الموقف بلطافته المعهودة متفهما التساؤلات التي بسطتها أمامه، ووعدني بأنه سيعين أحد الفرنسيين كمساعد لي في مهنتي الشاقة.

إن عصب الحرب، كما يقال، هو المال. وكان مامون الطاهري يعطي بشخصيته القوية لهذه الوزارة الحساسة كل مكانتها، وكم مرة رأيت أوفقير بكل ثقله ينتظر مامون الطاهري بديوانه، هذا في الوقت الذي كان أغلب الوزراء هم الذين ينتظرون بباب أوفقير ويمكن أن يستقبلهم أو لا يستقبلهم.

ولم يكن الطاهري يستمد قوته إلا من كفاءته العالية. ولا أنكر أنني كنت أجلس في مجلس ديوانه، وأفكاره تنهمر بغزارة، كما يجلس المريد إلى شيخه؛ كانت لحظات خشوع ستنقطع مع قضية الرشوة التي قيل إن هذا الرجل الشعلة تورط فيها.

كلفني الطاهري في بداية عملي بمصلحة التأمينات بكتابة مذكرة تدافع عن عدم تأميم شركات التأمين، وكان حزب الاستقلال حينها يدعو إلى التأميم ويضغط على الحكومة، فهيأت ورقة من ثمان صفحات، وعندما اطلع عليها، قال لعبد العزيز العلمي إن هذا الشاب جيد وله أسلوب نفاذ.

وجدت مصلحة التأمين كما تصورت بالضبط إن لم يكن أكثر. كان بها ستة أشخاص يراقبون أزيد من 300 شركة بقانون

متجاوز. وعلى الفور، رسمت اتجاهين لعملي، الأول يهم تجديد النصوص والثاني يخص تكوين المغاربة الذي سيعملون بالمصلحة وأولئك الذين سيقومون بالمراقبة المنتظمة.

قضيت بفرنسا أربعين يوما بجانب مدير التأمينات بونيتوفسكي، صديق الرئيس جيسكارديستان الذي كان خريج المفتشية العامة للمالية مثلي، وعدت بتصور واضح لعصرنة قطاع التأمين ببلادنا، وأعددت قانونا جديدا للتأمينات صودق عليه ودخل حيز التنفيذ. ولم تمر إلا سنة واحدة حتى أصبحت عندنا أقل من أربعين شركة تأمين فقط بعد عمليتين قمت بهما لمغربة القطاع والتركيز على الزيادة في رأسمال الشركات.

عندما افتتحت مدرسة التأمين بالدار البيضاء، وجدت شخصا ملائما لإدارتها وقد كان اسمه "سايكْ الريح"، والواقع أنه كان اسما على غير مسمى، إذ كان يسوق الواقع، واستطاع أن يُكَوّن جيلا من رجال التأمين على مستوى عال من الكفاءة.

ولقد تمكنت آنذاك من خلق لجنة للإدارة والتنظيم كانت مهمتها هي دراسة الطلبات الجديدة والقضايا الطارئة بشفافية ونزاهة.

كنت أقضي يوما في الأسبوع بين مدرسة التأمين وهذه اللجنة، وباقي الأيام في دراسة الملفات بالمكتب.

أصبحنا بعد خمس سنوات اثنى عشر موظفا بالمصلحة، وكنا نتحكم في القطاع برمته، وقد جلبت آنذاك أطرا جديدة وكفأة كسعد الكانوني، وهو**الذي أصبح بعد ذلك** رئيساً لإحدى كبريات شركات التأمين، والسيدة زوليخة الناصري التي كانت مساعدة لي في قسم المراقبة وأصبحت فيما بعد كاتبة للدولة ثم مستشارة لجلالة الملك وغيرهما.

رغم كل الإعجاب الذي كان لي بمامون الطاهري، فإنه لم يكن يحسبني من مجموعته أو تياره، وأنا كنت ميالا لمدرسة عبد

العزيز العلمي. وقد رقى الطاهري محمد لحلو إلى منصب رئيس قسم, مع احتفاظه برئاسة مصلحة الخزينة. كنت أظن أن لحلو ليس أكبرنا سنا ولا تجربة وليس له إلمام بقضايا القسم بأكمله.

طرقت باب الطاهري عندما نفذ صبري، وناقشته في الأمر، فرد علي بدهشة مصطنعة:

ـ هذا غير معقول!

وسألني إن كنت أريد تدخين سيگار، فأجبته أنني لا أدخن، ولكنه أدخل السيگار في جيب معطفي وقال لي سأتصل بك.

مرت سنة دون أن يستدعيني إلى ديوانه، وفهمت أنه لم يقبل أن أنتقد قراره.

عندما اعتقل الطاهري، زرته في السجن وأخذت معي علبة سيگار، وعندما أعطيته إياها سألني إن كنت مازلت مؤاخذا له في قضية لحلو، وكأنه تذكر سيگار المكتب الوزاري، فقلت له إن هذا أصبح ماضيلُسِيَ ، وقد كان بالفعل، ولم آت بالسيگار إلا لعِلْمي أنه كان شغوفا به.

نادى علي عبد الكامل الرغاي لأعمل معه بصندوق الإيداع والتدبير، فكانت النهاية لمشوار بالإدارة المركزية لوزارة المالية دام عشر سنوات، والبداية الأولى في مشوار السياحة التي أوصلتني إلى هذه اللحظات التي أنتظر فيها جلالة الملك بوارزازات.

هكذا إذن عشت لعبة تبدو في ظاهرها مكلفة ، ولكن باطنها كان يجعل الرجال الذين يقفلون أبواب رغباتي يفتحون لي فضاءات واسعة نحو ما كان يهيئه القدر لي.

أقفل المرحوم باحنيني باب المحاماة خشية علي، ففتح باب وزارة المالية، وأقفل الطاهري باب التعريب، ففتح باب

التأمينات، وأقفل لزرق باب المالية، ففتح باب السياحة العمومية، وسيقفل لمفضل لحلو باب صندوق الإيداع والتدبير ليفتح باب هرم دنيا أوطيل.
كان للمفضل لحلو تكوين جيد، وكان عنيدا وصلبا، لذلك كان يتعصب لما يقتنع بأنه مصلحة عامة، وهذه خصلة محمودة، إلا أنها تتحول إلى كارثة عندما يكون على خطأ.
وكان لحلو يعتبر أنه ورث من عبد الكامل الرغاي مؤسسة مهزوزة بسوء التسيير، وبالتالي لم يكن يحب كل المحسوبين على الرغاي, وأنا كنت منهم.
أصبحت مديرا لشركة المغرب السياحي التابعة للصندوق منذ شتنبر 1970، وقد كانت لنا فنادق بشمال المغرب، في كل من ريستينكا سمير والحسيمة والناطور وكتامة والشاون.
وجدت الشركة تراكم الخسارات، وبعد خمس سنوات استطعت أن أقوِّم عجزها وبدأت تحقق الربح.
كانت القناعة السائدة آنذاك عند المسؤولين هي أن حل مشكل السياحة لا يوجد إلا في تكليف الشركات الأجنبية بها، ولم أكن مقتنعا بهذا الطرح، وإذا كنت قد تعلمت في شركة "المغرب السياحي"، واحتككت بمهنيين من مستوى عال، واطلعت على الطريقة التي كانت تشتغل بها مجموعات دولية مهمة فرنسية وألمانية، كالنادي المتوسطي، وشركة "شتاين بركير"، فإن قناعتي ترسخت بأن تدبير السياحة ليس إلا مسألة تعلم وكسب تجربة لا غير.
لم تكن النتائج التي حققتها لتدفع لمفضل لحلو باتجاه تليين مواقفه، بل إنه ظل يجمد العديد من مشاريعنا، وظل معترضا على إكمال بناء فندق التلال الذهبية بأكادير.
في إحدى صباحات ربيع سنة 1975، هتف لي لمفضل لحلو،

وطلب مني أن أستقبل شخصا يدعى فيليب كورسون، وأوصاني به خيرا على أساس أنه جاء بتوصية من وزير المالية آنذاك عبد القادر بنسليمان.

جلس أمامي كورسون، وأخبرني أنه مستشار لشركة الرئيس إلي دو روتشيلد التي تعمل في التسيير الفندقي وتحمل اسما تجاريا معروفا بـ "پ. ل.م" وقال إن المجموعة عازمة على العمل في المغرب بسبب ما يعرفه القطاع السياحي من انتعاش واعد. وإلى هنا كانت الأمور عادية. وسيصدمني كورسون عندما سيفصح لي عن غرض زيارته بشكل مباشر. قال: شركة روتشيلد تريد أن تسير الفنادق التي كانت تسيرها شركة المغرب السياحي. ولما كنت أنا المدير العام للمغرب السياحي، فقد فهمت بشكل واضح أن كورسون يقترح علي أن أقبل اختفاء منصبي.

بكل ديبلوماسية الحوار، شرحت لكورس طبيعة الفنادق التي أسيرها. إنها فنادق عتيقة وأصيلة وأطرها ومستخدموها يعيشون في جو أسري ولا يمكن لروتشيلد أن تحس لا بأصالة الفنادق كبناءات ولا بحرارة العاملين كمغاربة، والحقيقة أنني كنت مؤمنا بمشروعية دفاعي عن منصبي.

وبعد أخذ ورد، تحولت إلى الوضوح التام وقلت له: إنكم مسيرون ونحن مسيرون، فما الداعي لنسلمكم فنادقنا؟

كان هذا الاجتماع سيئا، وقد خرج كورسون دون أن يأخذ معه أدنى بصيص أمل في الحلول محل المغرب السياحي.

كان فيليب كورسون مسنودا. فقد كان يدرس مع وزير المالية الذي أرسله إلينا بتوصية، وكان أبوه هو مدير الخزينة بالمغرب على عهد الحماية، وبعد دراسته في المغرب عاد إلى فرنسا، وقضى خدمته العسكرية بالجزائر، ثم أصبح مستشارا لروتشيلد.

كنت متأكدا أن ما جرى في الاجتماع لن يعجب لمفضل لحلو،

وقد صدق حدسي. لم يكن لمفضل لحلو وهو يكلمني هاتفيا من مكتبه مساء اليوم الموالي يخفي غضبه، وقد طلب مني بإلحاح أن أستقبل كورسون مرة ثانية وأحاول التفاهم معه.
استفسرت لمفضل عن أي مجال للتفاهم بقي ومبعوث روتشيلد يريد أن يسير فنادقنا، فرد ببرودة: ولم لا؟
بكل جرأة قلت للحلو إنني جئت هنا لأسير الفنادق لا لأفوتها، فعقب بأن الأمر ليس تفويتا ولكنه تسيير فقط. وكان على صواب.
انتهت المكالمة وهو يلح علي لاستقبال كورسون من جديد وهو ما لم أفعل.
لم يعد هناك مجال للمجاملة، لذلك قال لي لمفضل بعد يومين وهو يتصل بي هاتفيا: استقبل كورسون، وهذا أمر. فسألته عما إذا كان هذا الأمر إداريا، فقال لم نصل بعد إلى هذا الكلام، وخفف بعد هذا من حدة نبرته راجيا مني أن أساعد مبعوث الوزير وأن أريحه من هذا المشكل.
كان كورسون مع شخص آخر، وأنا أستقبله في المرة الثانية، وكان مختلفا، وبادر إلى التوضيح بأن ما حصل في الاجتماع الأول كان سوء تفاهم، وأن روتشيلد كانت تريد الفنادق ومعها عبد الهادي العلمي كذلك.
وأمام اندهاشي واستفساراتي، خلص كورسون إلى أنهم لا يريدونني أن أشتغل عندهم ولكن يريدون بكل بساطة أن أكون شريكا لهم.
كل شيء إذن انقلب رأسا على عقب. استسمحت كورسون، وخرجت إلى السكرتارية، واتصلت بالمفضل لحلو:
ـ آلو... إن مبعوثي روتشيلد لم يأتيا لأخذ فنادق المغرب السياحي فقط، ولكن جاؤوا لأخذ مديرها كذلك.

وببرودة رد:
ـ إنك محظوظ!
أحسست حينها أن المفضل لحلو أخرج راحة يده من سماعة الهاتف وصفعني. لقد خدش كبريائي، وبما يشبه التظلم قلت له:
ـ أهذه هي مكانتي عندك؟ وحتى من باب المجاملة كان بالإمكان ... فقاطعني قائلا :
ـ إيوا خلاص من العواطف... إلى اللقاء.
رجعت إلى المكتب، وطلبت من كورسون ومرافقيه أن نتحول إلى الصالون، وأخرجنا الأوراق، وهيأنا الشركة برأسمال لا يتجاوز 10 مليون سنتيم، كانت حصتي هي 43% وحصة روتشيلد 34% وحصة البنك التجاري المغربي 17%، والباقي وزعناه بين القرض العقاري والسياحي والبنك الوطني للإنماء الإقتصادي, والكل بموافقة الوزير بالطبع, وباقتراح مني, حيث كنت أخشى أن أتهم بحمل المغرب السياحي في حقائبي وأنا أغادره. وبهذه الطريقة كونت شركة مواطنة لا تخضع لتيار أحادي.
بدأت إذن مغامرة القطاع الخاص، وكانت مشكلتي الوحيدة هي تدبير المبلغ الذي يتناسب مع حصتي وهو 43 ألف درهم, ولم أكن أملك منها أي جزء حينها.
عندما وصل جلالة الملك إلى وارزازات كان محيط فندق كرم قد تحول إلى عرس كبير لا ينقطع، وبقدر ما كان لمفضل لحلو في أيام صيف 1975 يبدو لي قاسيا وجارحا بقدر ما يبدو لي في هذه اللحظات من صيف 1985 الرجل الذي أسدى لي خدمة العمر.
لم تكن الخيمة المقابلة للفندق تهدأ بإيقاعات الفرق الفلكلورية المتنوعة.
بعد يومين، أُخبرت بضرورة الحضور للمقابلة الملكية، كنت في

الوقت المحدد بعيدا بمائة متر تقريبا عندما رأيت جلالة الملك يخرج من الفندق ووراءه الحاج المديوري.
كانت هيبة جلالته تجعل الرهبة تسيطر علي. وقف أمامي والتفت إلى المديوري وسأله:
ـ هل هذا صاحب الفندق أم مسيره؟
ـ مالكه نعم سيدي. أجاب المديوري.
قبلت يد جلالته، وقدمت له زوجتي الفرنسية، وكذا ابنتي نادية، أما ابني عبد الكريم فقد كان مسافرا خارج المغرب.
كانت عظمة جلالته تكبر من خلال بساطته، وكان بشوشا وبابتسامة دافئة قال لي:
ـ مرحبا بنا عندكم.
ـ الله يطول في عمر سيدي.
ـ هاد الشي مزيان، والسياحة ماشيا . واشنو عندكم تما؟
وكان جلالته يشير إلى ملاعب التنس.
ـ نادي لكرة المضرب نعم سيدي.
وبعد ربع ساعة انتهت المقابلة وعدت إلى حيث كنت أرى جلالته يدخل الخيمة المخزنية ويأخذ آلة الإيقاع ويوضح للفرقة فن الإيقاعات المنبثقة من عمق بوابة الصحراء.
أخبرنا أن جلالة الملك سيتوجه من بعد إلى أرفود، وكانت المفاجأة السارة الثانية هي أن جلالته سيقيم بفندق سجلماسة، وكانت شركتنا دنيا أوطيل تسير هذا الفندق بناء على عقد كراء من المكتب الوطني للسياحة.
سافرنا، قبل انطلاق الموكب الملكي، مع الأمن الخاص لجلالته ومساعدي پاكار، وبدأنا في التهيئ.
كان فندق سجلماسة من خمسة نجوم، ولكنه كان أصغر من فندق كرم، حيث إن عدد غرفه لم يكن يتجاوز الثمانين، وكان

فندقا جميلا يطل من مرتفع على واحة كلها نخيل، وكان عتيقا.
لم تحصل دنيا أوطيل على عقد كراء هذا الفندق إلا بعد أن قطعت أشواطا من التطور المسترسل.
أرفود مدينة صغيرة حالمة، وأمام جمالها وبجانب الفندق عاد شريط الذكريات.
لم أعرف عبد العزيز العلمي مديرا لديوان مامون الطاهري فقط، ولكن المصادفات شاءت أن نلتقي سنة 1960 في نفس المكان وعند نفس الطبيب عندما كنا سنقوم بالفحص الطبي لاستكمال ملفنا الإداري بوزارة المالية.
وعندما نادى مساعد الطبيب على مفتش المالية العلمي، استجبت أنا، فقال لي عبد العزيز بلطف إنك لست مفتشا للمالية يا رفيقي، بل مفتشا مساعدا بالإدارة المركزية للمالية، وعندما تأكد مساعد الطبيب من الاسم الشخصي كان بالفعل كذلك.
شدني هذا الرجل وأثارتني طريقة كلامه، وتقربنا من بعض، ومنذ ذلك الوقت توطدت العلاقة بيننا.
سيكون لعبد العزيز العلمي مسار مهني رائع، وقد رفض بعض المسؤوليات التي اقترحت عليه، وارتأى أنها لا تتماشى مع ميولاته. كان مستقيما وناجعا وخدوما، وقد عرضت عليه وزارة المالية فاعتذر لأسباب لم نفهمها حينها.
لم يكن أمامي إلا باب عبد العزيز العلمي عندما أردت تدبير مبلغ مساهمتي في شركة "دنيا"، وما أن طرقته حتى أعطى تعليماته ليصرف لي المبلغ كقرض.
إن بنية الشركة التي أسسناها كانت واعدة. كان للقطاع العام فيها نصيب، وكانت الشركة الأجنبية قد تعاملت بمروءة وبدون نية استحواذ، حيث دخلت كشريك له نسبة في الأرباح ونسبة على إعارة العلامة التجارية وما تبقى كان للمغاربة.

لم يكن صندوق الإيداع والتدبير يعبد الطريق أمامنا، ولم يكتر لنا في البداية إلا فندق التلال الذهبية بأگادير الذي كان في طور التشييد، فيما اكترى فنادقه بمراكش وفاس وورزازات والراشيدية مباشرة للشركة الفندقية السياحية الفرنسية.
ورغم هذا، فالصندوق لم يكن يقدم فنادقه هدية لأحد.صحيح أننا في "دنيا" لم نحصل على عقد تسيير التلال الذهبية في إطار طلب عروض، ولكن كان عقد الكراء يضمن لصندوق الإيداع والتدبير عن طريق ثمن الكراء ونسبة الأرباح تغطيه نفقات التشييد بما فيها أقساط القرض العقاري والسياحي والمساهمة الخاصة للصندوق زائد 12%.
شاءت الأقدار أن تحظى شركة دنيا الفتية بالدفعة القوية التي حرمها منها صندوق الإيداع والتدبير حينها.
اتصل بي فيليب كورسون يوما، وكان قد مر على تأسيس شركتنا سنة تقريبا، وأخبرني أن مجموعة روتشيلد تريد أن تنسحب من ميدان العقار بالمغرب، واقترح علي إما شراء ما كانت تملك أو البحث عن مشتري. كان ملف هذه العقارات ضخما: خمسون ڤيلا بحي بوسيجور بالبيضاء، وأراضي بمراكش ومكاتب وشقق هنا وهناك.
شرحت لكورسون كيف أنني لم أجد مبلغا متواضعا أسدد به حصتي في الشركة إلا بصعوبة، فكيف لي بمال يغطي قيمة كل هذه العقارات، فقال لي كورسون جملته الغريبة "إن من لا يملك هو الذي يجب أن يشتري".
قصدت مرة أخرى باب عبد العزيز العلمي وحصلت على ضمانة بنكية، واستطعت بيع العقارات، فكانت حصيلة هذه العملية هي ثماني مليون درهم تقريبا كربح في سنة واحدة استثمرته في العقار ووسعت به دنيا أوطيل.

في بداية الثمانينيات، جاء قانون المغربة، وكان هذا يعني ذهاب الشركة الفندقية السياحية الفرنسية، وكان طبيعيا أن نبادر بطلب تمكيننا من تسيير الفنادق التي كانت بحوزتنا، ولكن وجدنا دار صندوق الإيداع والتدبير على حالها، فماطلونا وفرضوا علينا شروط "الخزيرات"، وقد قبلنا على مضض زيادة في الكراء بنسبة خمسين بالمائة.

بدأ جسم دنيا يكبر إذن. فلقد استطعنا بعد هذا توقيع عقد لتسيير فندق "نفيس" بمراكش. وفي بداية الثمانينيات كنا نسير سبعة فنادق.

وبوتيرة منتظمة، اكترينا أربعة فنادق إضافية من المكتب الوطني للسياحة بمدن وارزازات وتلوين وأرفود الذي كنا ننتظر وصول جلالة الملك إليه.

نفس الإحساس كان يتجدد وأنا أستحضر الماضي القريب بكل ما فتحه لنا من آفاق رحبة، ولكن لم تكن أية لحظة من لحظات هذه المسيرة المليئة بالجهد والعناء توازي ما غمرني بوارزازات قبل أيام وما يغمرني اليوم وأنا لا أعرف هل أعيش حقيقة أم حلما؟

لاح الموكب الملكي في الأفق بعيد الغروب، وكان الجو مكفهرا، وكانت هناك زوبعة رملية قوية تجعل جمال أرفود مدثرا. وقفت في الصف الطويل، مع الشخصيات التي كانت ستستقبل جلالة الملك، وكنت أخمن أن متاعب السفر ورداءة أحوال الطقس سيكون لهما تأثير على جلالته، إلا أنني فوجئت عندما وصل دوري للسلام عليه، بتلك الحيوية التي تعبر عنها ملامحه وتلك الابتسامة الهادئة التي لم تتأثر بالزوبعة.

سأل جلالته الحاج المديوري عمن أكون، فأخبره بأنني رئيس مجموعة دنيا أوطيل فابتسم لي وحيا الحاضرين بيده، وبعدها

انتهت مراسيم استقبال جلالته، وصعد إلى الطابق الثالث حيث يوجد الجناح المخصص له.
كان صباح الغد جميلا، وكانت أرفود كطفلة تستيقظ للتو، وككل الصباحات الجميلة، فقد طلعت علينا بفأل حسن، حيث تم الاتصال بي لأهيئ ملفا بالمشاريع التي ننوي إنجازها بالجنوب قصد عرضها في وقت لاحق على جلالة الملك خلال أيام مقامه بفندق سجلماسة.
تهيئ المشاريع لم يكن جديدا على شركة قضت عشر سنوات وهي تنخرط في المشاريع الواحد تلو الآخر، لدرجة أن ما راكمته خلال هذا العقد الواحد يوازي ما يمكن أن تقوم به شركة عادية في عقدين، ولكن أن أهيئ مشروعا ليعرض على جلالة الملك، فإن الأمر كان بالنسبة لي امتحانا عسيرا.
كل المعارك التي خضناها من قبل أصبحت تبدو لي صغيرة، فقد حدست أن مصير مجموعة دنيا أوطيل سيحسم خلال هذا اللقاء المرتقب مع جلالة الملك في هذا المكان بالذات، وهذا ما حصل بالفعل.
كانت بنية المجموعة قد تغيرت، وقد جاء هذا بعد مسلسل طويل لعبت فيه الأقدار والحظ وتراكم العلاقات والخبرة دورها.
فعندما جاء الاشتراكيون إلى الحكم بفرنسا في بداية الثمانينيات قرروا تأميم بنك روتشيلد "ولكمبني دي نور" المالكة لعشرات الشركات، ومنها شركة "پ.ل.م" التي كانت لها 34% في رأسمال دنيا أوطيل. وبعد هذا التأميم بيعت "پ.ل.م" إلى شركة "فاكون لي"، وكان هذا يعني أنها أصبحت معنا بدل مجموعة روتشيلد ذات المصداقية والأمانة.
كنا مع روتشيلد أكثر من أصدقاء، وكانت علاقاتنا مشدودة بمتانة عنصر الثقة، وللأسف أن هذا الرباط المتين سيتلاشى مع

شريكنا الجديد.
كان رئيس "فاكون لي" السيد ديبون مفتشا للمالية مثلي. وكان حاجباه الكثيفتان ينمان عن جنوح لخوض الحروب التي لم يكن لها داع في نظرنا، والسيد ديبون هذا كانت له بطبيعة الحال معارف وعلاقات في المغرب. على مائدة غذاء بمنزلي بمراكش، أثار معي رغبته في أن ينضم إلى مجموعتنا السيد حسن اعبابو الذي كان صديقا له، والواقع أنني لم أكن متحمسا البتة لهذا الوافد الجديد، وهذا ما لم أخفه على ديبون، حيث أخبرته أنه بلغني أن السيد اعبابو ليست لديه أموال، وقلت له إنه إذا كانت المسألة تتعلق بالصداقة فقط، فليكلفه داخل مجموعته بما يريد.
لم نخرج بحل في هذا الغذاء، ولم يكن ديبون يحس بأننا ناقشنا موضوعا بسيطا واختلفنا وانتهى الأمر، بل كان يعتقد أنه هزم، وككل منهزم مضطرب، فقد كان له رد فعل عنيف.
وما أن عاد ديبون إلى فرنسا، حتى سلط علينا مفتشيه ليبحثوا في حسابات الشركة، وكان علينا ألا نقبل رد الفعل هذا، وكانت حجتنا بسيطة، وهي أن اتفاق الشراكة لا ينص إلا على أن تأخذ الشركة 34% من الأرباح، وهو ما يوازي حصتها في رأس المال ومليوني درهم كتعويض سنوي على إعارة الاسم، أما المراقبة فلا يمكنها أن تتم إلا في إطارها القانوني، أي بأمر من المجلس الإداري، ومن طرف خبراء مستقلين. ورغم هذا قبلنا.
غير أن الأمور بيننا لم تتحسن، فعقدنا العزم على طردهم من الشركة. واشتدت بيننا المواجهة، وعلمنا من مصادرنا في باريس أن ديبون كان يبحث عن توجيه الضربة القاضية لنا، حيث قام بمحاولات أولية لشراء حصة البنك التجاري المغربي من رأس مال دنيا أوطيل، الشيء الذي سيجعله الشريك القوي

وصاحب الأغلبية المطلقة، وهذا ما لم نكن نرغب فيه بالطبع.
في هذه الأجواء المتوترة، تقرر عقد اجتماع حاسم للمجلس الإداري والجمع العام بفندق التلال الذهبية بأكادير. جاء فريق ديبون مستعدا لخوض المعركة، وكنت أقول لفريقي إننا لن ننحن أمام ضغوطات الشريك الجديد.
قبل الاجتماع، طرقت مرة أخرى باب البنك التجاري المغربي، بمعنى آخر، طرقت باب عبد العزيز العلمي، وعرضت عليه المشكلة التي لخصتها في جمل قليلة: هذا مستثمر مغربي بذل جهدا جبارا وبنى هرما سياحيا ,ويمكن لكل هذا أن يذهب سدى ويصبح ملكا لشركة أجنبية. وعرضت عليه شراء حصة البنك في الشركة, وهو شراء دعم ليس لعبد الهادي العلمي كشخص ولكن للاستثمار المغربي بالأساس.
تفهم البنك التجاري المغربي الموقف، وباعني حصته بثمنها الأصلي زائد ربح معقول.
لم أخبر أحدا بهذا الحدث الحاسم، ودخلت إلى الاجتماع. وكما كان متوقعا تعالت أصوات احتجاج شركائنا الفرنسيين، وقالوا إنهم لا يتوصلون بأي وثائق عن تسيير الشركة وأنهم لا يشاركون في اتخاذ القرارات. وطالبوا بلجان مالية تراقب التسيير وبأشياء كثيرة كان يتوقع فريقي أن أرفضها بشكل قاطع، ولكنني مع كل اقتراح للفرنسيين أبدي موافقتي، وكان فريقي مذهولا أمام ما يحدث.
كان رئيس الوفد الفرنسي في هذا الاجتماع هو السيد جاك بولان، وقد خرج من هذه المواجهة وهو مزهو بانتصار سهل، لذلك كانت شهيته مفتوحة للأكل والشرب ونحن أمام تلك الموائد التي اخترت لها أجمل أنواع الأسماك، وكان بولان يحاول أن يجبر خاطري، وهو يشرح لي أن مطالب شركته لا تعني العداء

للطرف المغربي، وأن المراقبين الماليين الذي سيرسلهم من فرنسا لن يكونوا شرطة ولكن متعاونين فقط.
ودعت جاك بولان وأصحابه، فأمطرني مساعدي بوابل من الأسئلة الإستغرابية وكان على رأسهم فيليب كورسون الذي أصبح مستشاراً لـ دنيا أوطيل.
عقدنا اجتماعا طارئا، فأخبرت أطر المجموعة بما صار مع البنك التجاري المغربي، ولكم أن تتصوروا المفاجأة. وهذا الفرح العارم الذي غمر مساعدي لم يثنهم عن التساؤل حول دواعي استمراري في اجتماع كان سيحسم منذ البداية لو أخبرنا "ڤاكون لي" بأننا أصبحنا نملك أكثر من 51% من حصص الشركة.
كان السبب بسيطا، وهو أن إخبار بولان وأصحابه بهذا سيجعلهم يرفضون التصديق على الحساب السنوي بسوء نية مضرة بنا، وبالتالي سنظل معلقين.
طلبت من كورسون أن يهتف على الفور لبولان الذي لم يكن قد وصل إلى مكتبه بعد وأن يخبره بالمفاجأة.
لم يصدق بولان ما سمع، وطبيعي أن يختلط عليه الأمر وهو الذي لم يستمتع بانتصار وهمي عمره ساعات، وقد أضاف كورسون في حديثه الهاتفي معه بأن رئيس المجموعة يريد كذلك أن يفسخ عقد إعارة الاسم التجاري "پ.ل.م". إنها الحرب، والبادئ أظلم.
رضخ ديبون، وقبل إعادة التفاوض حول النسبة المستحقة على إعارة الاسم التجاري، وقد تحولت هذه النسبة من 3% إلى 0,3% فقط.
كان طبيعيا ألا ترتاح "ڤاكون لي" لوضعيتها، وعندما أخبرتنا بمأزقها، قلنا لها إن أمامها حلان لا ثالث لهما، إما أن تشتروا

حصصنا أو تبيعوا لنا حصصكم، فاقترحوا البيع، واشترينا منهم حصصهم بثمنها الأصلي الذي لم يكن يتعدى أربعة ملايين درهم تقريبا أديناها على دفعتين.

كان هذا هو تفكيري عندما كنت غارقا في تهيئ المشاريع التي سأقدمها لجلالة الملك. كان بودي أن أجمع آلاف الأحلام، كل الأحلام التي تدور في ذهني لأستلذ في بعض الثواني بما آلت إليه الأمور. شيئا فشيئا، بدأ الملف يتضخم: تصاميم ملونة ودراسات وصور ومجسمات... وأذكر وسط ركام هذه المشاريع أنني هيأت مشروع فندق نموذجي كنت أنوي تشييده في كل من زاكورة وأكّادير ومولاي علي الشريف بالريصاني، وهذا الفندق النموذجي هو عبارة عن واحة من ثلاثة أو أربع هكتارات تضم مائة وخمسون غرفة ومكانا للمؤتمرات يسع ثلاثمائة شخص ومسبحا كبيرا يثير الانتباه في منطقة بها نقص ماء.

وضمن المشاريع كذلك، كان هنالك اقتراح إنشاء قصر صغير للمؤتمرات بأكّادير على أرض تملكها بلدية المدينة، وبما أنني لم أكن متحمسا للفكرة، فإن هذا الملف لم يكن يحظى من طرفي بالاهتمام اللازم، ووجوده بين ما سأعرضه على جلالة الملك كان يندرج في إطار قناعتي بأن طريقنا هي قبل كل شيء طريق تعبئة من أجل السياحة المغربية، وكل ما يدخل في هذا الإطار فهو صالح وإن كان غير مشجع لمنطق مستثمر عادي يفضل الربح على الخسارة.

كنت بغرفتي في أرفود أقلب هذا الملف وذاك وأعيد ترتيبه وأفحص المشاريع مرة تلو الأخرى، وعندما هتفوا لي وأخبروني أن موعد اللقاء قد حان، ارتبكت وجمعت أوراقي وهرعت باتجاه فندق سجلماسة.

كان جلالة الملك واقفا ببهو الفندق، وكان بجانبه مستشاره رضا

اكْديرة، ووزير الداخلية إدريس البصري، ووزير السياحة موسى السعدي وآخرون لم تترك لي رهبة اللحظة فرصة تذكرهم.
سألني جلالته عن الملفات التي كنت أحمل، فأجبته بأنها مجموعة مشاريع سياحية، فبسط يده اليسرى وهممت أنا بتقليب التصاميم، ومن حسن حظ المغرب، ومن قدر مجموعة دنيا أوطيل أن أول ملف كان على رأس هذا الركام الذي أحمل هو ملف قصر المؤتمرات.
لم أكن أنوي تشييد قصر مؤتمرات ما، أو لنقل بأنه لم يكن من ضمن أولوياتي، فلم يكن لدي تمويل جاهز وكاف لذلك ولم يكن وقته قد حان، ولكن الأقدار تفعل ما تشاء.
سألني جلالته:
ـ هل هذا مشروع قصر مؤتمرات؟
ـ نعم آسيدي
ـ مزيان مزيان
والتفت جلالته إلى وزرائه، وقال لهم إن هذا الرجل المغربي يريد أن يشيد قصر مؤتمرات فساعدوه، وكررها مرتين بالعربية ومرة بالفرنسية.
وسألني جلالته عن المدينة التي سيكون فيها هذا القصر، فقلت إن المشروع مهيأ على أساس أن يشيد في أكْادير, ولكنني أفضل أن يكون في الدار البيضاء، فأجاب جلالته بأن مدينة مراكش هي الأليق، فهي مدينة جميلة، سياحية ومعروفة عند الجميع كإحدى عواصم التراث المغربي، وقصور المؤتمرات يجب أن تكون في مدينة بهذه المواصفات وليس بمدينة عادية. فقبلت يد صاحب الجلالة متيقنا أن لقائي مع تاريخ سياحة بلدي ربما قد حصل.

زاد في هذا اللقاء ارتباكي، ولم أكن أعرف ما أقول، ولعل هذا شعور طبيعي ينتاب كل مغربي وهو بين يدي جلالة الملك، ولذلك عندما أردت أن أخبر جلالته بأن لي مشاريع أخرى هي عبارة عن فندق نموذجي، قلت إن لي مشروع فندق "Proto Type", فابتسم جلالته كتعبير لطيف على أنني لم أستعمل المصطلح المناسب. وبكل اللباقة قال جلالة الملك أن هذه المشاريع يمكن أن نراها في مناسبة أخرى.

انتهى هذا اللقاء، ولم أر جلالته منذ ذلك الحين إلا في بعض زياراته الخاصة. وكان المهم بالنسبة للجميع هو أن زيارة جلالة الملك مرت في جو ممتاز وخلفت في نفوسنا نوعا من التعبئة التي لا يمكن تصورها، وإذا كان الأمر يحتاج إلى دليل حول ارتياح جلالة الملك، في رحلته، فهو إعجابه بفندق سجلماسة ومحيطه، وقد قرر أن يتحول إلى قصر ملكي عامر.

كنت سعيدا عندما أبلغوني بالرغبة الملكية، وقالوا لي إننا سنتصل بكم، ولم يتم هذا الاتصال إلا بعد سنة، كنت حينها في باريس، فذهب أحد مساعدي للمقابلة، وقالوا له سنفسخ العقدة الموجودة بينكم وبين المكتب الوطني للسياحة، فلم يبد اعتراضا، ولكنه اقترح أن تفسخ معها عقود الفنادق الثلاثة الأخرى التي لم تكن ستنتهي إلا بعد أربع سنوات ونصف، فاقترحوا أن نحتفظ بها.

كان لابد أن نشرح موقفنا الحرج، فنحن لم نكن نراكم إلا العجز في كل من وارزازات وتلوين، وكان فندق سجلماسة بأرفود هو الذي يغطي هذا العجز، وعلى هذا الأساس بني تعاقدنا مع المكتب الوطني للسياحة، والآن وسجلماسة ستحول إلى قصر ملكي، فإن وضعنا سيتغير.

وإذا كان محاورونا قد تفهموا هذا الوضع، فإنهم وعدونا بإيجاد

حل في القريب العاجل، وقد اتصل بي مساعدي وأنا بفرنسا، فقلت له إذا كان كل شيء يسير في اتجاه خدمة رغبات جلالة الملك فنحن مستعدون له.

لم يدخل الوعد الشفوي بإيجاد حل إلى حيز التنفيذ، وبقينا نتحمل أجور مستخدمي فندق سجلماسة لمدة أربع سنوات ونصف, مما كلفنا مبلغا ماليا قدره 7,3 مليون درهم.

وبعد انتهاء عقدنا مع المكتب الوطني للسياحة، حولنا المستخدمين إلى الفنادق الثلاثة الأخرى، فلم يكن الوضع مناسبا لهم، والتجأوا إلى القضاء الذي حكم لصالحهم في الابتدائي وأيد هذا الحكم استئنافيا بتعويض قدره 3,2 مليون درهم.

خسرنا إذن في هذه العملية أكثر من عشرة ملايين درهم، وقد كنا مشغولين عنها تماما، كنا في قلب عملية أخرى ستحول مصير المجموعة وستقلب أوضاعها رأسا على عقب.

إن مشروع قصر المؤتمرات استحوذ على كل اهتمامنا وأدخلنا في طريق بدأت معبدة ومنبسطة وتحولت إلى نفق مكيف مضيء وانتهت إلى دهليز مظلم قد لا نخرج منه إلا بمعجزة.

قصر الأحلام

كنت بمكتبي في إحدى أيام خريف 1986 عندما اتصل بي أحد أطر دنيا أوطيل وأخبرني أننا توصلنا بفاكس من الديوان الملكي. وأضاف أنه يتعلق بمشروع قصر المؤتمرات وأن موقعه هو الحاج المديوري.

أردت بلهفة أن أعرف المزيد من التفاصيل، قرأت الفاكس بتمعن، تأكدت أن ما قيل في أرفود قد حان أجله، فجلالة الملك يريد أن يعرف تاريخ تحقيق هذا القصر.

اتصلت هاتفيا بالحاج المديوري، فأكد لي أن مؤتمرا لطب النساء سينعقد بمراكش تحت الرئاسة الشرفية لجلالة الملك، وأن هذا المؤتمر يشرف على تنظيمه طبيب الأميرات الدكتور جون كوهن، وأن عدد المؤتمرين سيتراوح ما بين ثلاثة آلاف وخمس مائة إلى أربعة آلاف شخص.

كل الحماس الذي كان يغمرني خلال المكالمة الهاتفية خبا فجأة وأنا أضع سماعة الهاتف. لا أستطيع أن أصف حالتي حينها. كانت فرحا ممزوجا بالتهيب. إنها المسؤولية والالتزام، وهما جداران لا يمكن إلا أن يجبرا الإنسان على التوقف عندهما للتأمل.

تأكدت أن الوقت لم يعد يرحم، بل إنه لم يعد يترك مجالا لأي إحساس جانبي أو تأمل عابر. لذلك، اتصلت مباشرة بعامل

صاحب الجلالة على إقليم مراكش، وأخبرته بالموضوع، فكان استعداده للمساعدة فوريا.
كان بلماحي عمليا، وظل، خلال سنة كاملة ضائعة من البحث عن تسوية مشكلة الأرض، متحمسا ومدافعا عن بناء هذا القصر، ولكن تجري الرياح بما لا يشتهيه حماس العامل وحماسي كذلك.
لم يكن القيادي الاستقلالي محمد الوفا رجلا سطحيا أو معرقلا، ولكنه في ذات الوقت لم يكن يعي جيدا البعد التاريخي والحيوي لما نحن مقدمون عليه. وبالتالي، لم يبذل مجهودا استثنائيا. وكرئيس لبلدية مراكش، كان يرى أن قضية تفويت أرض الجماعة تتطلب بحثا ودراسة، وهو ما استغرق سنة كاملة ليقرر المجلس الجماعي تفويتنا الأرض.
لم تحصل دنيا أوطيل على الأرض كامتياز، فإذا كانت المساحة، وهي نصف هكتار، التي سيبنى عليها قصر المؤتمرات قد فوتت لنا بدرهم رمزي، فإن الأرض التي خصصت للحدائق بيعت لنا بـ30 درهما للمتر المربع، أما أرض فندق المنصور الذهبي، فاشتريناها بمائة درهم للمتر المربع، وهو الثمن العادي الذي كان مطبقا على جميع المشاريع السياحية آنذاك، وكانت المساحة الإجمالية التي حصلنا عليها هي عشرة هكتارات، جزء منها كان من الأملاك المخزنية، وجزء كانت تملكه بلدية مراكش.
تحسرت على هذه السنة الضائعة، ولكن هذه الحسرة لم تكن بالحجم الذي يؤثر على ثقتنا بالوصول في الموعد المضروب لهذا السباق المثير مع أنفسنا ومع الزمن.
كان عندي إحساس أنني أسير في طريق سيار، ولابد من السير بسرعة، ومن تصميم على عدم التوقف في أية محطة استراحة

أو التفكير في العودة إلى نقطة الانطلاق، حتى العراقيل الإدارية لم تكن لتثنينا عن هذا السير. كنا نعرف أن مواجهة تخلف الإدارة عمل يومي يمكن أن يستهلك من طاقتنا 50 أو 60% في توضيح الواضحات وتقديم التفسيرات عن التساؤلات السخيفة وتقبل الصدمات أحيانا.

لا يمكن أن أنسى في هذا الإطار وزير المالية محمد برادة. طرقت بابه، وشرحت له موقفي: "أنا مستثمر مغربي، ومُقْدِم على مشروع وطني ضخم، وأطلب أن تكون لي اتفاقية مع الوزارة أمنح من خلالها بعض التسهيلات في إطار القانون الذي يخول مثل هذه التسهيلات لكل من تجاوز استثماره ثلاثين مليارا في مشروع واحد". سألني عما أريده بالتحديد، فكتبت له إثنا عشر مقترحا تتضمن مساعدات في الماء والكهرباء والهاتف والجمارك وغيرها.

قرر الوزير برادة دعوتنا بعد ستة أشهر لاجتماع حضره جميع رؤساء مصالحه، وطلب مني أن أقرأ مقترحاتي، ومن دهشتي، رددت بأنني سلمته المقترحات منذ مدة طويلة، فألح أن أقرأها جهرا وبندا بندا.

وطلب مني أن آخذ قلما في يدي.

قال: اقرأ الطلب الأول، فقرأته.

قال: اشطب عليه، ففعلت.

الطلب الثاني، قرأته.

اشطب عليه، فعلت.

الطلب الثالث، قرأته.

اشطب عليه، فعلت.

وسار الأمر هكذا إلى أن وصلت إلى الطلب الأخير فطلب مني أن أشطب عليه كذلك!

ولكن لم يبق هناك شيء السيد الوزير!
أجبت بتعجب، فرد بمكر:
إيوا ما نخليوكش بلاش. عاود داك الطلب السابع
كان هذا الاقتراح تقنيا يطلب أن يكون هناك فصل واحد تجمع فيه كل أدوات مرفق معين من مرافق الفندق بدل أن يكون هناك فصل لكل نوع من الأدوات، وكان الهدف منه هو تسهيل المراقبة المالية وربح الوقت.
أعدت قراءته، فقال برادة:
هذا هو الذي نستجيب له.
ولكن أسي محمد، هذا لا يستجيب للطلب ولا لما يخوله قانون الاستثمار.
رد علي بحزم:
شوف، إذا كنت شجاعا فأنا لست مخاطرا.
فض الاجتماع، ورافقني برادة إلى مخرج الوزارة، ولم أخف تذمري، لأنني أكدت له أن مشروع القصر سينجز بإعانة الخزينة العامة أو بدونها.
وعند الوداع، همس في أذني قائلا:
براڤو، لو كان لي عشرة من أمثالك فلا تتصور ماذا يمكنني أن أفعل.
فارقت الرجل ولسان حالي يقول كفاني الله شرك وشر أمثالك.
هذا وزير مالية لم يأت بشيء مبدع في حياته كلها, رغم توفر المال الكثير لعائلته، ويعلم علم اليقين أن قصور المؤتمرات لا تتحمل أعباء بنائها الشركات الخاصة على مستوى العالم بأكمله, ويرفض أن يقدم أية مساعدة لمن أخذ على عاتقه بناء فضاء جديد ومتميز للمؤتمرات بحجم كبير يتسع لخمسة آلاف شخص ويدعمه بفندقٍ من خمسة نجوم يحتوي على ما يناهز ألف

سرير. كان برادة عموما معتدا بنفسه ولم يكن في نظري مكترثا بما فيه الكفاية بالمصلحة العامة. غير أن كل هذا بالنسبة لي لم يرتق إلى شيء له أهمية ما، لأن الأساس كان هو البحث عن بطاريات لتتواصل قوة الدفع لما كنا بصدده.

ما واجهناه مع الإدارة لا يختلف كثيرا عما واجهناه مع الممولين المحتملين. كان ملفنا مضبوطا، ودراسته محكمة، صحيح أن جميع قصور المؤتمرات في العالم لا تحقق أرباحا، ولكن مشروعنا خطط له بشكل مختلف، فالقصر لن يكون وحده، بل في إطار مركب يضم فندقا ضخما ومطاعم ومرافق متعددة.**وعلى كل حال هكذا كان حلمنا بالبداية .**

وكانت الدراسة تشير إلى أنه إذا كان مردود الليلة السياحية الواحدة هو مائة دولار، وحققنا نسبة تشغيل تصل إلى ستين في المائة- وهي عادية في مراكش حينها فيمكن للمشروع أن يؤدي جميع التزاماته في أقل من عشرين سنة.

وبهذا الملف اتصلنا بجميع الأبناك، فرفضوا الانخراط معنا في المشروع بدعوى أن نسبة المخاطرة فيه مرتفعة في نظرهم، وسيعيد التاريخ نفسه لنجد مرة أخرى صدرا رحبا يتيما هو صدر عبد العزيز العلمي.

في أكتوبر 1986، شكلت ما يبدو لي اليوم بمثابة مركز لقيادة العمليات، وككل حرب كبرى، كان لابد لنا من تخطيط، وهذا ما قمنا به خلال شهرين كاملين.

في شقتي بـ"فندق نفيس"، بدأنا نجتمع بشكل ماراطوني، وكانت الاجتماعات تدوم النهار كله وجزءا من الليل كذلك. كنا نفتح الملفات المتعددة، ومع كل ملف تطرح أمامنا مئات علامات الاستفهام.

كيف سنبني المركب؟ ما هي المقاولة المؤهلة لذلك؟ أي شكل

يجب أن تأخذه هذه المعلمة؟ هل تكون الهندسة أندلسية أم إيطالية أم مغربية محضة؟ وأي قصر يجب أن نستلهم منه شكل قصرنا؟ ومن سبق له منا أن زار قصرا للمؤتمرات خارج الوطن؟ وهل هناك مهندسون مغاربة لهم الخبرة المطلوبة في هذا المجال؟ وإذا اضطررنا إلى جلب مهندسين أجانب، فمن يعرفهم؟ وكيف نتصل بهم؟

الأسئلة جاهزة، والأجوبة صعبة وبعيدة المنال. يطول بنا النقاش، ونختلف أحيانا ونتفق أحايين أخرى، ويظل النقاش متواصلا بحماس فريق أصبح يربط نجاح المشروع بنجاحه الشخصي، أحيانا لم نكن نشعر بالوقت حتى ينتبه أحدنا إلى أننا في الساعات الأولى من صباح الغد، ولكن قاموسنا لم يعد فيه شيء اسمه التعب.

النتيجة الأساسية الأولى التي خرجنا بها هي أنه لا يمكن أن نصل إلى هدفنا في وقت قياسي إلا إذا تحولنا إلى مقاولة بناء، وبالفعل خلقنا شركة أسميناها "المعامل التقنية المتحدة"، وكانت ذات اختصاصات متعددة من بناء وديكور وهندسة مدنية وغير ذلك.

ولنضمن الفعالية، هيكلنا هذه المقاولة على الطريقة التي تهيكل بها المقاولات الدولية، أي إدارة تتحكم في جميع شؤون المقاولة ولها لجنة مصغرة تأخذ القرارات بسرعة بما فيها القرارات المالية وتكون لها إمكانات جاهزة.

كنا في وضعية المجبر لا البطل كما يقول الشاعر، فلا نحن نستطيع أن نلجأ لخدمات مقاولات متعددة الاختصاصات ونلتزم بتاريخ التحدي الذي حددناه لنهاية أشغالنا، ولا نحن خبراء بالمواصفات الدولية في المجال الذي ننخرط فيه.

كان هناك جون موسينييه، وهو من قدماء دنيا أوطيل، وكان

أبوه يعمل بالقصر الملكي مكلفا بالخيول الملكية وبدأ عمله عندنا كطباخ، وتعلم الصيانة فترك الطبخ، وتعاطى ميدانيا لقضايا البناء والصباغة وأصبح متعدد الاختصاصات في البناء والكهرباء والتكييف وغير ذلك. وكان معنا كذلك مهندسنا المعماري لوتكسورون.

وعلى الرغم من أن لوتكسورون ابن الدار، وكان يسبح معنا في نفس أمواج حماسنا، فإنه لم ينج من ضغوطاتي، وأجبرته على إنجاز تصميم إجمالي للمشروع في شهر واحد، ونفس الشيء كنت أقوم به مع الجميع، أي دفعهم إلى استغلال الحدود القصوى لطاقاتهم.

خلال شهرين، كان عندنا التصميم الإجمالي الذي قررنا أن يكون فيه شكل المركب ما بين الأندلسي والفرعوني، وأن تكون فيه أعمدة كثيرة تتخلل كل فضائه، وحددنا شكل الحدائق والمسابح وغير ذلك، كما ساعدتنا خبرتنا الفندقية في التوفر منذ البداية على فكرة واضحة حول الممرات والمداخل والمخارج في المركب.

من القرارات الكبيرة التي اتخذناها حينها هو أن يكون للمركب طابق تحت أرضي يشمل جميع المرافق الفنية من صيانة وإصلاح وتخزين، لقد كان الأمر يتعلق ببناء مدينة صغيرة، ينتظر أن يكون فيها أكثر من ثلاثين مخزنا مبردا تبنى وتزود بمحركات، ويمكنها أن تخزن وجبات شهر كامل، كما أنه بجانب هذه المخازن تكون هناك مطابخ لتهيئ الوجبات التي تكون موجهة للطهي والتقديم في مطاعم المركب.

وعملنا على أن تكون مطاعمنا قادرة على تهيئ ثلاثة آلاف وجبة يومية، وذلك مراعاة للعدد المنتظر للمؤتمرين وللطاقة الاستيعابية للفندق.

كانت المعالم الأساسية للمشروع واضحة أمامنا بعد شهرين من التهيئ، وانخرطنا في البناء ابتداء من شهر دجنبر.
كان المهندس الطوبوغرافي آبتون بطيئا، ولكن إتقانه الفريد كان يشفع له، وقد قام بالشطر الأكبر من المسح قبل أن تبدأ أشغال البناء، وحتى المهندس لوتكسورون لم يكن يكمل بعض التصاميم التفصيلية دون أن يجدنا قد سبقناه، وكنا مضطرين في النهاية للبناء مباشرة في بعض الأماكن لأن التصاميم لم تكن قد أنجزت بعد، لقد كنا نسير بسرعة يصعب أن يواكبها الجميع.
سيجنا الأراضي المخصصة للمشروع، وبنينا بعض البراريك وبعض المكاتب المكيفة، لأننا كنا نعرف أن عملا شاقا ينتظرنا في حرارة صيف مراكش التي لا تطاق. ووضعنا في خزينة حديدية بعض الأموال والشيكات واستقدمنا سبعين من أطر شركتنا من رؤساء مصالح وأقسام وكل من لهم خبرة كبيرة أو صغيرة تهم المشروع.
عندما كنا نبني الطابق التحت أرضي، لم يكن أحد يرانا من الخارج. لذلك، كان مستحيلا تصديق أننا نؤطر مئات العمال الذين جاؤوا جميعهم من خارج الشركة، ويتوزعون في مجموعات من مائة إلى مائتين على الأوراش المفتوحة.
أصبحتُ بعد ستة أشهر رجلا آليا، أقطع يوميا ما بين عشرة وخمسة عشر كلم مشيا على الأقدام، أبيت في فندق النفيس وأقضي اليوم كله وجزءا من الليل في الورش، كنت أستيقظ على الساعة السابعة صباحا، وبعد نصف ساعة أكون في الورش، ويحدث أحيانا ألا أعود إلى فراشي إلا على الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا, بما في ذلك يومي السبت والأحد.
كنا نصرف ملايين الدراهم يوميا، وقد كانت الحاجة إلى التمويل ملحة، إنه الجبل الذي كان علينا أن نقهره، خصوصا

وأن موارد دنيا أوطيل الذاتية لا يمكنها أن تغطي جميع التكاليف في ظرف وجيز.
وإذا كان الرئيس المدير العام للبنك التجاري المغربي قد حل جزءا من مشكلتنا بتمكيننا من تسهيلات بنكية في حدود مبلغ خمسين مليون درهم، فإن الورش الذي ذهب إلى الأمام كان بحاجة دائمة إلى ما يلتهمه من إمكانيات مالية.
كان يصعب علي أن أعود إلى الديوان الملكي، فالأمر كان يبدو بمثابة قصور أو هزيمة، وكنت أعيد مع طارق ابن زياد أن المستحيل وراءنا و"القصر" أمامنا وليس لنا والله إلا إنجازه وبأي ثمن.
كان إرهاقنا بعد ستة أشهر من العمل بلا حدود، والذي كان يجعل بعض الزوار متشائمين من إمكانيات وفائنا بالتزاماتنا هو أن نصف العام هذا قضيناه كله في الطابق التحت أرضي, بحيث لم يكن هناك أي سنتمتر بناء فوق الأرض.
زارنا الطبيب جون كوهن في الورش في هذه الفترة بمعية بعثة من الأطباء الذين كانوا يهيئون للمؤتمر. لم يصدقوا أبدا أن هذا الخلاء الذي تجولوا فيه سيحتضن مؤتمرهم بعد سنة. وانطباعهم هذا لم يخفوه عن الحاج المديوري عندما رجعوا إلى الديوان الملكي. ولكن الحاج المديوري طمأنهم، بل إن جون كوهن راهن زميله يوسف بوطالب، طبيب النساء المعروف بالدار البيضاء، وشطروا ورقة من فئة عشرين دولارا شطرين، وبقي مع كل واحد شطر، على أساس أنه إذا اكتمل المركب في الموعد فسيعيد كوهن نصف الورقة إلى بوطالب مع هدية، وإذا لم يكتمل فسيكون العكس.
وعاد جون كوهن مع مؤتمرين من الولايات المتحدة الأمريكية عند جلالة الملك، وأخبره بتخوفهم من عدم إمكانية إنجاز قصر

المؤتمرات في الآجال المحددة، فطمأنهم جلالته، وقال لهم إنني أعرف الرجل وسيفي بوعده، وأنا أضمنه.
وعندما بدأنا نبني فوق سطح الأرض، انتابنا شعور مختلف تماما؛ كانت أفكارنا الصغيرة، وأحلامنا الكبيرة التي أنتجناها في مكاتب الفندق والورش، بدأت تتجسم؛ كنا إزاء ولادة جديدة وكان الطابق التحت أرضي بمثابة الحمل وما فوقه كان طفلا يولد للتو.
وبدأ الطفل يكبر بسرعة.
كان كل شيء يتم في نفس الوقت، فالعمل الطبيعي أو لنقل العقلاني لم يكن ليلائم رهاننا، كنا نشتغل في إطار لجان، نوزع التصاميم، ويشرع العمل في أوراش متعددة، ونقوم بجولات على هذه الأوراش لنصلح في عين المكان كل ما بدا أنه لم ينفذ بشكل جيد، وفي نفس الوقت الذي كان يتم فيه البناء كانت الخيوط الكهربائية تزرع وأعمال الترصيص والجبص والزليج والرخام تتم.
خصصنا مساحة شاسعة في قلب فندق المنصور الذهبي تليق برحابة المكان، وفي وسطها كان هناك المسبح الضخم، واقترح علينا لوتكسورون أن تتخلل هذه المساحة بِنَايتان متوازنتان لتكسير هذه الشساعة.
أقنعني لوتكسورون على الأوراق، ونفذ تصميمه، وفي إحدى الصباحات، وجدت البنايتين وقد بنيتا. وقد صدمت، فهدفنا الذي كان هو تكسير شساعة المساحة، كسر بالنسبة لي الأفق الذي كنت أطمح أن يبهر كل من دخل إلى قلب الفندق.
في أول اجتماع مع لوتكسورون، طلبت منه هدم البنايتين. لم يقدم لي جوابا حينها، ولم يستجب لطلبي بعد مرور أيام، وانتظرت يوما مغادرة لوتكسورون للورش كي أطلب من عمال

البناء هدم البنايتين، وعندما عاد في الغد، لم يجد البنايتين ولم يثر معي الموضوع إلى اليوم.
جلبنا خمسين ألف متر مربع من الرخام من إيطاليا، وخلال سفرية استغرقت يومين، اشترينا الثريات الضخمة من تشيكوسلوفاكيا بقيمة مليون دولار ونيف، وجاء مع الثريات فنيون تشيك لتركيبها.
دخلت يوما إلى الحانة المركزية المثمنة الأضلاع بالطابق الأول، وكان التشيكيون قد انتهوا من عملية مضنية لتثبيت الثريا في قلب سقف الحانة الذي كان مغطى بالخشب المنقوش بالذهب، ولاحظت أن الثريا ليست في مكانها بالضبط، حاول الفنيون إقناعي بالعكس، قالوا إن الأمر في أسوأ الحالات لا يتعلق سوى ببضع ميلمترات لن يعيرها أحد أي اهتمام، إلا أنني أصررت على أن تعاد الثريا إلى مكانها بالضبط، فاضطروا إلى إعادة هذه العملية الشاقة ليكتشفوا أنهم كانوا بعيدين عن نقطة الوسط بخمس سنتمترات تقريبا..
كنت أطلب سرعة قياسية في الإنجاز، ولكن ليس على حساب الكمال. ولم يكن لأحد القدرة على وضع الحواجز في طريقنا السيار. ورغم هذا فالدواس الذي نتحكم فيه كنا نضغط عليه بقوة، أما ما كان خارج إرادتنا، فإننا كنا نحاربه.
خضنا حربا مع القرض العقاري والسياحي، كان هذا البنك في مشاريع أخرى يقترح علينا المزيد من القروض ونرفضها، وفي مشروع "القصر"، غير وجهة نظره، وفرض علينا شروطا مجحفة، فرض علينا ألا يتجاوز حجم القرض 50% من الكلفة الإجمالية للمشروع، فقبلنا مكرهين.
ولكن الذي يكون في الحرب لا يمكنه أن يحسب الرصاصات التي يتم إطلاقها، ونحن لم يكن بإمكاننا أن نقيم كلفة المشروع

النهائية قبل إنهائه، فكيف سنحدد سقف هذه الخمسين في المائة؟ وعندما وصلت مصاريفنا إلى 250 مليون درهم، توقف القرض العقاري عن مواكبتنا، وبصعوبة عاد ليمولنا قبل أن يتوقف مرة أخرى عندما وصلنا إلى 340 مليون درهم من المصاريف، أما عندما وصلنا إلى 530 مليون درهم، فإنه اتخذ قرارا نهائيا لا رجعة فيه بأن لا يتجاوز سنتيما عما كان قد وصل إليه وهو 247 مليون درهم من القروض.

كان هذا وجها لمشاكلنا فقط، أما وجهها الثاني فهو أن هذا البنك أخذ ضمانات متداخلة على عقار المشروع وجميع عقارات مجموعة دنيا أوطيل وعلى الأصول التجارية، وأخذ كذلك من صاحب المشروع ضمانات شخصية. فأصبحت دنيا أوطيل وصاحبها رهينة عند القرض العقاري والسياحي بما في ذلك الفنادق الموجودة في جنوب المغرب, أي وارزازات وزاكورة وأكادير والتي كانت ديونها بسيطة جدا وهذا في حد ذاته عبث كبير بالمصالح الاقتصادية لدنيا أوطيل كشركة رائدة وللمغرب ككل.

كان مؤلما أن يتركنا القرض العقاري والسياحي في منتصف الطريق بعد أن صرفنا الملايين في شراء الرافعات والشاحنات ومواد البناء وآلاف الكيلومترات من الأسلاك والحديد وغير ذلك.

بعنا طائرتنا الخاصة التي كنا قد اشتريناها من هيوستن، بعنا العقارات التي استثمرنا فيها الأموال التي ربحناها من صفقة روتشيلد، ولكننا لم نستطع أن نوفر السيولة اللازمة للاستمرار.

مرة أخرى اتجهنا إلى باب عبد العزيز العلمي. بعث مراقبي بنكه إلى الورش، ولما عادوا بالتقرير، أضاف ثمانية ملايير سنتيم إلى قرضه الأول، فاستأنفنا المشوار.

والمؤلم مرة أخرى، أن مولاي الزين الزاهدي، الذي خلف عثمان السليماني على رأس القرض العقاري والسياحي، رفض أن يعطي للبنك التجاري المغربي أي جزء من ضماناتنا المودعة عنده، وقد تطلب الأمر من عبد العزيز العلمي جهدا جبارا وصبرا جميلا كي يستطيع الحصول على بعض الضمانات.

كان القرض العقاري والسياحي خائفا يائسا، ووضعنا بسوداويته هذه أمام مخاطرة العمر، وإلا ما معنى الضمانات الشخصية؟ والأنكى من هذا أن هذا البنك طبق علينا نسبة الفائدة الأعلى وهي 13,5% على مدة لا تتجاوز إثنا عشر سنة ولم نجد أحدا في المغرب قادرا على الاهتمام بالموضوع.

إن نزاهتنا جعلتنا بعيدين عن الانخراط في "اللعبة"، وكان من شأن هذا الانخراط أن يُمَكننا من قروض مهمة بدون ضمانات ولا تشدد.

وستؤكد السنوات اللاحقة أن هناك مقاولين حصلوا على مثل القروض التي حصلنا عليها في الشمال وفي العاصمة الإدارية وغيرها وبدون ضمانات أو بضمانات غير كافية.

زارنا جون كوهن وأصحابه ولم يبق على موعد المؤتمر سوى أشهر معدودة، ومرة أخرى كان متشائما، وكانت ثقته في وعودنا شبه منعدمة، فلا يعقل في نظره أن نصبغ ونجهز هذا المركب الضخم ونجد الموظفين والفنيين خلال ستة أشهر، ويبدو أنه أصبح خلال هذه الزيارة متأكدا من كسب رهانه ضد زميله يوسف بوطالب.

مالم يكن يعرفه جون كوهن هو أننا لم نكن نكتف بالسير في اتجاه واحد، ففي نفس الوقت الذي يرتفع فيه المركب شامخا وسط مدينة مراكش الزاهية، كان ممثلون عن دنيا أوطيل قد

سلموا لأكبر اختصاصيي المقاعد بفرنسا المقاييس، وكانوا على وشك الانتهاء من إنجازها، كما كان آخرون قد اشتروا الموكيط الدانماركي من فرنسا كذلك، كما كنا قد جلبنا خمسة آلاف من المقاعد المتحركة التي ستملأ القاعة الملكية من شيكاغو في أمريكا.

على مشارف الانتهاء، واجهتنا مشكلة حيرتنا. كنا نفكر في طريقة مثلى لتغطية قاعة "الوزراء" بقصر المؤتمرات التي تضم ألفا وسبع مائة مقعد، ولم نهتد إلى هذه الطريقة رغم أن القاعة أصبحت جاهزة، ومن حسن حظنا أننا كنا في فصل الصيف؛ فمطر عابر كان سيفسد كل شيء.

وشاءت الأقدار أن نعلم بابتكار جديد هو عبارة عن قرميد من البلاستيك المقوى، اشتريناه بسرعة ووضعناه على هيكل حديدي خفيف مغطى بخشب اصطناعي مرن مقاوم للرطوبة، كان عملا شاقا ذلك الذي انخرط فيه العمال، كانوا يصعدون إلى حدود سقف القاعة ويبدأون في تلحيم أضلع الهيكل الحديدي في حرارة غشت التي لا تطاق في مراكش.

خسرنا في هذه العملية عاملين توفيا بعد أن سقطا وهما يقومان بعملية التلحيم، كانت الحادثة مؤثرة، ولكن اعتبرنا أن اثنين من الوفيات ضمن أربعة آلاف عامل اشتغلوا لمدة ثمانية أشهر قدر مؤلم، ولكن حجمه كان فيه لطف.

كانت محطة الوصول تبدو لنا في الأفق، بل إننا اقتربنا من بابها، ولم تبق إلا خطوة واحدة بسيطة ولكنها حاسمة.

البنايات أصبحت جاهزة، ولكن جوهر كل شيء هو العنصر البشري، وخيار البحث عن عاملين من مؤسسات فندقية كان مستحيلا, وإلا كنا سنفرغ مراكش من العاملين فيها بهذا القطاع.

فكرنا بالنسبة لتسيير قصر المؤتمرات أن نجلب أطرا من

الخارج، واستعنا بخدمات شركة بحث مختصة، ولكن الشخصين اللذين اقترحا علينا وجاءا بالفعل من الدانمارك وفرنسا لم يستطيعا مواكبة إيقاع عملنا الجهنمي فرجعا من حيث أتيا.

فتحنا الباب إذن للشباب المتعلم، وجلبنا مئات المرشحين من المدارس والكليات، وحولنا المركب إلى مدرسة نظرية وتطبيقية. كنا نعلم المرشحين اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية، وكنت أشرف شخصيا على ورشات الأشغال الفندقية.

كل منظفات الغرف كن من مستوى الباكالوريا، وحدث أن كنت أكلف بعضهن بتنظيف شقة، وعندما أراقب عملهن، أجده ناقصا، فأسأل عن السبب، وأحار عندما يؤكدن لي أنهن قمن بكل ما يلزم.

فطنت إلى ضرورة سؤالهن عن الوسط الذي يعشن فيه، فقلن إنهن قاطنات بإحدى الدواوير التي تفتقد للماء الشروب، فتأكدت حينها أن النظافة هي مسألة نسبية.

كان هناك شاب مجاز في اللغة الإنجليزية، أصر على أن يشتغل كبواب يحمل حقائب الزبناء، كانت حجته هي أن هذه المهمة فيها "البقشيش".

المهم أننا أصبحنا جاهزين، ولم يبق على افتتاح المؤتمر إلا يوم واحد، وكانت آخر معاركنا مع الذباب!

كانت قاعة "الوزراء" عبارة عن خلية عملاقة للذباب وكنا مضطرين لشراء كل قارورات المبيدات الموجودة بمراكش، وبعد أن هزمنا هذا "العدو" الأخير، قررنا أخذ قسط راحة مستحق في انتظار الوزير الأول عز الدين العراقي، وافتتاح المؤتمر في موعده.

انتصر إذن يوسف بوطالب على جون كوهين، وانتصرنا على أنفسنا، وبعد أن قال أول متدخل في هذا المؤتمر الضخم: "بسم الله الرحمن الرحيم"، واشتغلت كل مكبرات الصوت وكل الأجهزة السمعية البصرية، قلت أنا صدق الله العظيم، لأن الأمر كان بالنسبة لي ختما لمسيرة دامت سنة ونصف، وهي بحساب أيام العمل العادي تقدر بعشر سنوات.

كانت الحصيلة أكبر مما أصدقه لحد الآن، ألف سرير من فئة خمس نجوم، أكثر من خمسة آلاف مقعد للمؤتمرات داخل ستة عشر قاعة، ثلاثة آلاف متر مربع من مجالات العرض، مائة وخمسون ألف متر مكعب من الحفريات، أربعون ألف متر مربع من الخرسانة المسلحة، ألفان ومائتا كيلو متر من حديد الخرسانة، أربعة عشر ألف طن من الإسمنت، مليون وخمسمائة ألف قطعة من الآجور، مائة كيلومتر من الأنابيب، مائة وعشرون كيلومترا من الأسلاك الكهربائية، أكثر من عشرة آلاف مصباح كهربائي، أكثر من خمسة آلاف باب، مائتان وخمسة وعشرون ألف متر مربع من الصباغة، أكثر من أربعة آلاف نبتة... واللائحة طويلة.

وكان يقابل الزهو بهذا الانجاز, الحسرة تجاه الإدارة المغربية التي لم تعرف كيف تواكب عملنا ولم تقدم لنا أي عون يذكر، وهمٌّ المخاطرة الشخصية التي حولت كل ما أملك إلى رهن, ولكن كل هذا كان كحبة رمل مقارنة مع ذلك الوسام الكبير اللامرئي الذي كنت أحس أنه أصبح يزين صدري، والمتمثل في القرب من رضا ملك عظيم.

فوق سحابة بيضاء

القصر اليوم حقيقة، كنت خلال شهور أجوب أرجاءه، أمسحه بعيون منبهرة، أزور كل جنباته وأنا لا أصدق أننا استطعنا بهذه السرعة القياسية بناء كل هذا الصرح الذي جاء أجمل وأبهى مما تصورنا.

ولا يمكن أن يخفي الإنسان زهوه بما أنجز· فالروعة والجمال قيمتان لا يحجبهما التشبث بتواضع ما. إن ما بنيناه أصبح ملكا للمغرب، وللبلد كله أن يفتخر بما أنجز.

في بداية سنة 1990 هاته، كنت فوق سحابة بيضاء، صحيح أنني كنت آمل أن يشرفني جلالة الملك شخصيا بافتتاح القصر، ولكن صورة الوزير الأول عز الدين العراقي وهو يدشن معلمتنا، وكلماته التي يحتفظ بها دفترنا الذهبي، كانت رسالة كريمة من ملك عظيم كان راضيا، وكنا سعداء.

"لقد كنت سعيدا بترأس الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العالمي الثالث عشر للفيدرالية الدولية لجمعيات الخصوبة والعقم- يقول عز الدين العراقي الذي انعقد في قصر المؤتمرات هذا، مدشنا بذلك هذا الإنجاز الضخم الذي يشهد على العبقرية المغربية كما برهن عليها الرئيس المدير العام عبد الهادي العلمي".

لم يكن يعني جلوسي فوق سحابة الأحلام تلك أنني تركت العمل. إن نفسيتي كانت في السماء، ولكن جسدي وعقلي كانا في

الأرض. فهذا الاستثمار الذي أصبح يحمل بين جدرانه ما يفوق 750 مليون درهم لابد له من جهاد أكبر كي يتمم ويشتد عوده.
كانت معاركنا الأولى منصبة على التسيير. إنه آلة لا ترحم. يأتي وفد سياحي ويغادر، ويحل آخر ويغادر وهكذا. كنت المدير العام الفعلي، وقد وجدت ضالتي في الأطر المغربية التي تحملت معي أعباء قيادة هذه السفينة الإسمنتية لمدة سنوات.
كل القصور لا توحي إلا بالعظمة والسعادة، وهذا كان شعوري، ولكن بذور شعور آخر قاتم كانت تتكون في دواخلي؛ إنها الإرهاصات الأولى لخوف بعيد من مستقبل مجهول. وكنت في خلوتي أتساءل عما إذا كان قصري أنا سيكون قصر متاعب. ولكن لم تكن هناك أدنى أعراض لتشجع هذا الخوف الإنساني الطبيعي على النمو، باستثناء المحيط العام الذي كانت تشتغل فيه سياحتنا الوطنية.
كنا نشعر منذ 1988 أن السياحة المغربية قد وصلت إلى الباب المسدود، لكون السياسة الرسمية التي تقرها وزارة السياحة كانت غير صائبة، تعتني بالتدبير اليومي وتغفل التخطيط للمديين المتوسط والطويل.
أما سنة 1991، فقد كانت البداية الفعلية لمأساة سياحتنا. لقد راج في الشارع المغربي أن مسؤولا رسميا يبيع بطاقات الاعتماد للمرشدين السياحيين، كون ثروة كبيرة سمحت له فيما بعد أن يشتري ضيعة كبيرة بمراكش، وكان يطلب الأغلفة المالية من المستثمرين السياحيين.
و كان هذا الإنسان مثالا لسوء تدبير القطاع. كان يبعث إلى الخارج ممثلين رسميين لا يحسنون التحدث بلغة البلد الذي يقصدونه، وكان يقوم بكل شيء إلا ما يمكن أن يخدم هذا القطاع.

لم تدافع الوزارة على ميزانية قوية للتعريف بالمنتوج المغربي في الخارج، وما كان مخصصا في هذا الإطار كان ضعيفا بل لا يعتبر، وهذا الاعتماد الهزيل كان يصرف بطريقة عشوائية، بل إن هذا المسؤول كان خلال سفرياته إلى الخارج يمر على وكالات السياحة ويأخذ من ميزانيتها مبالغ لحسابه الخاص.

لم تكن هناك جدية في التأطير. كانت الدسيسة والخداع والنفاق هي المبادئ المستعملة من طرفه في علاقته مع القطاع الخاص وحتى مع موظفيه.

ويضاف إلى هذا أن ما عرف بفضيحة المرشدين المزورين قد بدأ في هذا الوقت مع اتساع تجارة بطاقات المرشدين.

إن خطورة هذا الوضع تتمثل في كون الشخص الذي يشتري بطاقته بثلاثة أو أربعة ملايين سنتيم لابد وأن يعمل على استرداد أمواله، وليست هناك من طريق إلى هذا سوى التحايل على السياح وأخذهم عند أصحاب بازارات بعينها وبيعهم منتوجات بأضعاف أثمنتها الحقيقية.

وحتى المرشدون الذين لم يتمكنوا من شراء بطاقاتهم، خرجوا للعمل في السوق بدون ترخيص، وقد ألقي القبض على العديد من هؤلاء، ولن أنسى منهم حالة مازالت حية في الذاكرة.

في ربورتاج تلفزي حول مشاكل المرشدين السياحيين، أجاب مرشد غير قانوني الصحفية حول ما يفعله، هل هو حرفة أم لا وهل بإمكانه أن يتوقف عن هذا العمل، بأنه من غير المتصور أن يغير حرفته.

ـ هل ألقي القبض عليك مرة؟

ـ ثلاث مرات.

ـ وماذا فعلت؟

ـ ليس لدي حل. كي أعيش لابد أن أقوم بما أقوم به.

أصبحنا إذن في مستنقع، لا في قطاع اقتصادي حيوي. وكانت الطامة الكبرى هي انعدام أي مجهود لتأطير المواطنين. إن السائح ليس بقرة حلوبا، ولا يمكن أن يعود إلى البلاد أو يحفز الآخرين على المجيء عندنا إذا لم يشعر بالراحة وبمعاملة حضارية.

إن التأطير كان يبدأ في نظرنا من المرشدين السياحيين، وقد هيأنا نصا قانونيا يشدد العقوبات على الخارجين عن القانون، وهو لحد الآن، أي بعد أكثر من عقد من الزمان، لايزال في رفوف المعنيين بالأمر.

كنا نطالب كذلك بالقضاء على فوضى سيارات الأجرة الرابطة بين المطارات ومراكز المدن السياحية. كنا نريد أن يتحول هؤلاء الذين يفتتح بهم السائح لقاءه بالمغرب من سائقين أميين جشعين بسيارات شائخة، إلى سائقين من أصحاب الشهادات المعطلين بسيارات جديدة نشتريها من الخارج، على أن تكون تعريفات النقل محددة، وقد جربت هذا بعض البلدان منها مصر وتونس، أما إدارتنا فإنها بقيت أبرد من جبل جليد.

آه من الإدارة، لا يمكن أن أنسى العامل مطيع، طويل حتى يبدو طوله أكثر مما يجب مقارنة مع نحافته، وأبرز ما يظهر فيه أسنانه.

كان يدير أكّادير كما تدار ضيعة خاصة، كان يهوى السهرات الصاخبة، وهذا يمكن أن يجد من يقبله، ولكنه كان يهوى "حفلات" نهارية مقرها العمالة نفسها، حيث يستدعي من يشاء ويضعه وسط حلقة واسعة يختلط فيها المواطن العادي بأرباب المقاولات والحرفي بأصحاب الشهادات العليا...، ويفتح الملفات الخاصة لمن شاء، كان يبحث عن شعبية بسادية شديدة، لقد كان مطيع بكلمة واحدة مهرجا.

لم يكن المستثمر مثلي ليهتم بالحالة النفسية لعامل الإقليم، ولكن، عندما تلفحك ناره، فإن هذا الاهتمام يصبح إجباريا.
أعطانا مطيع نصف هكتار وسط مدينة أكادير عندما قدمنا له مشروع خيمة سياحية تضم عشرات اللوحات الفولكلورية واقتنع بوطنية مشروع خيمتنا العملاقة. كانت خيمة فنون صمم العروض فيها المسرحي الكبير الطيب الصديقي، وكانت تقدم يوميا لوحات فنية طيلة الليل تبدأ بنشيد عن الوحدة الترابية لبلادنا، وكانت الحفلات تفتتح بأغنية عن الصحراء المغربية تقول في البداية : يا الصحراء يا السر الخطير...
كنا نقدم فيها عشاءات بأثمنة جد منخفضة، ولكن الوكالات السياحية كانت جشعة، وكانت تطالبنا بخمسين في المائة عن كل زبون تأتينا به، وكانت النتيجة أن راكمنا الخسارات.
وصل إلى علم العاملين بالخيمة أنني خسرت ما يقرب من مليون درهم في السنة الأولى، واقترحوا علي أن أترك هذا وسيتحملون أمر تدبر البحث عن عمل في مكان آخر.
قررت أن أضحي سنة أخرى، فكانت مثل الأولى، وفي بداية السنة الثالثة، جمعت فرق الفلكلور وأصحاب الإنارة والمستخدمين وغيرهم، وأخبرتهم أن السنة الثالثة ستكون هي الأخيرة إذا خسرنا كذلك. وللأسف لم نسجل إلا الخسارة، فماتت الخيمة، وكعادتنا، فكرنا بسرعة في مشروع بديل يساهم في تنمية اقتصاد المدينة، فاتجهنا صوب مطيع.
ـ هادي تحرميات، وقفتو مشروع وطني باش تربحو لفلوس
أجبت مطيع محاولا إقناعه:
ـ ها هي ذي حساباتنا وأنت شاهد عيان"...
لم يتوقف الأمر عند حدود عدم الاقتناع بالنسبة لمطيع، بل إنه قام بمراوغات جهنمية، وأوعز للسلطات العليا بأن الأرض التي

كانت عليها الخيمة هي أحسن مكان يصلح ليكون مشورا سعيدا يقدم فيه الولاء لجلالة الملك كلما زار مدينة أكادير، وهو ما كان. وانتزعت منا الأرض قبل أن ينتهي العقد الذي كنا نحوزها بموجبه، وعلى كل حال، فهو الذي كان يردد مثل هذا الكلام في سهراته الصاخبة.

وكان مطيع يعتقد أنني أسير بسرعة أكثر من اللازم، كان يطلق علي في جلساته الشهيرة لقب البارون، لم يهضم أبدا أن أتحول من موظف بوزارة المالية إلى مستثمر ناجح، لم يكن عابئا بمسار مجموعتنا، ولا كيف غيرنا مشروع فندق التلال الذهبية بعد أن أخذناه من صندوق الإيداع والتدبير. لقد اقتنعت حينها أن لمطيع قناعة واحدة وهي أن ملحمتنا يجب أن تتوقف، وفي أحسن الحالات، يجب أن تراقب سرعتها.

أعرف مطيع منذ الستينيات، كان رئيس مصلحة صغيرة في مكتب الصرف، وكنت طلبت آنذاك من عبد العزيز العلمي الذي كان في هذه الحقبة يشغل منصب المدير العام لهذا المكتب أن ينقلني من وزارة المالية إلى إدارته، حتى أراكم تجربة أهم من قسم التعريب وأطلع على مجريات الإقتصاد الوطني عن كثب. لم يرحب عبد العزيز العلمي بطلبي فقط، بل إنه عينني رئيسا لقسم كامل هو قسم ميزان الأداءات، وترك معي خبيرا فرنسيا عالي الكفاءة هو السيد لوموان، وهناك تعرفت على مطيع.

بعد عشرين سنة، شاءت الأقدار أن يصبح العامل مطيع هو العصا في عجلة دنيا أوطيل، وبحكم هذا التاريخ، ارتأيت أن أدعو مطيع لعشاء رائق عله يذيب ما تراكم بيننا من جليد، وليتني ما فعلت، لأن هذه الليلة ستكون من أسوأ ليالي حياتي على الإطلاق.

وصل سيد صحراوي إلى شقتي بالطابق الرابع بفندق التلال

الذهبية، ومعه شخص آخر كان يعمل بالأمن الخاص للمرحوم الأمير مولاي عبد الله وطرد من أسلاك الشرطة لأسباب أجهلها، كان الرجلان صديقين لمطيع وقد اصطحبا معهما ثلاث أجنبيات.

لم يلتحق بنا مطيع إلا دقائق قبل منتصف الليل، وقد وجد رجل الأمن السابق المعروف بالعنف في حالة سكر مميت، ولم تمض إلا لحظات حتى نشب عراك بين أصدقاء مطيع وإحدى الأجنبيات، وعندما تدخلت أقحموني في نزاعهما فكسر كل ما يوجد بالشقة.

عندما وصلت عند مراقب الجوازات بمطار أكّادير صباح الغد، أخبرني بأن علي أن أتصل بمطيع قبل أن أسافر، رفضت هذا المنع التعسفي من السفر، وقد كان برنامج عملي يتطلب أن أسافر في نفس اللحظة إلى جنيف، وبعد الإلحاح، توجهت إلى غرفة الانتظار حيث وصلوني بمطيع هاتفيا:

ـ لاين هارب، هل أعجبك ما حصل أمس؟

ـ أبدا، أنا استضفتكم في شقتي، وأنتم كسرتم كل شيء، وذلك بسبب فاجرات، ولم تأخذوا بعين الاعتبار حرمتي، فأنا مواطن مغربي ومستثمر عندك في إقليمك.. أهكذا...

ـ على كل حال، عندما تعود سيكون لنا معك كلام آخر.

بمجرد ما غادرت المطار، استدعى مطيع مجلسه التهريجي، وكان من بين الحضور رئيس المجلس البلدي والأعيان وقال لهم ما لخصه بعد هذا في جملة: "دخلنا عند ذاك الفاسي واخلينا دار بوه"، وهكذا أصبح الحادث حديث أكّادير برمتها.

شاءت المصادفات أن أعود من جنيف لأجد رسالة من الحاج المديوري يطلبني فيها لأنقل تصاميم فندق سجلماسة إلى مساعدي پاكار، وبعث لي بطائرة صغيرة كي تنقلني من أكّادير.

نفس السيناريو أعاده مطيع في المطار، وهذه المرة قال إن وفدا رسميا سيزور التلال الذهبية ولابد أن أكون موجودا، رجعت إلى الفندق واستقبلت الوفد، وسلمت على مدير الأمن الإقليمي وعلى وزير السياحة ولم أسلم على مطيع وعدت مع أحد مساعدي المديوري إلى المطار.

كانت الفرصة سانحة لأحكي للحاج المديوري ما حصل مع مطيع، وبعد أن استمع إلى تظلمي، استسمحني لحظة، ولا أعرف مع من تكلم بالهاتف، وعاد ليقول لي إن لي موعدا مع وزير الداخلية في صباح الغد.

كان إدريس البصري بشوشا واستقبلني بحفاوة، وقد حكيت له باختصار المشكلة ليحيلني على أحد العمال، مؤكدا أنه إذا كان مطيع على خطأ فإنه سيتدخل.

استقبلني العامل بوزارة الداخلية **واسمه العروسي**، ومن المصادفات أنه هو الذي سيحل محل مطيع عاملا على مدينة أكّادير بعد أن انتقل مطيع واليا على ولاية الدار البيضاء.

ـ آش هاد المشكل اللي عندك مع مطيع؟ واش لبنات؟

ـ لا، وهذا موضوع جانبي، لأن الأهم أنه أوقف جميع مشاريعي.

ـ وما هي مشاريعك؟

ـ أردت أن أبني قصر مؤتمرات صغير مثلا فرفض.

ـ ولكنك تقول في تقريرك أنك غادي ادير الخير في أكّادير.

ـ واش كاين شي واحد كيدير الخير في شي واحد آخر؟

لم أقصد هذا، قلت فقط أن هذا المشروع في صالح نمو السياحة واقتصاد البلاد وسيدخل عنصرا جديدا هو المؤتمرات التي يفتقد المغرب لأماكن تحتضنها، وأنا كتبت ما كتبت من منطلق تحمسي لخدمة بلدي.

رغم كل شيء، يبقى هذا الكلام عن إسداء الخير لأكْادير غير مستساغ.
بقي العامل يدور حول نفس الجملة، وفي الأخير قال لي سأتصل بك غدا لترى فلان، لم يأت الفلان ولم ألتق مطيع، وحفظت القضية.
لم يكن مطيع يعتقد أنني سأصل إلى ما وصلت إليه، كان يعتقد أنني مستثمر ولا يهمني إلا المال، أما المبادئ فلا يمكن أن أقيم لها أي اعتبار، وقد وجدني وقد نسيت المال وظللت متشبثا بمبدأ إحقاق الحق ورد الاعتبار.
أصبح مطيع أكثر شراسة اتجاهنا، وأصبح يتحين الفرص ليستدعي موظفي مجموعتنا، بل إن الأمر وصل به إلى حد حبس الكاتب العام للشركة السيد محجوب أمجاد بعد أن جاءت زوجة أحد العمال تشكو الشركة له بدعوى أن زوجها طرد ولم يستلم أجرته الشهرية.
طلب مطيع من أمجاد أن يؤدي أجرة المستخدم فورا، وكان هذا مستحيلا لأن اليوم كان سبتا وشيكات الشركة مع المحاسب، بل إن مجرد طلب الذهاب إلى البيت من أجل أخذ الشيك الشخصي رفض من طرف مطيع.
اتصل بي أمجاد من حيث كان معتقلا وكنت خارج المغرب، فما كان مني إلا أن أتجرع مرارة ما لم أكن أرغب في مجرد التفكير فيه، وهو أن اتصلت بمطيع وتوسلت إليه أن يترك الرجل وحاله على أساس أن أسدد للمستخدم ما يطالب به فور عودتي.
عناد مطيع لم يكن ليتوقف هنا، وقد جعلنا بشراسته نعيش واحدا من أرعب فصول تاريخ البلاد كما أحسسناه.
كانت للجنرال الدليمي ڤيلا مجاورة للتلال الذهبية، وكان يتردد

عليها كثيرا وبمعيته مطيع، وفي إطار التحسينات المتوالية التي كنا ندخلها على الفندق، بنينا مطعما إيطاليا رائعا صممه لوتيكسورون، أعجب به الجنرال وتناول فيه العشاء مرتين.

أبلغنا مطيع يوما أن الجنرال متضايق من كون زبائننا يقتحمون عليه حميميته، لذلك فهو يريد مدخلا خاصا به يستوجب تقسيم الطريق المؤدية إلى التلال الذهبية إلى شطرين.

لم أخف دهشتي، وشرحت لمطيع أن لا أحد يضايق الجنرال، فرواد الديسكو بينهم وبين المطعم سقف وزبناء المطعم لهم باب خاص يفضي إلى البحر مباشرة، ولكن مطيع لا يتغير، جاءني باكرا في صباح الغد:

ـ آسي العلمي، إنك لا تكف عن خلق المشاكل لي، وقد أكد الجنرال أن المدخل الرئيسي يجب أن يقسم إلى قسمين ويكون قسم منه مدخلا خاصا به.

ـ ولكن ما تقترحه علي يهم أرضا عمومية، إضافة إلى أن هذا مدخل رئيسي للفندق وسنضيعه ونسيء إلى هندسة الواجهة ونشوهها.

ـ ما قلته لك هو الحل الوحيد، وهو أمر أعطيه لك كعامل للإقليم.

ـ افعل ما تريد يا سيدي العامل، المهم أن تعرف أننا إزاء ملكية لصندوق الإيداع والتدبير، أي الدولة.

ـ اسمع، قلت لك إن الحل الوحيد هو ما أخبرتك به، فإما أن تنفذه أو سيأتي الجنرال بدبابة ويحطم هذا المدخل، وهذا تهديد الجنرال بنفسه وليس تهديدي.

أحسست أنني ضعيف أمام هذا الجبروت والطغيان، وككل إنسان في مثل هذه الوضعية، توجهت بقلبي وبجوارحي إلى الله سبحانه وتعالى متوسلا إليه أن ينقذنا من هؤلاء الطغاة.

بدأ مطيع على الفور في أعمال الحفر بعدما جاء بالمعدات

واستقدم عمال الإنعاش الوطني، واتصلت أنا بصندوق الإيداع والتدبير وأخبرتهم بما يجري.
ومن المصادفات الماكرة أن جاء عندي لوتيكسورون وأخبرني أن الجنرال الدليمي أعجب بالمطعم الإيطالي واقترح عليه أن يصمم له ڤيلا على الطريقة الكاليفورنية، وكانت طائرة ستأتي لتأخذه إلى العاصمة في نفس الليلة.
بكل الضعف الذي كنت أحسه أمام الظلم، طلبت من لوتيكسورون أن يفاتح الجنرال في الموضوع عله يتراجع عما بدأ في تنفيذه مطيع.
انشغلت في مساء نفس اليوم بإعداد فرقة للتنشيط السياحي، وعندما انتهيت، أخذت حمامي كالمعتاد، ولبست قميصا أسود وبذلة بيضاء، وتوجهت صوب بهو الفندق، فإذا بي أفاجأ بالحسن واعليت وهو ضابط عسكري.
لم أكن أفرق بين الحسن واعليت هذا وأخيه الحسين، وكلاهما كان يعمل مع الجنرال الدليمي، وكنت قد طلبت من الحسن قبل أسبوعين أن يتوسط لي لدى الدليمي في موضوع العدول عن تقسيم مدخل التلال الذهبية، فدعاني إلى بيته بالرباط، وقدمني لأسرته ووعدني بالوساطة ولم يفعل.
لم يكن مهما بالنسبة لي أن لا يكون الحسن قد وفى بوعده، المهم أنني استقبلته استقبال من فوجئ بمفاجأة سارة، وطلبت له الشراب الذي يحب، وجلست أمامه وخلفي مدخل الحانة، وخضنا في حديث عام والحسن يشرب، الكأس الأولى، الكأس الثانية، الكأس الثالثة...
فجأة دخل عسكري قدم له التحية وانحنى ليهمس في أذنه جملا معدودة ، كان العسكري شاحبا كأنه مطارد، وبعد أن أنهى جمله التي لم أسمعها، أصبح الحسن أكثر شحوبا وكأنه سينقل إلى

القبر بعد ثوان.
لم أصدق ما رأيت، انقلب الحسن رأسا على عقب، كأنه تكلس، أو صعق، وبعد صمت رهيب أجهش بالبكاء.
ـ مالك آسي الحسن؟ ماذا جرى؟
ـ فعلوها... فعلوها
ـ ماذا فعلوا؟ من هم؟ ماذا تقصد؟
ـ لماذا الآن بالضبط؟ لماذا لم ينتظروا؟ لماذا- يا عباد الله لم تتأخر الحادثة بيوم واحد؟ يوم واحد فقط.
أحجمت عن السؤال. كانت حالته الهيستيرية تدفعني لتغليب الصمت على حرقة الأسئلة، وكان بكاؤه يكسر جدار الصمت هذا بين الفينة والأخرى، انخرط الحسن في الشرب بشراهة، ولم يعد مجالسا لي إلا جسدا، وبعد مدة طويلة تكلم:
ـ وا أسفاه، ما وقع اليوم ما كان يجب أن يقع اليوم بالذات
ـ ماذا وقع؟
ـ لقد... لقد قتل الجنرال؟
ـ ماذا؟! قتل الجنرال؟! كيف؟
تركني الحسن غارقا في استفهاماتي، وغادر الفندق، وكنت بهذا قد عرفت قبل الجميع تقريبا أن الجنرال الدليمي مات في حادثة سير.
لوتيكسورون الذي كان في نفس الليلة ينتظر الجنرال بالرباط، أخبروه بدوره بالحادثة، فاتصل بأحد مساعدي، وعندما التقينا نحن الثلاثة قلنا سبحانه، أليست من أسمائه الحسنى الجبار المنتقم؟
لم نربط آنذاك بين الأحداث، فلم تكن لنا أدوات للقراءة والتأويل، كنا مستثمرين غارقين في مشاريعنا الاستثمارية ولا نعرف من السياسة إلا خدمة الوطن.

ولكن، عندما وصلنا خبر مقتل الحسن والحسين في حادثتي سير، استنتجنا متأخرين ما كان يجب أن نستنتجه مبكرا، وهو أننا كنا إزاء مجموعة من الخونة، أنجانا الله منهم وأنجا منهم البلاد، وطويت هذه الصفحة.

هذه صورة عن علاقة إدارة متسلطة مع مستثمر طموح، وإذا كانت مثالا خاصا، فإن العام هو أننا كنا نستغرب أمر بلد يجعل من السياحة قطاعا ذي أولوية وليس له لا وزراء ولا برلمانيين متحمسين للموضوع. بلد لا تسير فيه السياحة إلا بإرادة الوزير ومزاج الوزير.

هكذا إذن كنا، نحن في قصر بهيج، ومحيطنا عبارة عن حي صفيحي كبير، وشاءت الأقدار، أو لنقل شاء صدام حسين، أو جورج بوش، فاندلعت حرب الخليج، وتطاير قصدير سياحتنا في الهواء وأصبحنا منكوبين.

كان العالم في سنة 1991 يشد على أعصابه، وقد أصبحت منطقة الشرق الأوسط ملتهبة، ولم يكن أحد من مواطني الدول الأجنبية ليفكر في زيارة بلد عربي مسلم ثارت مشاعر مواطنيه وهم يرون بلدا شقيقا لهم يقصف ليل نهار من طرف أكثر من ثلاثين دولة تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

أصبحنا سياحيا منكوبين، وقد نزلت نسبة ملء فنادقنا إلى عشرين في المائة تقريبا، وهناك من الفنادق من أغلق، وهناك من سرح جزءا كبيرا من مستخدميه، وكان علينا نحن كذلك أن نتدبر أمر هذا الطارئ المفجع.

إن الطاقة التي خرجنا بها من ستة عشر سنة من مراكمة الإنجازات، وكذلك الدفعة الحاسمة التي أعطاها إياها تحقيق "القصر"، جعلتنا نحول أزمة الخليج إلى ملحمة جديدة.

كان بإمكاننا في هذه الشدة أن نغلق ظرفيا أبواب مركب

المنصور الذهبي ونوفر تكاليف ما بين ست مائة وخمسين وسبع مائة موظف. ولكن كنا نرى في كل مستخدم، واحدا من المساهمين في ولادة المركب، وهكذا اتفقنا على عدم تسريح أي عامل أو إطار، وبالمقابل على المستخدمين أن يتساهلوا إذا تأخرت أجورهم أو اضطررنا إلى الخصم من هذه الأجور.

وسط هذه اللوحة السوداء، كانت هناك نقطة ضوء مصدرها تغيير طال حقيبة وزارة السياحة. لا أخفي أنني أصبت بداية بالذعر لما علمت أن الوزير الجديد ذو تكوين عسكري، أي لا علاقة له بالقطاع الذي سيشرف عليه، إلا أن السيد عبد الله القادري سيفاجئ الجميع.

حرر القادري مذكرة حول السياحة جامعة مانعة مست جوهر مشاكل القطاع، ووزعها على أقطاب السياحة في البلاد.

كان جوهر المذكرة يقول إن السياحة مريضة مرضا عضالا.

إن وضعية السياحة المغربية مأساوية- تقول المذكرة وإن معدل نسبة زيارات الفنادق لا تتعدى أربعين في المائة، وإن الفندقيين بحاجة إلى السلطات العمومية لتجاوز الأزمة التي حولتهم إلى منكوبين والتي لا يظهر وللأسف شيء ينذر بنهايتها.

وشخَّصت المذكرة مشاكل القطاع في الاختلال المزمن في ترويج المنتوج الوطني وفي التحكم السيء في المشاكل المرتبطة بتنظيم استقبال السياح في المدن والجماعات الحضرية والقروية وفي غياب ميثاق وطني للسياحة.

ومن سوء حظ الجميع أن القادري لم يعمر إلا شهورا، ولكن التاريخ سيشهد أنه كان أول وزير توفرت لديه الشجاعة الكافية ليقوم بالكشف الصحيح والصريح لمشاكل القطاع ويطلع عليه الحكومة، ويفضح مؤامرات حيكت ضد الرأي العام المغربي

منذ عقود، مفادها أن المسؤول عن تردي السياحة المغربية هم المستثمرون الفندقيون.
انتهت حرب الخليج ولم تختف آثارها، وإذا كانت أزمة هذا الحدث الظرفي إلى جانب مشاكل هيكلة القطاع قد ضغطت على الفندقيين، فإن قوة الضغط كانت تختلف حسب حجم الاستثمار.
العديدون كانوا يستغربون هدوئي الظاهر. كانوا يبسطون أمامي صورتهم فيما لو كانوا هم أصحاب هرم سياحي اسمه دنيا أوطيل، قاطرته عبارة عن مغامرة ضخمة هي مركب المنصور الذهبي.
كانوا يقولون إن الانهيار سيكون حتما هو مصيرها.
وما كان يغفله هؤلاء هو أن بحر اليأس الذي كان يحاصر سياحتنا، كنت أرى فيه دائما قارب نجاة يرسو بعيدا، إنه وجود جلالة الملك، كنا نحس أنه يتتبع كل شيء، وكنا نتألم كون الإدارة وبعض الوزراء لم يكونوا دائما في مستوى عبقريته ونظره الثاقب.
كان هناك شيء آخر ملموس، وهو أننا بنينا بأنفسنا مركب المنصور الذهبي، وبالتالي وفرنا ما يناهز الثلاثمائة مليون درهم، حيث أصبح عندنا مركب قيمته الحقيقية مليار درهم ونحن لم نشيده إلا بسبعمائة مليون درهم، ولعل هذه العملية هي التي كانت تجعلنا دائما فوق السحابة البيضاء، وإن اشتعلت الحرب أو وقعت الكارثة في السياسة السياحية. كنا نقول إن ثلاث سنوات من الخسارة لن تجعل المركب يتضرر. قد يكون هذا المنطق مجانبا للصواب، ولكن هكذا كنا نفكر، وهكذا كنا نحارب. وبغير هذا المنطق، كانت حربنا ستكون خاسرة من المعركة الأول.
في هذه الأجواء، استدعيت للقناة الثانية كضيف للصحفية سميرة

سطايل في برنامجها الشهري آنذاك الذي كان يحقق نسبة مشاهدة عالية "L`homme en question".
كان يوم 26 دجنبر 1991 الذي بث فيه البرنامج مشحونا عاطفيا ومرتبكا سياسيا ومعريا اقتصاديا.
خلال الربورتاج الذي بث في البداية، قال ابني عبد الكريم في شهادته إنه لا يراني كثيرا، وكانت عيناه على وشك الانهمار بالدموع، وأما أنا فقد تلقيت الصفعة، صحيح أن مبررات غيابي عن أسرتي التي هي جزء من دمي قوية ومعروفة، ولكن انتبهت إلى أن هذا الوحش المسمى العمل، أكل جزءا من عمري، وها هو يأكل الجزء الباقي دون أن يترك للإنسان حتى فرصة الارتواء من دفء الأقرباء، ولا أن يمكنهم من الارتواء من دفئه. فما قيمة قصر المؤتمرات إذن؟
سألتني بعد ذلك سميرة سطايل عن لوني السياسي، فقلت إن كل جيلي تربى في حزب الاستقلال، وأنني غادرت الحزب عندما انتقلت من فاس إلى الرباط، وتزامن هذا مع الانشقاق المؤلم الذي عرفه الحزب.
وأضفت أنني لظروف عدة وجدت نفسي منخرطا في التجمع الوطني للأحرار، وأنا مرتاح فيه لأن فلسفته التوافقية تعجبني.
سطايل: ما هي طموحاتك السياسية؟ وهل ستتقدم للانتخابات؟
جواب: أعتقد أنه ليس لي الوقت الكافي لهذا، فعندما يشتغل المرء ثمانية عشر ساعة في اليوم، ويكون له خمسة آلاف من المستخدمين، لا يمكن أن يفكر في شيء آخر. أما إذا كان الشأن السياسي في حاجة استثنائية لرجال من المجتمع المدني، فهنا يصبح المواطن مجبرا على الانخراط فيما يخدم مصلحة بلاده.
الصحفي الإسباني مارتان سانشيز: إذا عينت في منصب وزاري أساسي، كيف ستزاوج بينه وبين مصالحك الخاصة؟

جواب: هذا المشكل غير مطروح الآن، وأنا أمارس السياسة يوميا من خلال تسيير أطري، وتهييء حصيلتي الشهرية والسنوية.

كنت أتكلم في هذا البرنامج من القلب، ولكن كان هناك من اعتبرني ساذجا، والحالة أن إعلان انتمائي وتعاطفي مع التجمع الوطني للأحرار لم يعجب الكثيرين. ولم أكن أعلم أن أزمة شديدة كانت تدور رحاها بين أحمد عصمان وإدريس البصري الرجل القوي آنداك.

تحدثنا عن مجموعة دنيا أوطيل، ووجهت بعض الانتقادات حول طريقة التسيير والاستثمار، وقال لي الصحفي نصر الدين العفريت أنني ربما في بعض القرارات لم أكن مسيرا جيدا، فأكدت له في كلمتين واضحتين أنني مسير جيد.

وجاءت الأصداء بأن تصريحي هذا لم يعجب الكثيرين كذلك.

لم أكن أريد أن أسقط في فخ تجزيء قضايا السياحة، أو تشخيصها في حالات معزولة كما حاول أن يجرني لذلك الصحفي نعيم كمال، وكان رأيي أن المشكل يجب أن يوضح في إطاره الشامل. قالت سميرة سطايل:

ـ أنت الذي انطلقت من لا شيء، ووصلت إلى كل شيء، لا شك أنك حساس لموضوع العدالة الإجتماعية، كيف تتعامل إذن مع خمسة آلاف من المستخدمين والأطر الذين تشرف على تسييرهم؟

ـ إنك وصلت إلى النقطة الجوهرية التي يجب أن توضح في هذه الجلسة. إن هذا سيدفعنا من الآن إلى طرح المشكل من أصله، فحتى تختفي اللاعدالة الإجتماعية في عالم ليبيرالي كالذي نعيشه، فيجب إما أن ننطلق من حد أدنى للأجر، أو أن ننطلق من معطى اقتصادي، كيفما كان، وأن نبحث عن السبل التي

تقودنا إليه. بتعبير أوضح، يجب أن تكون عندنا أهداف. يجب أن نتمكن من العمل في إطار استراتيجية، كما نفعل في مؤسساتنا دائما. وإذا سمحتم، وإن لم يطرح السؤال، وحتى نستطيع مواصلة النقاش في إطار واضح، أود أن أتحدث عن تجربة تمت في إطار OCDE سميت "منتدى الطريق الكبير"، والذي نشط المنتدى باحث اقتصادي فرنسي يدعى إدوارپاركير، وقد استغرق خمسة عشر سنة في بحث يسمى بـ "الدراسات الاستشرافية" études prospectives، ولقد اهتدى إلى هذا المصطلح في أول الأمر پول ڤاليري واستعمل بعده من طرف غرسون فيرجيل.

ويرتكز هذا المصطلح على عدم الرجوع إلى الماضي لإيجاد حلول الغد، بل الاعتماد على مشاكل الغد في حد ذاتها لإيجاد حلول لها، وفي هذا الإطار انكب المنتدى على بحث الوسائل الضرورية للوصول إلى التنمية المستدامة . إن كل أسئلتكم سواء حول السميگ أو حول التشغيل، مرتبطة بهذا السؤال الجوهري الذي طرح بالمفهوم الذي حددته.

لنقل كل شيء الآن، إن هؤلاء الخبراء الذين احتكوا برجال كبار، وفتحوا ملفات مهمة وفحصوها بدقة ، خرجوا بخلاصة أن الوصول إلى التنمية لا يتطلب أن نكون أغنياء ولا أن تكون لنا موارد كبيرة من الطاقة ولا أن نكون متحكمين في التكنولوجيا المتطورة، فالوسائل الحقيقية لهذه التنمية هي الإرادة السياسية والتنظيم الميداني والرغبة الصادقة في تجاوز التخلف.

وجاء المنتدى بمثال "النمور الآسيوية"، وكيف أن ست دول استطاعت في أقل من أربعة عقود أن تخرج من دائرة التخلف نهائيا وأن تصل إلى تحقيق نصف دخل الدول الأوربية مجتمعة.

كيف حصل هذا إذن؟ وهل تجربتهم نموذجية أم أنها استثنائية؟

إنها تجربة نموذجية، بمعنى أن دولا أخرى يمكن أن تصل إلى ما وصلوا إليه.
وقد بحث المنتدى عن دول لها مؤهلات كي تحدو حدو النمور الآسيوية، وقدر أن المغرب يمكن أن يصل إلى هذا المستوى سنة 2005 والجزائر سنة 2010 وتونس سنة 2015.
ـ ولكن ما هي الوسيلة للوصول إلى هذا الهدف؟
ـ إنها عشرة بالمائة كنسبة للنمو السنوي، ليس أربعة ونصف بالمائة، ولا معدل ثلاثة فاصلة ثلاثة بالمائة على مدى عشر سنوات، ولا فقط الحد من التضخم، ولا فقط الحد من نزيف العملة الصعبة ولا فقط التحكم في نسبة عجز الميزانية أو في التوازنات العامة، ولكن باتخاذ القرار الحازم أنه بعد سنة من التفكير، يجب أن تنطلق كل الجماعات والمدن والأقاليم والجهات في المنافسات من أجل الوصول إلى هذه النسبة من النمو.
لكل هذه الأسباب لم يكن هناك داع لأجيبكم عن مشكل يخصني لأن المشكل شامل ويهم الإقتصاد الوطني برمته.
لم يسلم هذا التحليل الذي كان صادرا من قلب رجل أعمال صادق يفكر دون مصالحه الخاصة، من التشويه، وأوصل بعضهم إلى الدوائر العليا مرة أخرى تأويلا غريبا لما قلته يفيد بأن عبد الهادي العلمي يريد، من أجل تنمية مزعومة، أن تشهد المملكة سلوكات لا تليق بها مثل استغلال وتشغيل الأطفال.
كل شيء إذن كان ينقل مقلوبا، وكانت مشكلتنا هي هذه القناة التواصلية التي تحول طموحات المغاربة إلى مقالب واجتهاداتهم إلى فخاخ. والمؤلم أن تصبح هذه المعاملة شيئا ممنهجا.
في بداية سنة 1992، فكرت في إصدار مجلة دولية. لا أخفي أن الذين كانوا يحيطون بي اعتبروا هذا جنونا، وهذا ليس فقط

لكون ولعي بالصحافة كان ولايزال قويا، ولكن لقناعتي الراسخة في أن المشاريع في الحياة لا يجب أن تقاس فقط بمقياس الربح والخسارة، ولكن بمقياس المنفعة العامة أيضا.
حملت ڤيروس الكتابة في ربيع العمر عندما كنا بكوليج مولاي إدريس حين أصدرت جريدة اسمها "لُبوتاش" ومعناها هو إسم عامي يطلق على طالب العلم المواظب. كنت أزهد في عطلي الصيفية وأقضيها في كتابة مشاريع القصص والروايات، ولا أستطيع أن أصف ذلك الشعور الذي غمرني يومها وأنا أحصل على الجائزة الأولى في مسابقة إذاعية عن قصة قصيرة استلهمتها من حادثة واقعية عاشتها أمي.
أردت أن تكون المجلة جديدة في تصورها. اخترت في البداية صيغة الحجم النصفي "طابلويد" ثم عدلت عنها. وهيأت ماكيط مجلة شهرية وسافرت إلى باريس.
طرقت باب ريشارد أتياس، صاحب وكالة أسفار وهو من مواليد مدينة فاس.
ـ هل فرض عليك أحد المشروع؟ سألني بعدما أطلعته على الفكرة والماكيط.
ـ لا.
ـ هل طلبه منك أحد وأردت طواعية أن تلبي طلبه؟
ـ لا
ـ ولكن هذا مكلف جدا، إنها شهرية ملونة، فما لك وهذا الأمر؟
ـ أريد أن أقوم بهذا، والخير موجود والحمد لله، وأريد كذلك أن أدافع إعلاميا عن بلدي.
ـ وأين تنوي توزيع المجلة؟
ـ في أوربا والمغرب العربي.
ـ وما المطلوب مني؟

ـ أريد أن تدلني على أحد العاملين بالتسويق على المستوى الدولي ليعطينا رأيا استشاريا حول الموضوع.
في مكتب ليفي، رئيس شركة پبليسيس الدولية، جلسنا نحن الثلاثة، فسمعت نفس رد الفعل:
ـ ما لك ومال الصحافة؟ قال ليفي وهو يعلق على مشروعي بعدما عرف مهنتي الأصلية.
ـ هذا ما كاين. أجبته مصمما.
أخذ ماكيط الصفحة الأولى وكانت فيه صورة صاحب الجلالة وقال ليس لك حظ في النجاح إطلاقا.
أليست هذه نفس الكلمات التي قيلت لي وأنا أهم بالخطوة أول مرة في الاستثمار السياحي؟ ألم يقولوا إن الذين ينجحون هم الأجانب فقط؟ اغتظت، لكن تمالكت نفسي، وقلت لليفي:
ـ على كل حال، ما هو على الأقل رأيك في مشروع العدد الأول؟
ـ إنك لن تبيع إلا نسختين، واحدة تشتريها أنت، والثانية أشتريها أنا.
اغتظت أكثر، وتحول الأمر بالنسبة لي إلى تحد، ومباشرة بعد انتهاء الاجتماع، أعطيت تعليماتي بأن يصدر العدد في نفس شهر يناير. وحالت أسباب تقنية دون ذلك، فصدر العدد الأول بعد ثلاثة أشهر.
أصبحت المجلة تحمل اسم "ماغريب ماغازين"، وخرج العدد الأول وفي صفحته الأولى صورة جلالة الملك مع ملف حول حصيلة المغرب بعد 36 سنة على الاستقلال، وكانت زوجتي الأولى إليان گريشي هي مديرة النشر، فيما ضم مجلس استشاري للتحرير أسماء ذات صيت دولي منها ليوبولد سيدار سنغور وعبد الهادي بوطالب وميشيل جوبير ومحمد علال السي

ناصر وغيرهم، وكانت لنا مكاتب أو مراسلون في تونس والجزائر العاصمة ولندن ومدريد.
وشقت المجلة طريقها، واستطاعت بحق أن تتمثل ما صرحت به لقناة TF1 الفرنسية في مارس 1992 حيث أصبحت فضاءَ تواصلٍ يشيد جسرا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت وسيلة ذات مصداقية تمكن أوربا من أخبار عميقة وصحيحة حول التحولات الهائلة التي تعرفها بلداننا في القسم الغربي من العالم العربي.
ولم تختر "ماغريب ماغازين" المهادنة حيث لا يجب أو المداهنة حيث يجب، بل اتخذت المواقف الجريئة في الوقت المناسب.
ولم أتردد بعيد حرب الخليج، عندما وصلتني أخبار عن الحالة الصحية لجورج بوش وعلاقتها بضرب العراق مرة أخرى، أن أخصص غلاف المجلة لهذا الرئيس الأمريكي قبيل رحيله واضعا بجانبه عنوانا يقول: "جورج بوش، ذكرى سيئة".
وقد وقعت شخصيا افتتاحية العدد حيث تبنيت تفسيرات راجت حينها حول إصابة جورج بوش بمرض في شرايينه يؤدي إلى ردود فعل نفسية تتمثل في العداء والعنف، وخلصت إلى أن مرض رجل واحد يؤدي ثمنه شعب بأكمله هو العراق.
أكثر من هذا، خصصنا ملفا كاملا لمخلفات عاصفة الصحراء وآثارها المدمرة على المواطن العراقي، ووافقت على إرسال بعثة صحفية إلى بغداد حيث حلت بالفعل، ومن سوء حظنا مرة أخرى أن بعض الجهات لم تعجبها مواقف مجلتنا. وبقينا ندعم العراق إبان محنته حتى هاجم واحتل بلد الكويت المستقل بدون أدنى سبب أو مبرر وآنذاك أخذنا نعاتبه على ذلك.
أصبحت المجلة تبيع عشرات الآلاف من النسخ في المغرب

العربي وأوربا، وخاب ظن ليفي، وليت الأمر انحصر هنا.
دخل عندي سكرتير المجلة عمر الأنواري وفي يده ملف. وقال إن لديه خبرا خطيرا يهم تمويل شركة پيبلسيس لحملة معادية للمغرب ولجلالة الملك شخصيا. وكانت هذه الحملة عبارة عن صورة في شريط يمس مضمونها بمقدسات المغرب وكانت هذه الصورة تعرض في القاعات السينمائية كوصلة إشهارية.
ذعرت فعلا. فأخذت الملف، وأوصلته للسلطات العليا عن طريق الجنرال عبد الحق القادري، وقدكُلِّفَ أندري أزولاي بالتحقيق.
بعد مدة، وصلني أن أندري أزولاي رد بأنه بحث القضية ووجد أنها مجرد تصفية حسابات. وملخصها أن عبد الهادي العلمي سبق وأن طلب من ليڤي قبيل إصداره "ماغريب ماغازين" إشهارا ولما رفض، أراد أن ينتقم منه.
فهمت رد فعل أندري أزولاي، فقد كان يوما مرؤوسا لليڤي، ولكن ما لم أفهمه هو أنه بغض النظر عن هذه القصة المختلقة حول حسابات شخصية مزعومة، فالفيلم كان موجودا وكان يعرض، وكان المطلوب هو أن تتوقف هذه الإساءة لمقدسات بلادنا، وأن تتم محاسبة من كان وراءها. ولكن أرادت المصالح شيئا فكان ما أرادت.
إذا كانت بداية سنة 1992 قد أنجبت المجلة، فإن نهاية هذه السنة شهدت حدثا حول مسار حياتي الشخصي.
كنت بين إحساسين: أمل كبير وخوف دفين. كنت وسط كل ضجيج العالم المحيط بي أحس بعزلة بحجم القصر الذي شيدته.
لم أكن فقط مقتنعا بالأمر، لأن القناعة تكون بناء على تفكير موضوعي، بل كنت محتاجا معنويا وعاطفيا وواقعيا إلى دعم خاص، إلى شيء لا يمكن أن يفهمه أو يتفهمه إلا صاحب

الخصاص.
كانت ابنتي نادية قد تزوجت وانخرطت في عالمها الجديد، وكان عبد الكريم قد أكمل دراسته وانكب على بناية أوراش عمله الأولى، وكانت زوجتي الفرنسية إليان قد أعطت من الدعم لسنوات ما قدرت أنه يفوق طاقتها، وكنت وحدي أرى ما لايراه الآخرون، حتى أقرب الأقربين. كنت أرى جبلا ضخما قادما نحوي لا يرحم استراحةً مستحقة لمحارب، أو عزلة روحٍ أتعبها ظلم من تحبهم.
بدأت أبحث عن امرأة. لم أكن أريد جسدا، كنت أريد خزانا من العواطف ورفيقة جديدة لدرب ليس مفروشا بالورود دائما، وكنت على يقين بأننا نحن الرجال نحتاج في كل مرحلة حاسمة من حياتنا إلى امرأة قد تكون لها طاقة جديدة قادرة بحبها وشخصيتها على تحريك ما قد يكون تعطل في أعماق أعماقنا بخصوص مكوناتنا وقدراتنا النفسية والمناعية إثر معاركنا التي لا تنتهي.
في صيف 1992، وبين مخلفات حرب الخليج ومشاغل المجلة ومشاكل السياحة وهواجس دنيا أوطيل وقصر المؤتمرات، جاءت غزلان العلوي إلى فندق المنصور الذهبي كمتدربة من إحدى المدارس الفندقية. كانت في الاستقبالات عندما رأيتها. فحصل ذلك الشيء الجميل والسحري في نفس الوقت والذي يعطي للإنسان إحساسا بأنه يعرف خله منذ سنوات.
كانت كما لو أن القدر ادخرها لي في تلك الفترة بالذات.
دامت فترة حياكة الود سنة كاملة لم أشعر بها تماما. وعندما جاءتني غزلان في 23 يونيو 1993 لتقول لي أنها جمعت حقائبها وسترحل إلى مكناس في الغد، كانت كما لو أنها أيقظتني من نوم لا إحساس فيه بالزمن إلى واقع أصبحت فيه أُسيرَ جزء من

نفسي لم يعد بداخلي.
حول الطاولة التي كنت أستضيف فيها بالمنصور الذهبي صديقي الصحفي السيد امحمد الزغاري وأحد المعارف، قلت لرفاقي إنني سأتزوج غدا، فلم أعرف ما أصابهم. بدوا لي في حالة من الذهول لا يفهمها من كان يهيئ قراره على نار هادئة، وأكيد أنني بدوت لهم غير عاد. أمطروني بالأسئلة الاستفهامية والاستنكارية، ولكن حزمي جعلهم يثقون أنني لا أمزح.
أخذت الهاتف، واتصلت ببيت غزلان في مكناس. لم يكن أبوها الحاج موجودا، أخبرت أمها أنني سأزورهم في الغد، واتجهت في نفس الليلة إلى حيث تقيم زوجتي الأولى. كانت لحظات صعبة جدا بالنسبة لكلينا، وقد فضلت هذه الصعوبة على أن أنفذ قراري دون إخبار زوجة أعطت كل ما استطاعت من أجل الأسرة.
اتفقت مع أهل غزلان على أن يتم الزواج بعد ستة أيام وهو ما كان، ولم تكن بطبيعة الحال هذه نهاية ولكنها بداية لحياة جديدة واعدة.
كانت الأيام دواء، وجبرت الكسور، وأصبحت زوجتي الجديدة أما، توزع الحب والحنان وتسهر على راحة الجميع، وجاءت ذرية أخرى ملأت البيت بهجة وسرورا، فكانت ريم وغيثة ونور، وتجددت الحياة، وابتهجت الروح وتحطم إيقاع السباق من أجل المال والممتلكات، وبقي الأهم هو أن حدسي لم يخطئ بتاتا, غيرأن السحابة البيضاء بكل مواجهاتها لم تكن سوى مجرد هدوء سبق عاصفة ستنطلق في أكتوبر سنة 1993. ورغم ذلك لم تكن إلا عاصفة تمس النفس التي هي مجبرة على المقاومة من أجل العدل والإنصاف ولم تصل أبدا إلى عمق القلب الذي كنت دائما أحميه من التعلق بالدنيويات والممتلكات

الفانية.

قصر المتاعب

كنا في بداية شتاء 1993. وكانت مراكش تتأهب لاستعادة حمرتها الساحرة بعد حرارة صيف تنتزع هذا اللون سنويا من جدرانه لتجدده وتحييه.

وجدت نفسي يوما في الطابق الرابع من جناح الأمين بفندق المنصور الذهبي، أنظر إلى هذا الغروب الحزين الذي يلف مراكش ويزيد في غموضها المبهر فانطلق آذان الصلاة، فتحولت شقتي إلى ما يشبه المحراب، وبخشوع كبير بدأت أتأهب للصلاة. رن الهاتف:

- آلو مساء الخير.

- مساء الخير. من معي؟

- إنك لا تعرفني، ولكنني أعرفك... لنقل إن لنا نفس الأصدقاء في الرباط.

- نعم.

- لقد سمعت وقرأت الكثير عن مشكلة مجموعتك، وإذا سمحت لي بهذا التدخل، أعتقد أن الوقت قد حان لتخبر صاحب الأمر وتطلب منه الإعانة.

- ماذا تعني بصاحب الأمر؟

- ليس هناك إلا صاحب الجلالة الذي يستطيع أن يجد حلا لما استعصى على الوزراء والموظفين.

- هل سبق أن التقينا؟
- لم نلتق بعد ولكني أنا واحد من الغيورين على بلادنا ومن المشفقين على ما ينتاب خدام العرش المخلصين من إهمال وما يصيبهم من متاعب.
- شكرا جزيلا، وعلى كل حال نصيحتك غالية، إلى اللقاء ربما، وألف شكر...
- إلى اللقاء.
من يكون وراء هذا الهاتف؟
هل كان يقرأ أفكاري؟ ليكن من يشاء، المهم أن النصيحة بدأت تُظهر اقتراحا جديا.
في الثلاثة أشهر الأخيرة من سنة 1993، بدأت النفس تنقبض، والصدر يضيق، وجذوة الأمل تخبو، والسياحة المغربية لا تزداد إلا تأزما، وتسويق المنتوج المغربي يتعثر، والسياسة الحكومية تتثاءب، والمناخ الإقتصادي يتلوث .
تمنيت أن أكون رجلا يمر بحالة اكتئاب، تمنيت أن يكون الواقع غير هذا السواد الذي أصبح يضع بيني وبين حمرة مراكش الدافئة حجابا، ولكن الحقيقة كانت هنا. كانت جسدا مركبا يذهب بالحلم وبالنوم ويدفعني دفعا للضغط على آخر زر تجنبته كثيرا، إنه زر النجدة.
أعرف السيد كريم العمراني منذ زيارته لمكتبي في وزارة المالية وكنت مديرا لمصلحة التأمين آنذاك. كان هو الوزير الأول وكنت أحترمه لأن جلالة الملك وضع فيه ثقته وعينه وزيرا أول، ولكن في أعماقي، لم تكن تلك الصورة التي عشتها في مكتبه في الثمانينيات لتمحو انطباعا مزعجا بعض الشيء عن الرجل.
استقبلني حينما كان وزيرا للمالية بمكتبه، وأخبرته الكاتبة أن

شخصا من فاس يريد مقابلته. دخل الشخص فوقف كريم العمراني مرحبا به، واحتضنه وقبله، وما إن خرج هذا الشخص حتى ضرب الوزير ساعده براحة يده نكاية بضيفه وقال: "فلتذهب إلى الجحيم".

كان كريم العمراني رجلا بسيطا، وشاءت الظروف أن يصبح مديرا عاما للمكتب الشريف للفوسفاط بالمصادفة، ومنها انطلق في **مشوار طويل** .

عندما اتخذت قراري بالالتجاء إلى صاحب الأمر، لم أكن أريد أن أسلك طريق أصدقائي في القصر، فالحاج المديوري وإبراهيم فرج وعبد الكريم بناني والجنرال القادري أصدقاء، ولكنني كنت أفرق بين الصداقة وبين المسؤولية في المشاكل الخاصة، كنت أحس أنني ربان سفينة لها مشاكل في البحر، وعلى الربان أن يجد الحل لمشاكله بالطرق الطبيعية.

كنت أعتقد أن السيد كريم العمراني يتقاضى أجرا من المال العام ليباشر مثل المشكلة التي أعيشها، ولكنه تماطل في الرد علي. ثلاثة أشهر من الرسائل والمكالمات التلفونية والفاكسات من أجل مقابلة لم ولن تتم. ولأن الله يحب العبد الملحاح، لم أتوقف إلى أن جاءني يوما هاتف من الكتابة الخاصة للوزير الأول تخبرني أن السيد العمراني لن يستقبلني شخصيا، ولكنه حدد لي موعدا مع الوزير المنتدب المكلف بالشؤون الإقتصادية وهو السيد محمد العلوي المدغري وكان مقتدرا وشريفا ونزيها. كان من طينة أخرى، من معدن نفيس، عرفته قبل عقود وكان مفتشا للمالية مثلي، وسار في مشوار ناجح، عكرته في فترة قصيرة آثار صداقته مع الجنرال الدليمي، ولكن ما لبث أن تجاوز هذه العثرة بسرعة.

ـ براڤو، تبارك الله عليك، إن الوزير الأول أبلغ جلالة الملك،

أزف لك بشرى تفهم الدولة للمشكلة وقبولها البحث عن حل لها.
بهذا استقبلني العلوي المدغري، ومباشرة سألني:
- هل تطلب أن تعفى من التسيير؟
- أبدا.
- هل لك مشكل خاص مع أحد؟
- أبدا.
- إذن المشكل هو ما أبلغتنا به.
- بالضبط.
كنت قد شرحت في رسالتي للوزير الأول أنني أنجزت مشروعا ضخما من مائة ألف متر مربع، وأن المحيط العام لهذا المشروع لم يكن مسايرا، وهذا المشروع يعيش مشكلة إعادة تمويله بفوائد معقولة وربما بمشاركة مستثمرين جدد، ولم أجد من يتفهم كوننا بنينا قصرا للمؤتمرات في سنة واحدة ونصف بفوائد تصل إلى 13,5% على القروض وهي نفس الفوائد التي تم تطبيقها على مشاريع فندقية وسياحية تجارية محضة، علما بأن دنيا أوطيل انكبت على تشييد هذه المعلمة بوازع وطني صرف واستثمرت فيه كل ما تملك، وإنها لا تطلب صدقة ولا هبة، بل فتح الملف لا غير وإيجاد حل اقتصادي وموضوعي له. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن لقصر المؤتمرات خصوصيات لم تؤخذ بعين الاعتبار، واليوم يوجد هذا المشروع في ضيق...
قال لي المدغري مطمئنا:
- أعتقد أن الله جاءك بالفرج.
- الحمد لله.
- من تريد أن يشاركك في المركب؟
- أنت وزير اقتصاد ولا شك أن تكون لك دراية بالموضوع.
- أريد رأيك.

- لو كنت مسؤولا لقلت إن مدينة مراكش تستفيد من وجود قصر مؤتمرات، ويجب أن تدخل فيه كشريك، فلا معنى أن تكون المدينة مساهمة في فندق المامونية وهو مجرد فندق ولا تشارك في قصر للمؤتمرات يجلب ليالي سياحية لفنادق المدينة برمتها ويحرك اقتصادها ويساعد فنادقها على تسديد ديونهم.
- ومن آخر؟
- الخطوط الملكية المغربية لأن خمسين بالمائة من المداخيل العامة للمركب تعود لهذه الشركة.
- ومن آخر؟
- منذ أن كنت مفتشا للمالية، وقضيت مدة بصندوق الإيداع والتدبير، وأنا أعرف أن هذه المؤسسة تمول قطاعات حيوية لا تكون لها مردودية على المدى القصير، والصندوق يتصرف في أموال مدخرة بدون فوائد تهم الصالح العام، ومجمع قصر المؤتمرات بمراكش في اعتقادي يدخل في هذا الإطار.

وواصلنا حوارنا هكذا إلى أن أنهينا لائحة الشركاء المحتملين. اتصل العلوي المدغري بالمعنيين، ووافق الجميع مبدئيا إلا صديقي "اللدود" لمفضل لحلو.

لم أكن أسمع ما يقوله لمفضل لحلو وهو يتكلم مع العلوي المدغري بالهاتف، ولكنني كنت أفهم المعنى من خلال ردود وزير الشؤون الإقتصادية وأنا في مكتبه:

- أنا أؤكد لك آسي لمفضل أن هذا أمر سيدنا، هذا ليس اختياري ولا اختيار عبد الهادي العلمي.
- ...
- ولكن المطلوب من صندوقك مساهمة بسيطة لا تتعدى 10 مليون درهم ولا نريد إلا البركة من يديك...
- ...

لم يكن لمفضل لحلو مقتنعا أن المشروع المعروض عليه جاء بناء على تعليمات ملكية سامية. كان يعتقد أن العلوي المدغري صديقي، ويريد أن يسدي خدمة لواحد من خصومه، لذلك يجب أن يحارب الاثنين.

خرجت من مكتب العلوي المدغري رغم ذلك وأنا شبه مغتسل من كل يأس، لقد حييت من جديد، وأصبحت الرباط تبدو لي كما كانت في الأيام الأولى، صافية، حين قدمت لها شابا لا يحمل صدره إلا الآمال المتقدة. أما حين أكد لي العلوي المدغري أنه سيستدعي "شركاء الفرج" المحتملين بعد أربعة أيام لمناقشة تنفيذ القرار، فقد أحسست أن ذلك الشعور الذي هجرني، عرف طريقه إلي من جديد وكنت بكل بساطة فرحا.

توصلت بالاستدعاء في الوقت المحدد، وحضرنا الاجتماع وبمعيتي أحد مساعدي.

قال ممثل وزارة الداخلية إن ما عرضه السيد الوزير المنتدب معقول، وإذا أعطيت الأوامر فسننفذها. ثم أكد ممثل الخطوط الملكية المغربية أن شركته لا تتوفر على ميزانية كبيرة، ولكنها تقدر الدور المهيكل الذي يلعبه قصر المؤتمرات وسيدرس طريقة للمشاركة، وعبر ممثل القرض العقاري والسياحي عن تفهمه للمقترح المعروض، وجاء دور ممثل صندوق الإيداع والتدبير فسأل عن مصدر القرار، فقيل له من أعلى، فقال إن التعليمات التي تلقاها من لمفضل لحلو تفيد بأن عبد الهادي العلمي قام باستثمارات مهمة وهذا لا ينكر، ولكن الصندوق يريد أن يترك الاستثمار في القطاع السياحي برمته، وأن له مشاكل مع العلمي. أعاد العلوي المدغري على مسامع رسول لمفضل لحلو نفس حجة التعليمات الملكية، ولكن الرسول قال إنه يحمل تعليمات دقيقة من لدن رئيسه وليس له ما يزيده..

حرر المحضر، وتوصلت بنسخة منه بعد يومين. كانت نسخة الانعتاق. أعدت قراءتها، فتضخمت فرحتي وتلاشى خوفي وكنت كمن يمسك بالحل ملموسا محسوسا، ذلك الحل الذي سيعجل بخروج دنيا أوطيل من عنق الزجاجة ويساعدها على التفرغ لمهنتها الفندقية بصفة أكثر فعالية.

يقول المحضر:

ترأس السيد العلوي المدغري الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالشؤون الإقتصادية والإجتماعية اجتماعا في 13 أكتوبر 1993 لبحث وضعية المركب السياحي لقصر المؤتمرات ودراسة اقتراح المالك المتعلق بفتح رأس مال هذه الوحدة أمام المقرضين وبلدية مراكش.

وقد حضر هذا الاجتماع الذي شاركت فيه:

- السيد بلكورة عن وزارة الشؤون الإقتصادية والإجتماعية
- السيد قصيدي عن وزارة الشؤون الإقتصادية والإجتماعية
- السيد الجرموني عن وزارة الداخلية- المالية المحلية-
- السيد الخ ّ ◌َ اني عن وزارة السياحة
- السيد ملغاش عن ولاية مراكش
- السيد بنكيران عن القرض العقاري والسياحي
- السيد بنبراهيم عن الخطوط الملكية المغربية
- السيد درويش عن صندوق الإيداع والتدبير

وقد ذكر السيد الوزير بأن مجموعة دنيا كانت أخبرت السيد الوزير الأول بالصعوبات التي يمر بها قصر المؤتمرات بمراكش، وقد اقترحت المجموعة في هذا الصدد بأن يفتح رأس مال هذه الوحدة أمام مقرضين مغاربة وبلدية مراكش وذلك حفاظا على استمرارية هذا الإنجاز.

وقد أبى جلالة الملك، حين بلغت إلى علمه هذه الوضعية، إلا

أن يعطي تعليماته السامية للسيد الوزير الأول حتى تتم مساعدة قصر المؤتمرات.

ولما كان مبدأ إنشاء شركة جديدة تضم هذا المركب بأكمله وفتح رأس مالها قد حصل على موافقة السيد الوزير الأول بعد تعليمات ملكية واضحة، فإن الأمر أصبح قضية لا يمكن أن يختلف عليها اثنان وتنحصر في عمل تقني يحفظ مصالح الأطراف كلها.

وأوضح السيد الوزير أن الوزارة الأولى لا ترغب في أي حل يرتكز على دعم مالي مباشر لقصر المؤتمرات وأن الحل النهائي بالنسبة لها يجب أن يعتمد على الطرق التجارية المحضة. ولكنه إضافة إلى المشاركات المالية المباشرة، لم يعد يستبعد احتمال صيغة شراء الأسهم لمدة معينة.

وأشار السيد الوزير إلى ضرورة تكوين لجنة تقنية تضم ممثلين عن وزارة السياحة والقرض العقاري والسياحي وصندوق الإيداع والتدبير لتقترح خلال عشرة أيام طريقة تحقيق فتح رأسمال هذه المؤسسة لصالح القرض العقاري والسياحي وصندوق الإيداع والتدبير ومدينة مراكش وشركة الخطوط المغربية، وذلك بعد إجراء خبرة تحدد القيمة الحقيقية لكل من قصر المؤتمرات وفندق المنصور الذهبي.

وتدخل السيد الخَ ّ َاني ليؤكد من جديد على أن وزارة السياحة تريد دعم هذه المؤسسة التي تعطي صورة ممتازة عن المغرب في الخارج وتهيكل سياحة الأعمال بمراكش.

وأوضح السيد الجرموني من جهته بأن مدينة مراكش مستعدة للمساهمة مادام أن مبدأ مساعدة هذه المؤسسة قد أصبح مكتسبا، ورغم ذلك يجب أن تتوفر اللجنة التقنية ووزارة الداخلية على الوثائق الضرورية التي من شأنها أن تساعد على إنجاز الخبرة.

ويجب كذلك وضع دفتر تحملات حقيقي خاص بالتسيير. وطلب في هذا السياق بأن يعطى للجنة الوقت الكافي للقيام بهذا العمل.
وصرح السيد بنكيران، بأن مشكل قصر المؤتمرات سبق وأن درس من طرف المجلس الإداري للقرض العقاري والسياحي. والآن، وقد تم اتخاذ قرار على المستوى السياسي، فيجب إنجاز مخطط إعادة تمويل هذا المشروع.
ومن جهته، ألح السيد بنبراهيم عن الخطوط الملكية المغربية على كون قصر المؤتمرات يشكل عنصرا مهيكلا للسياحة بمراكش، واعتبر أن مستقبل هذه المجموعة مرتبط بالحلول التي يمكن للقرض العقاري والسياحي أن يقترحها فيما يخص نسبة الفوائد ومدة القروض، وأشار إلى أن مثل هذه المنشآت لا يمكن أن تتحملها إلا الدول أو المؤسسات التابعة لها وليس الخواص. وأن مشكل السيولة مطروح بالنسبة للخطوط الملكية، ورغم هذا يجب أن نبحث عن جميع الوسائل لدعم هذه المؤسسة.
وأشاد السيد درويش ممثلا عن صندوق الإيداع والتدبير بعمل مجموعة السيد العلمي في القطاع الفندقي، لافتا النظر إلى أن مؤسسته التزمت كثيرا في الماضي بمشاريع عديدة في هذا القطاع، وأنها عازمة على الخروج من هذه المشاريع في ظل قانون الخوصصة، وأنها لم تستطع استخلاص ديونها في بعض حالات عقود التسيير التي تربطها ببعض المجموعات السياحية. ويشرع الصندوق حاليا في توجيه نشاطاته لقطاع العقار والسكن، وبناء على ما سبق، يقول ممثل صندوق الإيداع والتدبير، إن الإدارة العامة لمؤسسته لا رغبة لها في أي مساهمة جديدة في القطاع الفندقي.
وتدخل السيد الوزير ليوضح من جديد أن مبدأ المساهمة في

رأسمال قصر المؤتمرات تم إقراره بناء على تعليمات ملكية سامية.

وتدخلت موضحا أنه فيما يتعلق بالمساهمة المالية المباشرة، فإن البنك التجاري المغربي قد أكد مساهمته في حدود 11% من رأسمال مركب قصر المؤتمرات. كما أن مجموعة دنيا ستساهم بدورها ماليا في هذه العملية. وأن جميع الوثائق الضرورية للجنة ستكون رهن إشارتها في أقرب الآجال بعد هذا الاجتماع.

وكان الكل يعلم أن استثمارنا الخاص في هذا المشروع، بما في ذلك فوائد التأخير، قد وصل في 30 يونيو 1993 إلى مبلغ 356 مليون درهم، ضمنها 115 مليون درهم صرفت على قصر المؤتمرات.

وككل مرة أوضحت للمسؤولين آنذاك أن مجموعة دنيا أوطيل استثمرت منذ نشأتها سنة 1976 أكثر من مليار درهم، وصرفت كأجور لموظفيها أكثر من 525 مليون درهم وأدت أكثر من 162 مليون درهم من الضرائب.

وأضاف مساعدي الذي شارك هو كذلك في هذا الاجتماع بأن إرجاع الديون، في إطار مخطط تمويل جديد، سيمكن مركب قصر المؤتمرات من توزيع أرباح على شركائه في المستقبل.

وأن مجموعة دنيا تقترح هي نفسها إجراء خبرة ووضع دفتر تحملات لتحديد مهمتها كمسيرة. وهي لا تعترض على أن تشمل عملية فتح رأس المال المركب بأكمله محتويا فندق المنصور الذهبي كذلك.

وكانت نتائج هذا الاجتماع هي تكريس مبدأ المساهمة في رأسمال قصر المؤتمرات وفندق المنصور الذهبي الذي أصبح شيئا مكتسبا تبعا للتعليمات الملكية السامية، وتكوين لجنة فنية تضم وزارة السياحة والقرض العقاري والسياحي وصندوق

الإيداع والتدبير وبلدية مدينة مراكش تسهر على تحديد مخطط التمويل في هذه المساهمة. وقد حدد لعمل هذه اللجنة أجل عشرة أيام. وعند نهاية أشغال هذه اللجنة، تقدم اقتراحاتها إلى وزارة الشؤون الإقتصادية والإجتماعية قبل أن ترفع للوزير الأول للبت فيها.

لم أكن أعرف حينه أن ما اعتبرته حلا، سيكون بداية حرب أخرى...، إنها حرب أقسى على النفس، لأنها لا تتعلق بمواجهة شخص أو موقف، ولكن لأنها كانت تتحدى تعليمات ملكية صائبة، ولم أتصور في حياتي أن بإمكان الإدارة أو بعض الوزراء أن يتجاوزوا في تحدياتهم السلبية هذا الحد.

ولكن، كنت أتذكر صراحة جلالة الملك في إحدى تصريحاته حين قال بأنه يتخذ مائة قرار ولا ينجح منها في التطبيق إلا أربعين، وكانت لي قناعة أن ما سيواجه المحضر من سوء نية وعناد شيء ممكن في بلد تتعثر فيه الإدارة وتنقص الكفاءة وترتفع نسبة تلوث المناخ البشري، فماذا لو لم يكن قدرنا هو أن لا نتوفر على ملك وازن عظيم؟

قضيت سنة وأنا أطوف طواف الثائر على الموقعين على المحضر. كان الحماس يخبو يوما بعد يوم.

طرقت باب المدير التجاري لـ"لارام" مرات متعددة، وكان في كل مرة يعيد أن شركته لا تملك ما يكفي من السيولة للمشاركة المباشرة في المشروع، ولكنه يطمئنني بأنه لن يعدل عن الاتفاق، ويحاول أن يجد طريقا غير مباشر للمشاركة قد تكون اقتطاعات من تذاكر سفر سياح قادمين إلى المركب أو شيء من هذا القبيل.

ذهبت عند المسؤولين بالمدينة أكثر من مرة، فكانوا يقولون إنهم بانتظار أن تأتيهم التعليمات السامية، وآنذاك سيتخذون القرار

فوريا.
لم يسبق لفريق وزير الدولة في الداخلية إدريس البصري أن وقف ضدنا ولا أن أجبرنا على شيء، كما أنني لم ألتجئ أبدا إلى البصري شخصيا رغم أنني أعرف أنه لم يكن ليرد لي طلبا، ربما كان يؤاخذني على بعض علاقاتي مع أشخاص ليست له معهم مودة، ولكنني أحجمت عن الدخول في مثل هذه الاعتبارات لأن علاقاتي بالجنرال القادري أو الحاج المديوري مثلا كانت دائما علاقة صداقة لا علاقة مصالح أو أعمال، ولذلك لا يمكن لمن له مبادئ أن يتخلى عن أصدقائه.
أبواب صندوق الإبداع والتدبير ظلت مغلقة. لم ينس لمفضل لحلو أبدا كوني كنت أعمل تحت إمرته، وغادرت الإدارة وبنيت وشيدت ونجحت. كان منطقه هو أن عبد الهادي العلمي صاحب كل هذه "الفهامة" يجب أن يحل مشكله لوحده وكنت أرى مثل هذه المواقف سلبيات ضخمة لكونها تعرقل النمو الاقتصادي في البلاد ولأنها ترتكز على منطق العالم الثالث.
وكان طبع لمفضل لحلو كذلك شاذا، لم يكن يقبل الخسارة حتى في مباراة رياضية، وإذا انتصرت عليه تصبح عدوا له، وأنا متأكد اليوم أنني لو كنت ذهبت عنده لداره واستعطفته، كنت ربحت الرهان، ولكن لم أفعل اعتبارا مني أن ملفي وحده كاف ليشفع لي عند أصحاب القرار.
بلغني أن لمفضل لحلو استدعي من طرف عبد الكريم بناني من الكتابة الخاصة لجلالة الملك، وأكد له هذا الأخير أن المحضر الخاص بمركب المنصور الذهبي جاء بناء على تعليمات ملكية، فقال لمفضل أنه لا يمانع في المشاركة إذا نفذ الموقعون الآخرون، ولكن لمفضل سيشكل مع وزير الخوصصة عبد الرحمن السعيدي ثنائي العداء لمجموعتنا بامتياز، وسيقفان،

بالتآمر أحيانا وبالتحايل أحيانا أخرى، ضد تطبيق ما جاء في المحضر.

سنة الطواف الواحدة تحولت إلى ثلاث سنوات عقيمة عادت بي إلى أعماق العبث، ولو لم أكن صلبا لانتهيت. من أكتوبر 1993 إلى يونيو 1996 وأنا أحارب، دفاعا وهجوما، كتابات مذكرات، تدخلات، ولم أحصل إلا على وثيقة رسمية واحدة كتبها وزير السياحة الأستاذ العلوي المحمدي إلى الوزير الأول الفيلالي الذي كان يقال أنه مغلوب على أمره، يستنكر فيها كل هذا التماطل ويثني على مجموعة دنيا أوطيل ويذكر بمواطنتها ومواكبتها للسياسة الحكيمة لصاحب الجلالة، ولم يكتف الأستاذ العلوي بهذا، بل كان يستنكر هاتفيا الحرب التي يواجه بها المستثمر المغربي عبد الهادي العلمي الذي ركب كل المخاطر في سبيل نماء القطاع السياحي المغربي، وكان يحب أن يردد ما جاء في القرآن الكريم "وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان"...

كانوا يقولون إن ما ندعيه بأن كلفة قصر المؤتمرات رخيصة هو مجرد افتراء، وأن العلمي خرج من هذه العملية بصفقة مربحة، ولما لم تكف الرسائل العادية والمذكرات في مواجهة هذا الزيف هيأت كتابا عنونته بـ"قصر المؤتمرات بقلب مفتوح" وكان في الواقع صرخة حق مدعمة بالأرقام والحجج.

وشرحت كيف أن قصور المؤتمرات لا ينشئها الخواص، فمن خلال التجارب الأوربية والأمريكية والأسيوية، يستخلص أن قصور المؤتمرات تنشئها بالأساس الدول مباشرة أو الجماعات المحلية التابعة لها، وذلك في إطار استثمار داخلي أو بقروض خارجية مختلفة، جاعلة الغاية من ذلك إعطاء المدينة فرصة للرفع من مداخيلها، وخلق فرص للشغل، ومساعدة الفعاليات الإقتصادية على استهلاك استثماراتها الثقيلة ووسائل نقل... إلخ.

فضلا عن كون إنشاء قصور للمؤتمرات يندرج في إطار تدعيم سمعة المدن والبلدان التي تتواجد فيها.
وهكذا، فإن منتوج قصر المؤتمرات بالنسبة للمدينة التي تأويه يتخذ عدة أشكال: إن المؤتمر يصرف في المعدل، على مدى ثلاثة أيام يقضيها في مؤتمر ما حوالي تسعمائة وخمسين دولارا تنقسم كما يلي: أربعين في المائة لشركة النقل، وعشرين للفندق، وعشرة لقصر المؤتمرات، والباقي للتغذية والتنقلات وشراء الهدايا... إلخ.
وعلى مستوى التشغيل، نجد أن قصور المؤتمرات توفر بمناسبة انعقاد كل مؤتمر، مناصب شغل مؤقتة تضاف إلى مناصب الشغل القارة، وتدفع الجهات المتعاملة معها كذلك، إلى الرفع من عدد مستخدميها.
وبالإضافة إلى ضريبة القيمة المضافة وكل الضرائب الأخرى المتواجدة، تتمتع الجماعات المحلية كذلك بالمداخيل الفائضة التي تأتي لتكميل الإسقاطات المذكورة أعلاه.
ومن جهة أخرى، فإن الجماعات المحلية تعمل على إيجاد تمويلات ذات أمد طويل تصل إلى ثلاثين سنة فأكثر تضمنها الدولة، وبأسعار جد منخفضة، وذلك باتصالها مع المنظمات الدولية المتخصصة، فقصر المؤتمرات بڤيينا بالنمسا مثلا، مول بواسطة قرضين على ثمانية وعشرين سنة من طرف الكويت والإمارات العربية المتحدة، بسعر سنوي مضمون قدره ستة بالمائة.
وبالنسبة لأغلب قصور المؤتمرات التي لا تستطيع تحقيق معادلة ميزانيتها، فإن هذا التمويل تكمله إعانات سنوية. هذه هي الحال بالنسبة لقصر مؤتمرات ڤيينا الذي يتوصل بمساعدة مالية قدرها أربعة ملايين أورو في السنة.

إن القيمة الإجمالية للاستثمارات الخاصة بمركب قصر المؤتمرات بمراكش حددت، في ثلاثين يونيو 1995، فيما يقارب مليارا وإحدى عشر مليون درهم، تشمل قيمة الاستثمار الأساسي الذي قدره ما يفوق سبعمائة واثنين وثلاثين مليون درهم، والفوائد المتجمعة إلى حدود نهاية شهر يونيو 1995 وقدرها مائتان وثمانية وسبعون مليون درهم تقريبا.

ويمثل قصر المؤتمرات وحده سبعة وأربعين بالمائة من هذه القيمة الإجمالية- بإدخال الفوائد الإضافية ، الشيء الذي يمثل تقريبا أربع مائة وسبعة وخمسين مليون درهم.

ولقد تم تمويل هذا المشروع في إطار مخطط مالي تحف به المخاطر من كل جهة نظرا لغياب أية شراكة ورفع يد الدولة عنه، حيث إن التمويل المباشر لشركة دنيا أوطيل فاق ثلاثة وثلاثين في المائة من مجمل ميزانية المشروع ولقد كان مدعما بقروض من بنك "القرض العقاري والسياحي" والخزينة العامة (6% من مجموع قروض هذا الأخير) شكل نسبة ثمانية وثلاثين بالمائة ومن أبناك أخرى بنسبة تفوق تسعة وعشرون بالمائة، وكل هذه المبالغ اقترضت بفوائد تفوق 13%، وكانت الكلفة الإجمالية هي سبعمائة واثنان وثلاثون مليون درهم تقريبا، إذا أضفنا الفوائد المقدرة بمائتين وثمانين مليون نصل إلى ما يفوق المليار درهم.

وبناء على ما سبق، يتضح أن إنجاز قصر المؤتمرات كلف ما قدره ثلاثمائة وأربعة وأربعين مليون درهم تقريبا، الشيء الذي يجعل كلفة المتر المربع الواحد تصل إلى ستة عشر ألف درهم تقريبا.

هذا ولقد كلف بناء فندق المنصور الذهبي، والذي يحتوي على أربعمائة وثلاث غرف وست وثلاثين شقة، ثلاثمائة وسبعة

وثمانين مليون درهم.
ونتساءل: هل هذه الكلفة مرتفعة؟
إن المقارنة بين هذه الكلفة وكلفة مشاريع أخرى مماثلة، سواء بالمغرب أو بالخارج توضح لنا أن تدبير ميزانية هذا المشروع تمت في أحسن الظروف.
وللاستدلال، يمكن أن نذكر على سبيل المثال من المغرب، فندق جنان بالاص بفاس، الذي قام بإنجازه صندوق الإيداع والتدبير، والذي كانت كلفة قاعة للمؤتمرات به ومساحتها ألف وخمسمائة متر مربع، واحدا وأربعين مليون درهم، أي أن ثمن المتر المربع الواحد يصل تقريبا إلى ثمانية وعشرين ألف درهم، مقابل ستة عشر ألف درهم بالنسبة لقصر مؤتمرات مراكش، مع أن هذا الأخير أجود تجهيزا وتزيينا ومعمارا...
وفي فرنسا، نجد الأكروبوليس، وهو قصر مؤتمرات مدينة نيس الذي يتوفر منذ 1983 على مساحة من خمسين ألف متر مربع، قد كلف أربعين مليون أورو خارج قيمة العقار.
والسبب في اعتدال كلفة قصر المؤتمرات بمراكش راجع لكون تحقيق هذا المشروع أدارته ودبرته مجموعة دنيا بصفة مباشرة، دون اللجوء إلى مقاولات خارجة عنها إلا في حالات استثنائية.
إن مجموعة دنيا كانت على علم بأن فندقها المنصور الذهبي لم يكن بحاجة إلى قصر المؤتمرات من خمسة آلاف مقعد، إلا أنها أرادت أن توفر للمغرب جهازا للمؤتمرات في مستوى طموحاته السياحية. وبالفعل، فإن المؤتمرات من فئة سبعمائة وخمسين إلى ألفي مشارك التي شيد قصر المؤتمرات من أجلها، لا تمثل سوى تسعة بالمائة من نسبة التشغيل فيه.
وشرحت في هذا الكتيب أن مجموعة دنيا تقوم منفردة بإنعاش وترويج مركب قصر المؤتمرات وأن وزارة السياحة ومكتبها

الوطني لم يعرف عنهما أبدا مساهمتهما في أية دعاية أو ترويج أو محاولة تسويق لقصر مؤتمرات لم يكلفهما ولو درهما واحدا.
وأوضحت أن هناك قرارين ينبغي أن يتخذا اليوم لدرء الأخطار التي تهدد هذا الجهاز الفريد من نوعه بالمغرب، وهما إعادة هيكلة رأس المال وإنشاء لجنة للمؤتمرات يجمع كل الأطراف المعنية وهي: شركة دنيا أوطيل ومدينة مراكش والمكتب الوطني للسياحة والخطوط الجوية الملكية وكل الفعاليات المهتمة من أرباب المطاعم والأسواق التجارية المستفيدة، وحتى المرشدين السياحيين، على أن تتكفل هذه اللجنة بإنشاء لوبي داخلي وخارجي يعمل على التعريف بهذا المنتوج والدفاع عن مصالحه وترويجه في أسواق سياحة المؤتمرات.
في نهاية الكتيب، كتبت جملة أخيرة بالخط العريض تقول: "نعم، إن التحديات تكون دائما من فعل أشخاص يتميزون بإرادة قوية لا تقهر وإيمان بقضيتهم لا يعرف الشك، غير أن استمرارية التحدي لا يمكن أن تتحقق إلا بفعل العمل الجماعي".
كل هذا كان ماء ثمينا يصب في رمال ساخنة وعطشى لا يرويها.
أعترف أحيانا أنني كنت ساذجا ولم أكن على دراية بقواعد اللعبة، فكان الأمل في طي ملف قصر المتاعب يبتعد عنا مع ولوج كل باب جديد. وكنا نعتقد مرارا أننا نقترب، والواقع أننا لم نكن نجد أمامنا سوى أنواع مختلفة من السراب والضبابية.
عندما جاء قانون التصريح بالممتلكات، كنت من الفندقيين القلائل الذين صرحوا بممتلكاتهم كلها. قلت إن زوجتي فرنسية، وكنا منذ الستينيات نملك شقة صغيرة مساحتها أربعون مترا مربعا بزنقة "لاپومپ" بباريس، وبعناها، واشترينا محلا أكبر مساحته 73 م.م بزنقة "رافي".

حصلت زوجتي إليان بعد وفاة جدتها على إرث أضفنا إليه بعض ما كنا قد وفرناه، واشترينا محلا مساحته مائة وأربعون م.م بـ59 شارع "لان" بالمقاطعة السادسة عشر بباريس.
قلت في التصريح كذلك إن زوجتي لها منزل بمدينة "پو" جنوب فرنسا وهو عبارة عن دار قديمة بالبادية تبعد عن المدينة بـ25 كلم كانت قد ورثته عن أهلها كذلك، وكنت أبعث من وقت لآخر بعض أطر شركة دنيا أوطيل الكبار ليقضوا عطلهم به، كما كنت أعير تلقائيا مفاتيح شقة باريس لبعض أصدقائي.
لم يكن لدي ما أخفيه، ولكن شاءت إرادة الأعداء أن تتحول هذه الإقامات إلى قصور عتيقة وشقق فاخرة.
لم يكن مصدر هذه الشائعات مواطنين عاديين، أو موظفين سامين، بل قالها حسب معلوماتي المستشار أندري أزولاي، وقالها جون روبير ريزنيك مسؤول شركة أكور الذي استضفته ببيتي أكثر من مرة بباريس.
كانوا يقولون إنني لم أكن لأملك بالخارج ما أملكه لو لم أبن قصر المؤتمرات. كان هذا تلميحا يراد به أذى، لأن تاريخ ملكية البيتين الفرنسيين يرجع إلى الستينيات والسبعينيات، بل إن كل أملاكي أنشأتها قبل بناء مركب قصر المؤتمرات سنة 1989، ومنها وكالة "طوب" للأسفار و"باهية تور" أو شركة النقل السياحي بجميع حافلاتها.
صحيح أنني لم أسكت، ودافعت ضد هذا البهتان من خلال وسائل الإعلام، وكذبت تارة، وبينت الحقيقة تارة أخرى ولكن دفاعي لم يكن يصل إلا للجمهور المتأثر بوسائل الإعلام، أما كبار المسؤولين، فلم يكونوا يسمعون إلا مساعديهم، وكنا ضحية هؤلاء المساعدين حين أجرموا في حقنا وهم متأكدون أن ظلمهم لنا لن يحاسبوا عليه أبدا.

ولم يكتف هؤلاء باحتكار مجال لم تكن لنا طاقة الوصول إليه، ولكنهم نزلوا إلى ميدان الإعلام كذلك، وسرب لمفضل لحلو مثلا معلومات خاطئة تارة، ومعلومات صحيحة من قبيل الحق الذي يراد به باطل تارة أخرى، كأن يقول إننا لا نؤدي ديوننا، وكنا فعلا لا نؤدي بعضها مثلنا آنذاك مثل جل المستثمرين في القطاع الفندقي، وذلك للأسباب التي تدور حولها رحى هذه الحرب التي وصلت إلى جلالة الملك، وأعطى أوامره فيها، وكان أول الممتنعين عن تنفيذها هو لمفضل لحلو نفسه كما سبق ذكره.

كتب الصحفي فهد يعته مقالا يجرحنا فيه، وهو ما اعتبرناه قذفا، والتجأنا إلى القضاء، فكان أن كشف الصحفي فهد عن مصدره والقاضي يستجوبه، وقال إن من زودني بالمعطيات الواردة في المقال المتابع هو لمفضل لحلو، وقد أدانت المحكمة فهد يعته، ولكنها كشفت أن لمفضل واحد من أولئك الذين كانوا يبذلون كل ما في وسعهم، ليس لخنق مجموعتنا في واضحة النهار فقط، ولكن يخططون لما هو أخطر في جنح الظلام كذلك.

عبد الرحمن السعيدي كان من هؤلاء، وفتح وخاض المعركة ضدنا على جبهتين، جبهة عدم تطبيق مضمون المحضر، وجبهة الخوصصة التي كان مكلفا بحقيبتها.

في يناير 1991، كنت قد أخذت ملفات الفنادق التي تسيرها المجموعة دون أن تكون في ملكيتها، وهي فنادق "توبقال" و"النفيس" بمراكش و"الزات" و"أزغور" بوارزازات و"الريصاني" بالراشيدية و"أوزود" ببني ملال و"وليلي" بفاس و"التلال الذهبية" بأكادير و"سجلماسة" بأرفود و"المضايق" بتلوين. وذهبت عند وزير الخوصصة آنذاك مولاي الزين الزاهدي وقلت له بمنطق من عانى من الأبواب الموصدة، أن ما

نريده من الدولة هو أن تبيعنا الفنادق التي نسيرها بطريقة مباشرة وبثمن يحدده الخبراء. وكان مطلبنا هذا مطلبا عادلا لأننا قمنا باستثمارات في هذه الفنادق، ونملك الأصول التجارية لبعضها. وأوضحت له أن هذا لا يعني أننا نريد شراء هذه الفنادق بدرهم رمزي، ولكن نريد أن يأخذ الثمن بعين الاعتبار السنوات الطوال التي أدينا فيها ثمن كراء هذه الفنادق والذي وصل إلى حدود تغطية كلفة بنائها بأكمله. وبالطبع، لم أكن أبدا أغلق باب الحوار والمفاوضات.

كان موقف الزاهدي أبرد من قطعة ثلج وكان يكتفي بالنظر إلي بصفة متعالية. أحسست أنه ليس وزيرا له روح مواطنة. كتبت له، وزرته مرات متعددة، ولم تصلنا إلا رسالتان خلال المدة التي قضاها بالوزارة يقول فيها: أؤكد أنني توصلت بملفكم وسأحيله على لجنة كذا. والثانية، لقد توصلت بملفكم وقد أحلته على لجنة كذا. وتلاه في وزارة الخوصصة السيد عبد الرحمان السعيدي، وهوخبير حسابات بمدينة الدار البيضاء. فقصدت مكتبه أياما قلائل بعد تعيينه، فاستقبلني وقال لي بدون مقدمة:

- أنت هو عبد الهادي العلمي الذي قلت في برنامج L'homme en question بأنك ستشتري الفنادق بلا شيء.

- إن ما قلته هو أنه بدل أن نخرج نحن من فنادق سهرنا لسنين على تسييرها والتعريف بها على الصعيدين الداخلي والدولي، نقترح الأخذ بعين الاعتبار أننا اكتريناها من صندوق الإيداع والتدبير ومن المكتب الوطني للسياحة بمبالغ تغطي جميع ديون هؤلاء في بناء هذه الفنادق، إضافة إلى ما سددناه كربح إضافي لصندوق الإيداع والتدبير يصل إلى اثنا عشرة بالمائة من الغلاف المالي للاستثمار، وقد تم هذا بالفعل وبه تمت تغطية ديون المستثمرين الأصليين. وربما قد لا توافقون على هذا

العرض فنقترح عليكم تقويم الأملاك المعروضة للبيع والتابعة للدولة تقويما موضوعيا نحن مستعدون كل الاستعداد لقبوله، المهم ألا تشتتوا شملنا، فقد بنينا قصرا للمؤتمرات وهو يتكبد منذ نشأته خسارات مالية ضخمة، وربما قد نقوم جزءا من عجزه بهذه الفنادق. أما إذا حرمنا منها، فلن تبقى عندنا استثمارات عمودية، ولكن مجرد جزر هنا وهناك لن تستطيع الصمود طويلا.

-أنا لا يهمني هذا الطرح، ولا علاقة لي بقصر المؤتمرات، وفيما يخص الفنادق التي تتحدث عنها، فبيعها لن يتم إلا بالطريقة الملائمة للإدارة. وسيتكرر مثل هذا اللقاء مع الوزير الجديد، ومن سوء حظ مجموعتنا أن كل لقاء معه يكون أسوأ من سابقه.

كنت بشقتي في الدار البيضاء عندما أخبرت في أحد أيام سنة 1994 بأن السعيدي سيكون ضيفا لسميرة سطايل في برنامج L'homme en question بالقناة الثانية، ولا أعرف لماذا حدست بأن هذا البرنامج سيكون لحظة محطة أخرى من محطات متاعبنا مع الوزير صديق لحلو. مرت ساعة وعشرين دقيقة من البرنامج دون إثارة مجموعتي، وفي الدقائق العشر الأخيرة فاجأت سطايل السعيدي بالسؤال التالي:

- وماذا عن دنيا أوطيل؟

- مالها؟

فقالت له الصحفية اسمح لي أن أبث مقطعا من تدخل لعبد الهادي العلمي في نفس البرنامج قبل سنتين. وفعلا بث المقطع الذي أقول فيه إن دنيا أوطيل أدت عن طريق مبالغ الكراء ثمن الفنادق التي أخذتها من صندوق الإيداع والتدبير خارج سياقه، إذ لم أكن أقصد أننا لن ندفع ثمن شراء هذه المؤسسات بعد

تقويمها.
- ما سمعته غير معقول، علق السعيدي، وأنا لا يهمني لا العلمي ولا غيره، وفنادقنا سنبيعها لمن نريد وبالثمن الذي نريد، وعلى كل حال، العلمي ليس رجلا يفي بتعهداته، ولم يدفع لصندوق الإيداع والتدبير ثمن كراء الفنادق ولم يرجع له إلا ثلاثة وحدات...
انتهى البرنامج، فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنها حرب لن تنتهي أبدا.
اتصلت بابني كريم. أخبرته برغبتي في الرد على السعيدي، فقال لي، اتركه وشأنه.
- ولكنه مسنا في سمعتنا.
- هذا ليس مهما، المهم ألا ندخل في المشاكل.
- نحن في المشاكل على كل حال.
اتصلت بتوفيق بناني سميرس المدير العام للقناة الثانية:
- آلو السي بناني سميرس؟
- آ... سي عبد الهادي العلمي، عرفتك من صوتك، إنني معك.
فعندما انتهى الوزير، قلت له لم يكن من اللائق الطعن في شخص غائب، وأكدت له أنه إذاطلبتَ مني الرد فسأعطيه له بسرعة، ولك الآن هذا الحق، فهل تريد أن تأتي اليوم؟
اعتذرت لارتباطي بموعد سابق، وكنت في القناة مساء الغد، سألني الصحفي عمر سليم ونحن نتهيأ لتقديم الرد، هل نيتك الانتقام؟ فأجبته بالنفي، فقال:
- أحسنت، فلم يسبق أن عرفت شخصا رد لينتقم فأصاب
انتهت الاستعدادات، وظهرت على الشاشة، وبدأ عمر سليم يسألني وأنا أجيب.
قلت إنني أحترم السيد الوزير، وهو خبير حسابات. ونحن لسنا

مدينين بشيء لمؤسسة صندوق الإيداع والتدبير. ولاحظت كذلك ما معناه أن الوزير تشابه عليه البقر، إذ لم نسلم لصندوق الإيداع والتدبير ثلاثة فنادق فقط ولكن سلمنا له تسعة بالكامل. أما فيما يخص الكراء، فلقد كنا أخذنا الفنادق من صندوق الإيداع والتدبير بعد مرحلة المغربة، وأضفنا خمسين بالمائة على قيمة الكراء التي كانت مطبقة آنذاك، بل إننا حولنا النسبة في الأرباح السنوية إلى كراء إضافي نزولا عند ضغوطات لمفضل لحلو، وانتهى تدخلي التلفزيوني وطويت ملف السيد السعيدي مؤقتا.

وأتذكر أنني جلست مرة معه ونحن نتفاوض حول بيع الفنادق، قال لي حرفيا:

- شوف آسي العلمي، أنا مباغيش نبيع هاد الأوطيلات بالجملة، إلى بعتهم متفرقين غادي نربح أكثر.

- إن دنيا أوطيل شيدت الكثير وخلقت مناصب شغل تعد بالآلاف، وأدت سبعين مليار سنتيم كأجور منذ أن أنشأت المقاولة، وأنا أعمل كأجير في شركتي، ولا أتقاضى سوى خمسة وستين ألف درهم شهريا، وكان بالإمكان أن أحدد لنفسي الراتب الذي أريد مادمت أملك في الشركة تسعة وتسعين بالمائة من أسهمها.

- آسي العلمي تتكلم معي بهذه الطريقة وكأنك تؤلف كتابا، كل هذا لا يعنيني. قلت لك سأبيع الفنادق واحدا واحدا.

بعد هذا الاجتماع، كتبت للسعيدي رسالة أخبرته فيها بأنني كاتبت الوزارة منذ سنة 1991 في شأن شراء هذه الفنادق، وطلبت منه الإجابة بالرفض أو القبول. ولم يكن هناك جواب.

أعدنا كل الفنادق لأصحابها، وبقي فندق التلال الذهبية بأگادير.

استطعت بالوساطة أن أرتب آخر لقاء مع السعيدي. قلت له:

- إن فندق التلال الذهبية تم بناؤه من طرف دنيا أوطيل مباشرة

لفائدة صندوق الإيداع والتدبير ولقد أعطيناه شهرة عالمية بفضل استثمارات دعائية وإشهارية كبيرة على مدى 17 سنة.
وهنا قاطعني السعيدي بتلميحات حول مكتسبات حققناها بفتحنا مكتبا للدعاية بباريس، وأكدت له أننا فتحنا فرعا للشركة بباريس، ولكننا كنا مراقبين من طرف مكتب الصرف ولم يسجل علينا أبدا أدنى مخالفة.
- هذا كلام، وأنا لست عدوك، وإذا كنت تريد أن تشتري التلال الذهبية، فقدم لنا عرضك.
- حاضر يا سيدي، ولكن ما هو مبلغ تقويم بيعه ثم هل تقبلون بتفويته لدنيا أوطيل بطريقة مباشرة؟
- نحن لا نبيع بطريقة مباشرة.
- ولكنكم تتهيأون لنهج نفس الطريقة مع السيد عمر القباج والذي أنت مراقب حساباته وقد يشتري منكم حياة رجنسي بخمسة وعشرين مليار سنتيم وقيمته الحقيقية خمسة وثلاثون مليار على الأقل.
- إيوا وصلنا دبا للقذف، آش هاد الشي؟
- اسمح لي، هذه مجرد وجهة نظر.
- آسي العلمي، السي القباج والسي محمد بنعمور خصمنا لهم خمسة وعشرين بالمائة من ثمن الفنادق لأن عقود الكراء التي كانت عندهم لم تكن منتهية وقت البيع وكانت تنص على أربع سنوات أخرى من الاستغلال.
- السيد الوزير، متى طلب هؤلاء شراء هذه الفنادق؟ قبل ستة أشهر؟ أنا طلبت هذا سنة 1991 وإذا أخذنا بعين الاعتبار حجتك، فيجب أن يطبق علينا نفس المنطق.
- ولكنك لم تنقطع عن استغلال هذه الفنادق.
- لنأخذ هذا بعين الاعتبار وأن يتم البيع بثمن معقول.

- ماذا تريد الآن؟
- أن أشتري.
- ليس هناك مشكل، سأحيل الملف على لجنة التقويم.
توصلت بعد هذا برسالة يخبرني فيها السعيدي بأن الثمن المقترح لفندق التلال الذهبية هو مائة وخمسة وعشرون مليون درهم.
كنت قد بنيت هذا الفندق بتسعة وأربعين مليون درهم لفائدة صندوق الإيداع والتدبير ولم أتقاض أجرة عن ذلك، وأديت عن طريق الكراء كل هذا المبلغ، ويطالبني السيد السعيدي بدفع مائة وخمسة وعشرين مليون درهم أخرى.
هكذا كنت أفكر لما عدت عنده، فقلت له:
- إن فندق التلال الذهبية، وهو الرئة التي تتنفس بها المجموعة، في الميزان الآن، ونحن نملك أصله التجاري، كما أننا قمنا بإضافة بنايات جديدة بنيناها من مالنا الخاص، ومازلنا إلى الآن نؤدي أقساط ديونها.
- إنك لم تطلع على كل شيء، فإلى جانب الثمن الذي اقترحناه عليك، هناك شرط، وهو أننا لن نبيعك الأرض، سنعطيك فقط خمسة عشر سنة من الاستغلال.
ذهلت:
- ولكن من هذا الذي سيقبل أن يقرض شركة ما مالا لتشتري به عقارا بدون أرض، علما أن القروض لا تعطى إلا بالرهن العقاري؟
- ولكن عندك 15 سنة من استغلال الأرض.
- السيد الوزير أعتقد أن قانون الخوصصة يتحدث عن تفويت الملكية، ولا ملكية للفندق بدون أرض.
- هذا تأويل خاطئ لقانون الخوصصة.

كتبت بعد هذا للوزير، وأخبرته بقبولي الثمن المقترح وهو 125 مليون درهم، شريطة أن يكون التفويت كاملا، فأجابني أن البيع لا يمكن أن يتم إلا بالشروط الأصلية، وأعطاني شهرا واحدا كمهلة لاتخاذ القرار النهائي.

لما تيقنت أنه لا مناص من إرجاع فندق التلال الذهبية، وأن عبد الرحمن السعيدي مصمم العزم على الإطاحة بنا، وأن كل حججنا قد استهلكناها دون التمكن من إقناعه، قررنا إعادة الفندق لصندوق الإيداع والتدبير مع احتفاظنا بالأصل التجاري **وهكذا كانت قصتنا مع السيد السعيدي الذي سهر كوزير على مغربة شركة " لسمير "النفطية .وأصبح بعد ذلك رئيسا لمجلسها الإداري .**

كاتبنا المالك. وطلبنا منه أخذ فندقه، فأرسل موظفيه وخبرائه، الذين هيأوا مع ممثلينا وخبرائنا محاضر المعاينة. كان السيد القادري الرئيس الجديد للصندوق مصرا على أن يتضمن المحضر اعترافنا بأننا تركنا الفندق مخربا.

رفضنا بالقطع. وكان رأينا هو أن نأخذ كل شيء على حدة من مشمولات الفندق، الثابتة والمنقولة، ونشخص حالته ونشير إلى مدة استغلاله. وبذلك سنصل إلى ما يكون عمره قد انتهى، وما وصل إلى فترة التلف الطبيعية، وما تلف قبل مدته، المهم ألا نسقط في التعميم المضر بكلا الطرفين.

أتينا بخبرائنا في مواجهة خبرائهم. ولكن سيف المنع سلط على كل محاولة توقيع للمحضر بالشكل المنطقي. وفوجئنا يوما بأن طلب القادري قضائيا خبرة معاينة في غيابنا. والتي تمت وحرر على إثرها محضر يقول بأن الفندق بحاجة إلى أكثر من خمسة ملايير سنتيم من الإصلاحات.

خضنا حربا كاملة حتى لا نفقد هذا الفندق الحيوي بالنسبة للمجموعة، وعندما وضعنا سلاحنا كان علينا أن نخوض حربا

أخرى لتنفيذ ما كانوا يطلبونه. فلم يتسلموا الفندق، وبقينا معلقين لمدة سنة.
أصبحنا في وضعية أصعب، إذ كانت مدينة أگادير آنذاك تعيش أزمة سياحية خانقة وكنا مجبرين على أداء أجور العمال. ولما استطاعت الظروف النيل منا ومن صمودنا، سلكنا مسطرة الإغلاق القانونية. وهكذا أخبرنا عامل المدينة، فلم يكن متفقا على الإغلاق واستدعى صندوق الإيداع والتدبير وأقنعه باسترجاع فندقه. وهذا ما وقع.
أغلقوا المؤسسة بعدما تسلموها، واستمروا في أداء خمسين بالمائة من أجور العمال إلى أن باعوها إلى وكالة الأسفار الأجنبية "فرام" بـ48 مليون درهم مع امتياز ملكية الأرض لمدة أربعين سنة قابلة للتجديد، علما بأننا عرضنا على وزارة الخوصصة 125 مليون درهم مقابل التفويت.
ومن جهة أخرى، استطاع السعيدي تجزئة سلسلة الفنادق التابعة للدولة، والتي ترعرعت في أحضان مجموعتنا وعرضها في السوق، فلم يبعها بأكملها. فعمدت إلى فتح الحوار معه من جديد بعد أن التقينا صدفة في إحدى الحفلات العمومية:
-آسي السعيدي، كنت تقول إن المصلحة في نظرك هي في البيع الأحادي للفنادق، فأين هو الحفاظ على الصالح العام والفنادق الموجودة بتالوين وورزازات ومراكش لم تجد مشتريا لها، ألا ترى أن اقتراحي كان أفيد للجميع؟
- هذا رأيك، أما بالنسبة لي فقد نجحت في مهمتي كامل النجاح.
شاءت الأقدار أن لا تكون عقبة السعيدي موجودة في طريقنا مرة واحدة، ولكن أن تتكرر المأساة وأن يحضر وجه هذا الرجل في ملف المحضر المتضمن للتعليمات الملكية.
بعد أسبوع من توقيع المحضر.غادر العلوي المدغري الوزارة

المنتدبة المكلفة بالإقتصاد، وحل محله السيد القباج وكان الخلف كالسلف، رجلا وديعا وخدوما، ولكن كريم العمراني، لسبب أجهله، أحال ملفنا على وزارة الخوصصة وكان على رأسها السيد السعيدي، بمعنى أنه وضع مصير هذه القضية بيد رجل لم يكن ليخفي عداءه لنا. دخلت عنده يوما وشرحت له عمق مشكل قصر المؤتمرات، فقال:

- أنا وزير خوصصة، بمعنى أنني أبيع، ومادمت هنا فلن أساهم ولن أشتري منك شيئا...

- ولكن معالي الوزير نحن نتكلم عن قرار تم أخذه من أعلى هرم الدولة وهو قرار سديد وصائب.

- شوف الله يخليك، مادمت لم أتوصل شخصيا بتعليمات مباشرة ومحددة فلن أقوم بفعل شيء.

ذهبت عند عبد الكريم بناني، وكنت أرى فيه الرجل الفاضل والمواطن الغيور على بلاده، وحكيت له ما جرى مع وزير الخوصصة، فوعدني أن يتصل به. ومرت أسابيع وشهور، وتغيرت حكومة العمراني وبقي السعيدي في مكانه مجمدا لملفنا.

فعدت عند عبد الكريم بناني فقال لي إنه لا يمكن أن يذكر جلالة الملك، لأن جلالته لا ينسى، وهو غير غافل عن هذا الملف.

- وما المعمول إذن وكل الأبواب موصدة؟

بلطفه المعهود، قال لي بناني:

- يعمل الله خير.

في نفس هذا الأسبوع، جاء تعديل حكومي بالسيد بيرديغو وزيرا للسياحة، وفي الأيام الأولى من مباشرته لمهامه، اتصل بي، وقال إن عنده خبرا سريا يهمني. فالتقينا.

- أهنئك موسيو العلمي، فجلالة الملك يشملك بعطفه، لقد التقيته في الگولف وسألني عما فعلناه في ملفك، فقلت له أنا جندي رهن

الإشارة فبماذا تأمرونني؟ فقال لي، أوجدوا حلا للعلمي.
سألته بلهفة:
- وماذا ستفعل الآن؟
- سأستدعيك وأستدعي السعيدي ونجلس لحل المشكل.
قلت، وأنا أخرج من عند اليهودي المغربي بيرديغو، أطال الله عمر هذا الرجل، فلقد استطاع أن يفعل في أسبوع واحد ما عجز عنه آخرون خلال سنوات.
استدعيت في وقت لاحق لهذا اللقاء المرتقب بشوق كبير. لقد دخلت إلى مكتب أصبح مألوفا لدي، حيث استقبلت فيه من طرف عشرات الوزراء المتعاقبين، وما أن رأيت الحاضرين حتى تأكدت أن الملف لن يحل في هذه الجلسة. فبدل أن يستدعي بيرديغو وزير الخوصصة لوحده جاء بموظفين "صغار" بحضور الكاتب العام لوزارة المالية بنمنصور الذي كان يحمل عداء دفينا لمجموعتنا.
جلست. افتتح بيرديغو النقاش. شرح ما قاله جلالة الملك، فتدخل السعيدي:
- لا أستسيغ هذا الكلام، أنت وزير وأنا وزير، ولو كان هذا كلاما صحيحا، لتكلم معي صاحب الجلالة، قال ذلك بعجرفة واستكبار.
- أؤكد لك أن هذه تعليمات جلالة الملك، أعطاني إياها مباشرة، وطلب مني أن أبلغها لك.
- أنا لا آخذ التعليمات إلا من صاحب الجلالة.
تطور الأمر إلى مشاداة كلامية، فحاولت أن أهدئ الأجواء، لكن السيد بنمنصور أوقفني، فقلت إن الأمر يتعلق بتعليمات سيدنا، فقال:
- لا حق لأحد من الخواص أن يتحدث عن سيدنا، فسيدنا لا

علاقة له بهم.
لم أصدق ما سمعته من هذا الموظف. وبعد الصدمة جاء الغضب:
- صاحب الجلالة ملك المغاربة جميعا ولا ينص الدستور المغربي على أن جلالته ملك الموظفين مثلك فقط، وأن المغاربة مستثمرين ومواطنين عاديين لا حق لهم في إثارة اسمه في الاجتماعات العمومية.
أحسست أنني أفحمت بنمنصور، إذ تغير لونه ولم يجب. وقد قرأت في عينيه أنه أقسم ألا يساعد على إخراج هذا الملف من المأزق أبدا.
كان لي عدو، فخرجت من هذا الاجتماع بعدوين، وبعد مدة، تغير بيرديغو وجاء وزير جديد ولم يتغير أي شيء في إطار التناوب غير المجدي.
وكالعادة عندما ينتصر السواد على نافذ الضوء، رجعت عند عبد الكريم بناني الذي بدأ ييأس بدوره ويقول إن كل شيء بيد الله، فاستنجدت بالذكرى. قلت له:
- ألم تزرني قبيل مؤتمر الغات، وقلت لي اطمئن فسيدنا الله ينصره يبلغك بأن مشكلك هو مشكله وسيكون الحل قريبا، وهو يريد منك ردا.
- نعم وبماذا أجبتني؟
- قلت لك أن تمنحني وقتا لأسترجع أنفاسي من هذه المفاجأة السارة، وعندما التقيتك في العشاء قلت لك اعتبر أنني عبئت من جديد لأخدم بلدي عشرين سنة أخرى وراء ملكي المفدى.
- صحيح.
- وما العمل الآن؟
- العمل بيد الله.

كنت في مؤتمر الغات أنتظر ما استعصى حله على الجميع، وهذا الحوار الذي دار بيني وبين عبد الكريم بناني قبل أسبوعين من انطلاق هذه التظاهرة العالمية بقصر المؤتمرات زاد من توسيع دائرة أملي.

اتصل بي الحاج المديوري، وقال لي إنني سأزف لك بشرى وهي أن جلالة الملك قرر زيارة خاصة لقصر المؤتمرات. فرجعت كل الأحاسيس التي أيقظتها في كياني زيارة جلالته قبل سنوات لوارزازات وأرفود، وقلت في نفسي إن الله عوضنا عن ذلك الافتتاح الذي كنا نريد أن يشرفه جلالة الملك، وبدأت مرة أخرى أستعد وأنا في قمة الفرح والرهبة والارتباك.

جاءت مكالمة المديوري صباحا، وكان جلالته سيصل قبيل الغروب، وبدأت من مكتبي أشرف على الاستعدادات لهذا الحدث، دخل علي أحد موظفي وزارة الداخلية يدعي العماري أظن، وكان وسيما ووديعا، وسألني بشكل تلقائي عن الجديد، فأجبته بكل براءة بأن الله سبحانه وتعالى سيهبنا أحسن هبة في حياة هذا المركب وأن جلالة الملك سيزورنا.

لم تكن زيارة صاحب الجلالة بالأمر العادي بالنسبة لي، بل كانت بمثابة الحدث الذي لا يجب أن يمر مرورا عابرا، وعندما أخبرت موظف الداخلية، كنت أتحدث مع أحد العاملين في أسلاك الدولة، ولابد أنه كان على علم بما يجري ولم يخطر ببالي أنني بذلك كنت أفشي بسر لا علم مسبقا للرجل به.

من سوء الحظ أنني كنت أساهم في صنع قدر أغلقت فيه آخر الأبواب التي كانت ستفضي بنا إلى باحة الحل، فقد تبين أن جلالة الملك لم يخبر بزيارته الشخصية هاته إلا أمنه الخاص، وعندما أخبرت موظف الداخلية عن حسن نية، سارع إلى إخبار رئيسه وزير الداخلية إدريس البصري، وعندما وصل جلالة

الملك إلى مدخل قصر المؤتمرات وجد إدريس البصري واقفا في انتظاره، استغرب الأمر وسأل الوزير عمن أخبره، فأجاب البصري بأن الأمر ليس سرا وأن الكل على علم به وأنه متداول حتى في قاعة الصحفيين بفندق أطلس آسني وكان البصري بذلك ماكرا.

اغتاظ جلالته، وكنت أحمل هاتفا نقالا عندما رأيته، فرميته أرضا، وهرعت نحوه، فيما تجمد كل من كان ببهو قصر المؤتمرات بفعل المفاجأة. قبلت يده الكريمة وسرت وراءه.

قدمت لجلالته زوجتي، فسألني عمن تكون، فقلت له. فرفع عينيه، ونظر إلي نظرة استغراب، فتداركت وقلت إنها زوجتي الثانية، فقد كنت قد قدمت لجلالته بوارزازات زوجتي الأولى.

وصلنا إلى قاعة الوزراء، وكان اسمها Salle des visirs.

- ما هذه التسمية؟ فكلمة visir لم تعد متداولة منذ كتابات ڤولتير.

- أستسمح نعم سيدي.

- لماذا لم تسميها Salle des ministres؟

طلبت من مساعدي رشيد العلوي، مدير قصر المؤتمرات آنذاك، أن يغير الاسم، وهو ما تم بسرعة بفضل الحواسيب، وعلقنا الاسم الجديد قبل أن يغادرنا الملك.

وصلنا إلى القاعة التي كان ولي العهد سيفتتح فيها المؤتمر صباح الغد، وكانت قوارير ماء الكريستال فوق المنصة.

سأل جلالته:

- ما هذا؟

- سيناريو فقط نعم آسيدي.

- كيف؟ تضعون الماء يوما قبل المؤتمر؟

طلبت بسرعة أن تسحب القوارير، ورجعت أجر الإحباط وراء جلالته، وكنت أحس أنه غير مرتاح، لأن مزاجه تعكر قبل أن

تطأ قدماه قصر المؤتمرات، وها أنا أجني أكبر خيبة بسبب فعل بسيط.
آه، لو كنت أعرف أن خبرا من كلمات معدودة قادر على تحطيم آمال بسعة البحر، لما تكلمت. ولكن الحسرة لا تصلح ما لم يكن قابلا للإصلاح بعدها.
صحيح أن جلالة الملك قال لي كلمات طيبة وأنا أصل معه إلى سيارته، ولكنها لم تكن لتجبر ما انكسر، فقد أخطأت موعدي مع التاريخ.
انتقل جلالة الملك إلى فندق أطلس أسني، وعند المدخل رأى المضيفات المغربيات وقد لبسن تنورات قصيرة جدا، فطلب غاضبا من مرافقيه أن يحضروني، إلا أنهم نبهوه بأن أطلس آسني ليس فندقا من فنادقي وأنه في ملكية الخطوط الملكية المغربية، فجاؤوه بمديره:
- هل تسمح لبنات من عائلتك أن تلبسن هكذا وتستقبلن الناس؟ غير هذه الثياب وليلبسن اللباس التقليدي.
لم أكن أريد أن أحكي آنذاك لعبد الكريم بناني هذه القصة التي احتفظت بها لنفسي علما بأن الخبر سيصله بصفة أو بأخرى، ولكن أملي كان هو أن لحظة غضب عابرة لابد وأن تفسح المجال للحظات مخالفة.
كنت خلال هذه السنوات، أقوم بمحاولات في اتجاهات أخرى، كالغريق تماما، لا يهمه بماذا سيتشبث، إذ أن المهم عنده هو المحاولة لهزم الموت.
كان أحد مساعدي يعرف كاتبة المستشار أحمد رضا اگديرة، فرتبت لنا موعدا معه. قصدناه لأنه كان رجلا وازنا، ومن المستشارين المسموعي الكلمة، استقبلنا استقبالا دافئا، بسطنا أمامه مشكلتنا باقتضاب، أطلعناه على المحضر المعلوم، فوعدنا

خيرا، وخلال هذا اللقاء، طلبنا منه شيئا لم نطلبه من غيره: فلقد شرحنا له بأن مركبنا يعيش مشاكل مالية صعبة ويمكن لمداخيل إضافية أن تخفف من حدتها، وكان طلبنا هو رخصة لفتح كازينو داخل فندق المنصور الذهبي، رغم أنني كنت، وفي الواقع لازلت، ضد أي مشروع سياحي للقمار فيه نصيب ولا أرى اليوم تعليلا لموقفي هذا سوى اليأس الكبير الذي كنت أشعر به آنذاك.

زرنا اگديرة أكثر من مرة، وكان محيطه، وخصوصا السيد عمر القباج، صاحب شركة الخمور بورشنان، الذي أصبح من كبار الفندقيين، ينصحنا بأن لا نطيل في اجتماعنا معه، وأن نركز على نقطة واحدة، فالمستشار الكريم متقدم في السن، ولا يمكن أن يتحمل أكثر من هذا، لهذا السبب لم نكن نتجاوز في اجتماعاتنا معه الثلاثة دقائق.

مرت ثلاث سنوات دون أن نحصل على شيء، وجاء بعدنا "الكلوب ميديتراني" وحصل على رخصة الكازينو لفندق استأجره، وحصل الخليجي صاحب الشيراطون على رخص في أكثر من مدينة. إنه الكيل بمكيالين.

وددت لو لم تكن مثل هذه الأخبار تصل إلي، وهي التي لا تغيظ فقط ولكن توصل المرء إلى حدود الانفجار، إلا أن صاحب مجموعة سياحية لها مشاكل لابد وأن يتابع ما يجري في القطاع وإن اغتاظ أو انفجر. إن المتابعة شر لابد منه، خصوصا وأنني كنت صحفيا كذلك.

وصلني يوما بمكتب "ماغريب مغازين" ملف ريستينكا سمير الذي باعه لمفضل لحلو لفرعون. وفرعون هذا إسم على مسمى، سعودي من جنسية أمريكية، وصل إلى المغرب في طائرة بوينغ، فانبهر به مستقبله وزير السياحة آنذاك عز الدين جسوس

وأحاطه بعناية خاصة، وقدمه لكبار المسؤولين.
تمكن فرعون من الحصول على أرض مساحتها أربعة وستون هكتارا من صندوق الإيداع والتدبير بثمانية وثلاثين درهما للمتر، ووقع عقدة مصحوبة بدفتر التحملات صارت بنودها تتغير إلى أن وصلت إلى ما لا يصدق.
نص العقد بداية على أن يبني فرعون فنادق وڤيلات وشقق وكازينو وتساعده الدولة ببناء مارينا وتجهز الأرض بالماء والكهرباء، لأنه سيستثمر مبالغ ضخمة ويبيع أغلب الشقق والڤيلات للأجانب.
كان هذا وهما، ولم يظهر للأجانب أثر، ولم يساءل فرعون عما ادعى أنه صرفه من أجل الإشهار للمشروع في الخارج، ووصل دفتر التحملات إلى درجة أن صندوق الإيداع والتدبير رفع يده عن الأرض السياحية، ليشرع فرعون وشركاؤه المغاربة ببيعها مباشرة في إطار ثمن السوق.
بيعت الأرض بالمتر المربع، واختفى فرعون بعدما وصلت أخبار نصبه من بلدان أخرى، وبقي شركاؤه الذين كانوا يسيرون فندق حياة ريجنسي بالدار البيضاء، وحصلوا على التفويت لصالحهم بعد ذلك بخمسة وعشرين مليار سنتيم فقط من عبد الرحمن السعيدي، وبدأوا يسيرون فندق هيلتون بالرباط كما أصبحوا يملكون فندق ريستينكا بالشمال.
هكذا كانت تفتح الأبواب على مصراعيها لجهة وتغلق بأقفال ثقيلة في جهتنا. تراكم عندنا هذا الإحساس، وظللنا نصارع الأشباح.
اتفقت مع صحفي متميز كان له برنامج اقتصادي بالتلفزة المغربية يدعى "مشاريع"، وقد خصصنا حلقة برمتها لقصر المؤتمرات الذي نظم وصور بداخله البرنامج وبسطت مشاكله

لأول مرة من خلال التلفزة المغربية، ولم أكن أريد أن أبدو كمن يدافع عن استثمار يخصه، بل استدعيت خبراء من الخارج، منهم من كان معنا في الأستوديو، ومنهم من تدخل عن طريق الأقمار الاصطناعية، وأكد الجميع أن قصور المؤتمرات لا يبنيها الخواص، وأن مبادرة دنيا أوطيل في المغرب يجب أن تنال المساعدة الكافية وأن تشمل برعاية خاصة.

لكننا كنا مرة أخرى نصب الماء في الرمل، ورغم ذلك نظمت مؤتمرا اقتصاديا مغاربيا بقصر المؤتمرات أسميناه الملتقى الأول للمقاولات المغاربية حضره سبعمائة مقاول مغاربي إضافة إلى أساتذة وباحثين مرموقين.

طرحنا مرة أخرى إشكالية النمو، وبينا أن طريق النمور الآسيوية هي الحل الوحيد، فنسبة اثنين إلى ثلاثة بالمائة من النمو السنوي لن تزيد إلا في الفوارق وتكرس التنافر الطبقي، ولا مفر من نسبة عشرة بالمائة فما فوق للإقلاع.

لم يفلت هذا المؤتمر بدوره من دائرة المفاجآت، فقد وصلتني أخبار من جهات أمنية بأن الوفد الجزائري كان به متسللون من الأمن العسكري، وأنه في هذا اللقاء اختير موقع الضربة التي عرفت فيما بعد بحادثة أطلس آسني التي هاجم فيها مسلحون الفندق المقابل لقصر المؤتمرات.

وكانت القاعدة الصلبة التي عرفتها هذه السنوات هي رفض لمفضل لحلو المبدئي والرفض الميداني لعبد الرحمن السعيدي الذي امتلك فيما بعد جزءا من رأسمال أسبوعية ليكونوميست وحاول النيل منا أكثر من مرة من خلال هذا المنبر، وكذا رفض وزارة المالية من خلال بنمنصور الذي أصبح سكرتير دولة قبل أن يصبح خازنا عاما. والغريب أن كل وزراء المالية المتعاقبين كانوا تحت تأثير بنمنصور، حيث تبنوا موقفه العدائي تجاه

مجموعتنا، والغريب أيضا أن لا أحد منهم طالب بنمنصور يوما بتعليل موقفه ومساءلته عن أسباب مساعدة مستثمر في الصيد البحري بعشرات الملايير وحرمان صاحب قصر المؤتمرات من اجتماع لدراسة مبدئية تفتح مجال النقاش والحوار معه.
وحملت زوجتي غزلان بريم، ولم أكن أتخيل ما يحمله هذا الحدث من أثر نفسي، إذ لم يكن الفرح هو الشعور الوحيد الذي كان يخالجني طيلة سنة 1994، بل كنت أحس بشيء أعرفه منذ البداية ولم يغادرني حتى في أصعب مراحل حياتي، وهو الثقة بالنفس. وانتظرنا مجيئها بشوق كبير واعتبرناه مساهمة للقدر في التخفيف من معاناتنا، وزادا بعثه الله لمواجهة مستقبل أخذت تبدو معالمه وهي مختلفة كل الاختلاف عما ألفته وعودتني عليه الحياة.
وأتت ريم بعد صلاة عصر يوم الإثنين 13 فبراير 1995 في عيادة الأستاذ يوسف بوطالب صاحب أول مؤتمر نظم بقصر المؤتمرات، فأعادت إلى القلب شبابه.
ولم تمر إلا شهور قليلة على ولادتها حتى أصبحت المحور الأساسي الذي تدور حوله حياة العائلة بأكملها.

زمن القتلة

ستكشف لك الأيام مرة أن القتلة ليسوا هم المجرمين الذين يستأجرون بعقود مالية مقابل تصفية أشخاص غير مرغوب فيهم من طرف زبناء لهم. ليسوا بالضرورة من أصل إيطالي ولا أمريكي لاتيني. ستظهر لك الأيام مرة وبكل بساطة أن هؤلاء القتلة هم من أبناء جلدتك ووطنك ويحسبون خطأ على نخبة بلدك وهم القتلة الحقيقيون.

إعادة جدولة الديون؟ لا يمكن مجرد تصورها، لم يكتفوا بالتنكر لتعليمات ملكية، ولا أن يعرقلوا الدخول في مقاولة لإعادتها إلى سكة النمو، لم يكن مطلوبا منهم أن يقدموا هبات أو صدقات، ورغم هذا تركوا سفينة قصر المؤتمرات وحدها تصارع أمواجا عاتية، واليوم يفكرون في إعادة الجدولة، إنه العبث، وهذا العبث لم أكن أتصور أن أقبل مجرد مناقشته كمبدأ.

- ألو السي كريم

- نعم أبي.

- أريد أن أخبرك قبل أن يأتيك الخبر من جهة أخرى بأننا ربما وصلنا إلى الباب المسدود.

- كيف ذلك؟

- بكل اختصار لم نكن نفهم اللعبة منذ البداية...

- لم أنجح في إقناع أحد بتنفيذ تعليمات محضر 1993، وهناك من يود أن يوعز لي بأن القضية سياسية وأن الوعود كانت دائما مجرد وعود...

- هذا مستحيل. جلالة الملك يعرفك ويعرف تفانيك في خدمة المغرب والعرش.

- أنا لم أتكلم عن جلالته، فهو يحب المغرب أكثر مما نحبه نحن ولا يريد له إلا الأفضل وهو سيد قراراته.

- إذن؟

- إذن الوزراء والموظفون... ولهم من السلطة الميدانية ما يكفي للقضاء علينا.

كنت أعتقد أن منهجية المعاملة مع القرض العقاري والسياحي سليمة، وأنه سيتعامل مع دنيا أوطيل معاملة بنكية عادية كما تتعامل الأبناك التجارية مع أي زبون من حجمنا. صحيح أن ديون المجموعة تراكمت فوائدها، كما حل بمستثمري القطاع برمتهم، ولكننا كنا نملك أصولا تجارية وعقارية كبيرة تفوق هاته الديون.

كان المدير العام للقرض عثمان السليماني قد نظم مناظرة حول مأزق السياحة المغربية، فكانت الخلاصة واحدة. يقول السليماني نفسه: "وصلت إلى قناعة هي استحالة أن تدر السياحة اليوم أرباحا، لأن تكلفة البناء ارتفعت وكذا التجهيز، فيما تراجعت تعريفات بيع المنتوج الفندقي وتقهقرت نسبة التشغيل".

كان هذا التحليل بالنسبة لنا هو عين الصواب، بل كنا نضيف عليه توابل من الواقع الميداني لكي تظهر لوحتنا أكثر سوداوية. كان المناخ العام الذي نعمل فيه غير ملائم، وكانت تدخلات الدولة خجولة والميزانية المرصودة لترويج المنتوج السياحي بالخارج لا تعتبر، أما الوزراء، فلم يكن لهم تأثير على الأحداث!

عرفت وزراء سياحة في بلدان من مستوانا كتونس يشتغلون كرؤساء شركات تجارية بمنطق تجاري محض هدفه المردودية الصرفة، فتجد الوزير يتحرك في هذا البلد أو ذاك وهو يشيد بمنتوج بلده السياحي ويعمل على إنعاشه والتعريف به ميدانيا مستعملا في ذلك معرفته بخبايا الماركوتينغ والدعاية. أما وزيرنا، فإنه يتصرف كرئيس تسلسلي لموظفي إدارته. وهكذا كانت السياحة التونسية حقيقة وواقعا ملموسا وكانت السياحة المغربية مشروعا فقط.

وليت هذا الخلل الإداري ينحصر هنا، بل إن أبسط شروط

الديمقراطية القطاعية الملتصقة جدا بالتنمية لم تكن متوفرة حيث لم نكن نملك مجلسا وطنيا للسياحة كإطار للمحاسبة والشفافية.
كل هذه الأفكار، وتفاصيلها، ناقشناها في الفيدرالية الوطنية للصناعة السياحية وفي الجمعيات الجهوية في مختلف الأقاليم، واستحضر الاجتماعات المارطونية التي أخذنا المبادرة لتهيئتها وعقدنا منذ يوليوز 1991 مع وزراء السياحة ومساعديهم، وكم لجنة تحقيق وتتبع وتقصي الحقائق ودراسة الأوضاع والتخطيط للمستقبل انبثقت من هذه الاجتماعات.
وجاءت سنة 1992، وأتى الوزير التقنوقراطي حسن أبو أيوب بأسلوب جديد ومنهج "علمي" أراد من ورائهما الوصول إلى كشف حقيقي للحالة التي توجد عليها السياحة المغربية، وكان يحب أن يردد "سمعتكم سيئة في الأوساط الحكومية حيث تتهمون بالسرقة وتهريب الأموال والعبث في حساباتكم وفقدانكم للجدية والمصداقية...".
- وما العمل أيها الوزير المحترم؟ والحالة أنه لا علاقة لنا بالأشخاص الذين تنعتهم بذلك...
- فتح ملفاتكم وحساباتكم.
وهكذا قضينا مع أبي أيوب شهر رمضان بأكمله نتدارس أرقام حساباتنا التي عهدنا بها إلى لجنة تنسيق أشرف عليها الوزير السابق والتقنوقراطي المتميز عبد اللطيف الغساسي والذي كان يترأس شركة سياحية دولية ذات إمكانات مالية تقيها شر القرض السياحي... وهكذا مرت سنة 1992 و1993 من اجتماع لجنة التنسيق إلى اجتماع مع المسؤولين على الضرائب والنقل الجوي والدعاية في الخارج وتأطير المواطنين. وقضينا شهر رمضان الثاني بأكمله في البحث والتنقيب عن أسباب ركود السياحة وتقاعسها.

يا إلهي لو كانت هذه الجهود قد رصدت لغايات أخرى لأنتجت العجائب!

وسألت يوما ما أحد الوزراء السابقين فنصحني بالابتعاد عن قطاع السياحة ابتعادا كليا، لأن بلادنا لم تستطع أن توليه العناية الكافية، وأن الإصلاحات إذا لم تؤخذ في وقتها فلا أمل في شق الطريق وتحقيق المتمنيات، وأن هذا القطاع متقلب ولا يجب الاطمئنان إليه.

وأخيرا جمعنا الخلاصات، فقررنا الاتصال بالوزير الأول عبد اللطيف الفيلالي.

كان معنا في وفد الفيدرالية وفي أول اجتماع مع الفيلالي عضو على دراية في أسلوب الديبلوماسية والمدح. وقد أمطر الوزير الأول بالثناء والإطراء، وقد لاحظت أن هذا المدخل جعل وزيرنا الأول مستعدا لحسن الإصغاء، فقلنا ما بجعبتنا، وانتظرنا رد الفعل:

- هذا شيء غير معقول، إنكم تعيشون في مصيبة ولا أعرف كيف تصمدون لحد الآن في هذا القطاع!

لم يكن جلنا يعرف السيد عبد اللطيف الفيلالي عن قرب، فكان هذا اللقاء بمثابة لقاء تعرف ودي وحميمي دام ساعتين تقريبا وخرجنا منه متفائلين.

بعد الاجتماع الثالث مع الفيلالي، وكان تتويجا لسنتين كاملتين من العمل الجمعوي المكثف وعشرات المذكرات المليئة بالحجج وبالحصيلات الحسابية التي تفند ما روج له خصومنا من أن الفندقيين ليسوا نزهاء تقررت مساعدة لقطاعنا بلغت ثمانمائة مليون درهم، تسلمها القرض العقاري والسياحي من الخزينة، حسب ما وصلنا من أخبار، وبدأت عملية التوزيع.

لم يكن التوزيع طبعا مباشرا عن طريق تسليمنا مبالغ مالية، لقد

كنا مدينين للقرض العقاري والسياحي الذي قرر المفاوضة مع كل زبون له قصد منحه تقليصا خاصا بالفوائد المطبقة عليه ولم نحصل إلا على تخفيض بسيط أدرج في الحسابات بعد ثلاث سنوات من بداية الأزمة، كنت في قرارة نفسي أعتبره حبة أسبرين أعطاها الطبيب لمريض بالسرطان!

كان القرض يخصم لهذه المجموعة السياحية ثلاثة بالمائة مثلا ولتلك اثنين بالمائة وهكذا دواليك. لم تكن مقاييس التوزيع واضحة بالنسبة لنا، ولم تكن دقيقة موضوعيا، أما مقابلها الذي كان هو إعادة الجدولة، فقد كان بالنسبة لدنيا أوطيل شيئا مجحفا وبالتالي لا يمكن قبوله مبدئيا.

استدعاني عثمان السليماني، وجدت معه عبد اللطيف الغيساسي قال لي فيما يشبه الرجاء:

- الله يخليك أنت آخر من رفض إعادة الجدولة، والآن سلمني هذه الجدولة بأي وجه كان.

أجبته بحزم:

- لا، لست أنا آخر من رفض، وأنتم لم تتفقوا على الجدولة إلا مع خمسة أو ستة أشخاص.

- ولكنك تقف حجرة عثرة في طريقنا نظرا لوزنك!

- أنا أنتظر تطبيق تعليمات ملكية سامية مثبتة في محضر رسمي، وإذا قبلت إعادة الجدولة، فسيكون هذا توقيعا على استسلامي وسأقرأ السلام على التعليمات والمحضر والأمل.

الحبل بيننا ظل مشدودا لمدة شهور، وقد قلبنا الموضوع من جميع الجوانب، وأي جانب لم يجعل رفضي المبدئي يقترب من رغبة السليماني في حل هو من صميم عمله كمسؤول عن مؤسسة مقرضة، ولكن المستحيل أحيانا يصبح ممكنا، والوصفة السحرية كانت عبارة عن صفقة رتبها معي السليماني بحضور

عبد اللطيف الغيساسي.
- قل في السوق إنك قبلت إعادة الجدولة، وسلمني ملفك وسأودعه عند السي الغيساسي، كأمانة ولن أستعمله إلا بموافقتك. وكان هذا اقتراحا فيه ما يرضيني.
طبقنا هذا، وتبين أن هم السليماني الأول هو التحايل على الآخرين، وقد استطاع بهذا الاتفاق معي أن يقنع السوق بالانخراط في العملية.
كنت قد تركت الجدولة الوهمية في القرض العقاري والسياحي وعدت إلى "حروبي" مع الحكومة والإدارة..
- آسي العلمي، إنني واثق أن لا أحد سيعينك فأرجوك كن واقعيا، وعليك أن تنكب على المعقول وتنخرط في الجدولة.
وجدني الزاهدي الذي خلف السليماني منهك القوى، حاربت بما فيه الكفاية، وخطوط التماس هي هي، لا تتحرك. وككل فاقد لطعم المواجهة بسبب التخمة، قلت للزاهدي: ولا الضالين... ووكلت محاميا جديدا لم يكن في المجموعة هو ذ. الأندلسي وكلفته بهذه المهمة الجديدة وحضر معي بانتظام جميع المفاوضات.
كنت أرفض رفضا قاطعا الجدولة كما يقترحها القرض العقاري والسياحي وكانت نقطة الخلاف بيننا تدور حول تراكم فوائد الديون، وقد أصبحت هذه الفوائد أكبر من أصل الدين، والجدولة المقترحة على الجميع كانت هي الأخذ بعين الاعتبار جميع الديون وتراكمات الفوائد، وتقسيمها على مدة جديدة مع خصم نقطتين مثلا. لم يكن هذا كافيا لحل المشكل. علما بأن الجدولة بنيت على تقدير نسبة نمو سنوية تصل إلى 13,5% وهذا مستحيل.
المهم كانت الصورة تبدو مقنعة: يخصم القرض العقاري لدينا نقطتين على أساس ما قررته الدولة من دعم ويخولك 19 سنة

كمدة للأداء بدل 12 سنة. ولكن هذا السيناريو لا يصل إلى عمق المشكل والحل الحقيقي يكمن فحسب في بناء جدولة حقيقية وموضوعية مبنية على تصميم دقيق وواقعي لمركب قصر المؤتمرات وإلا وجب اللجوء إلى فتح رأس ماله لشركاء جدد.

كان القرض العقاري والسياحي يريد استرداد ديون خيالية، وكنا نريد أن نؤدي كل ما علينا من التزامات مالية ثابتة، وبقينا شهرا كاملا في ماراطون، أتأسف أنه خرج أحيانا عن حدود اللباقة والأخلاق.

لا يمكن أن أنسى في هذا الملف المرأة الحديدية، مدام الزراري رئيسة مصلحة القروض بالبنك، وقد واكبت عن قرب كل عمليات اقتراضنا من بنكها. كانت تقوم بعملها العادي والذي كانت تتقاضى أجرا كافيا عليه، وكانت تطلب منا مقابل ذلك أن نأخذ زوجها كوسيط لملفاتنا التأمينية، وكنا نستجيب لسبب رئيسي وهو أن زوجها كانت له نفس الأثمنة المتداولة في السوق، ولم نكن نخسر شيئا، ولكن كنا نتقي شر هذه المرأة، وفي أول احتكاك تقني فاجأتنا.

في مكتب مولاي الزاهدي بالطابق 15، كنا في اجتماع لمناقشة هيكلة الجدولة، واحتد النقاش حول نسبة النمو التي يمكن أن تحتسب على أساسها هذه الجدولة بيني وبين المرأة الحديدية:

قلت للزاهدي:

- هذا شيء غير واضح، لأن الكلام الذي أقوله لموظفيك لا يبلغ لك كرئيس للمؤسسة، وهذه السيدة...

- مساعدتي- أجاب الزاهدي مقاطعا-

- مساعدتك تقول كلاما من الأفضل الفصل فيه. وهي ليست على صواب.

ردت الزراري بانفعال:

- أنا على صواب.
- أجبت:
- لا، وعلى كل حال لنراجع الحسابات.
انتفض الزاهدي:
- لا أسمح لك أن تقول مثل هذا الكلام في حق مساعدتي، ونحن الآن في الطابق 15، وتعرف ماذا يمكن أن يقع لمن يسقط منه.
وصلنا إلى التهديد بالقتل، ابتسمت وأنا أشفق على هذا البنك وقد كان من كبار الأبناك احتراما للزبناء حين كنت متصرفا به في السبعينيات.
اعتبرت أن هيبة ووقار هذه المؤسسة ماض ولى، وقلت للزاهدي وأنا أنظر إليه نظرة حسرة:
- لا أفهم كيف يصبح القرض العقاري والسياحي كواحد من كبار الأبناك قاتلا لزبنائه، وعلى أية حالة، ليست بيننا إلا قروض وحسابات وأرقام.
جاءت الزراري بآلة حاسبة، وتأكدت أن نسبتي هي الأصح، ولم تتقبل هذا كما لم يتقبله رئيسها.
من حينها والعلمي بالنسبة للزراري عدو يجب أن يحارب، وكانت تنتظر بالساعة موعد أدائها للقسط كي تمطرنا برسائل المطالبة بالأداء مرفقة بتهديدات صريحة، ولنا أرشيف كامل من رسائل هذه المرأة الحديدية.
استمرت المفاوضات شهرا كاملا، عاود فيها الزاهدي تهديداته. وللتذكير، فقد كان المغرب يعيش آنذاك مرحلة حملة التطهير.
- هذا ليس وقت رفض، فبإمكانهم أن يتابعوا الإنسان، و"يتكرفسو" عليه، وعاد يبان أنهم ظلموه. "نصحني" السيد الزاهدي يوما ما بهلجة غير معهودة.
ورغم أن هذا المناخ كان مرعبا، ولم يكن يسمح لنا بالدفاع عما

كنا نعتقده حقا مشروعا لنا للوصول إلى حل عادل قابل للتنفيذ، وكان يجعلنا حلقة ضعيفة في النقاش، فقد اهتدينا إلى باب صغير بدا لنا بمثابة ضرر أقل. كنا غير متفقين على أصل الدين أوما تبقى منه، ولا على طريقة تسجيل الحسابات وضبطها، وكم طالبنا بالقيام بكشف دقيق تتولاه شركة دولية مختصة فلم نفلح إلا في إدماج فقرة قصيرة داخل اتفاق الجدولة ترمي إلى حماية الطرفين من الغلط والنسيان.

اقترحنا على القرض العقاري والسياحي نظاما مكونا من ثلاث سلات. سلة أولى نضع فيها ما تبقى من أصل الدين ويؤدى بطريقة عادية وتكون له الأسبقية، وسلة ثانية عبارة عن حساب جار نضع فيها فائض السلة الأولى حتى يخدم فوائد الدين التي وصلت إلى 31 مليار سنتيم، أما السلة الثالثة فتشتمل على كمبيالتين قيمة الواحدة منهما 25 مليون درهم، أؤديها وتخصم من الدين الإجمالي.

وإذا وصل عجز السنة الثالثة إلى 36 مليار سنتيم، فسنجلس ثانية للتفاوض حول جدولة جديدة في إطار 19 سنة المتفق عليها.

في يونيو 1996، وقعنا هذا العقد على مضض، واشترطنا عليهم أن يشير العقد إلى أن سريان فعله لن يتم إلا بعد أن تتم كتابة المحضر. وكنا بالطبع عازمين على الوفاء بالأداء مهما كانت الظروف.

كنا في شهر يونيو، وكان علينا أن نؤدي قسط 1996 بأكمله.

بدأنا نبحث عن السيولة، وخلال ستة أشهر استطعنا بصعوبة كبيرة أن نجمع 60 مليون درهم، وكان المبلغ هو أقصى ما تم جمعه، لذلك تمكنا من جمع المبلغ المطلوب منا وهو 120 مليون درهم بتفويت فندق الأمويين إلى القرض العقاري والسياحي والذي كنا نملكه في أكادير، وتأثرنا كثيرا جماعات وأفراد في

شركة دنيا أوطيل بالتنازل عن هذا الفندق للبنك، وكان شعورنا شعور أب يتنازل عن أحد أبنائه، ولم يكف كل هذا، إذ كان علينا أن نتنازل للبنك التجاري المغربي عن فندق لاسيبيندا، وهو موجود كذلك بأكادير، وذلك لأداء فاتورة تقدر بـ35 مليون درهم. غير أن تسديد هذا المبلغ من الديون المثقلة بفوائد غير معقولة لم يحجب عنا المخاطر وفتحت أمامنا احتمالات البحث عن شريك أو التفكير في الخروج من الساحة.

نزلت عند رغبة زوجتي للسفر، خصوصا وأننا لم نسافر منذ زواجنا، وفضلت أن أترك المواجهات القاسية إلى حين. ذهبنا في غشت وبمعيتنا ريم لكندا التي لم أزرها إلا مرة واحدة في حياتي، وتوجهنا مباشرة إلى الكيبيك حيث نزلنا بفندق أمام النهر الكبير "سان لوران" والذي يبدو كأنه بحر بكل تدفقه. كان الطقس حارا وجميلا وكان هناك كورنيش رائع على ضفاف النهر، كان كمعرض صغير فيه العازفون والباعة والألعاب والكتب...
وبمجرد وصولنا، نزلنا إلى هذا الكورنيش، وكانت هناك دكاكين متعددة، وقفنا عند بائعة كتب من أصل استكندناڤي، ولا نعرف لماذا لم نقف إلا عند هذه المرأة، وكأن شيئا باطنيا دفعنا إليها دفعا، وأول كتاب أثار انتباهي هو جزء من سلسلة لمؤلف يسمى عمران ميخائيل إيفانوف، حدثتني عنه البائعة، فأخذت كتابا واحدا ما أن قرأته في الليل، حتى عدت لأشتري كل السلسلة.
ولقد أحسست بأن هذا التعرف على كتب إيفانوف إشارة من السماء وسند قوي، فإفانوف يحذر من السعي وراء الجاه والمال، فكلاهما زائل وفان، ويحث على السعي وراء الاستقرار الداخلي وسعادة الروح برفعها إلى مستوى يحميها من كل شيء

دنيء وخسيس، ورغم أن كل هذا ليس بجديد علي، إلا أن طريقة إفانوف الذي لم يكتب أبدا أي كتاب، بل اقتصر على إعطاء محاضرات عدة سجلت في عشرات المجلدات والكتب، كانت ممتعة أعادت إلى الذهن في وقت حساس جدا مبادئ الإسلام الحنيف المتعلقة بالتحلي بالصبر أمام الشدائد.

كنت في مكتبي بمركب قصر المؤتمرات أبحث عن مخرج يصون الكرامة ويجبر الخواطر ويقي دنيا أوطيل شر الأعداء واللوبيات، وحينها رن الهاتف، قالت الكاتبة إن جون روبير ريزنيك يتصل بك من خارج الوطن.

- آلو. من معي؟

- جون روبير ريزنيك، ألا تتذكرني السيد الرئيس، أنا أعرفك منذ كنت تعمل مع عبد الكامل الرغاي وأنتما تمثلان صندوق الإيداع والتدبير، وكنا مستأجرين منكم "النادي المتوسطي" بريستينگا سمير والحسيمة... والتقينا أكثر من مرة.

- نعم تذكرتك، كنت من المنشطين أليس كذلك؟

- كنت مؤخرا مديرا لوكالة السفر "جيت تور" كما تعلم، وانفصلت عنها بعدما أخذت تعويضاتي، وربما سمعت أنني لم أتفاهم مع مسؤول "النادي المتوسطي" تريگانو وغادرته كذلك، واليوم أنا أعمل مع أكبر شركة أوربية للفنادق وهي أكور، وأنت تعلم أن أكور هي التي اشترت الإسم التجاري "پولمان" من مالكته القديمة، وقد سمعت أن لك مشكلا مع هذا الإسم الذي تحمله مجموعتك، فاعتبر هذه المسألة قد حلت.

- شكرا روبير، متى ستحل بيننا؟

- سأقضي الليلة في الطائرة، وأكون عندك غدا.

وصل ريزنيك بالفعل يوم الغد بالذات، فأطلعته على ملف فنادق المجموعة، فأخبرني أن له مساعدا مغربيا يدعى فؤاد الشرايبي،

وكنت أعرف مساره منذ أن كان إطارا بالقرض العقاري والسياحي.
رحبت بالرجل، وبدأنا رحلة الخيال مع مجموعة أكور الفرنسية.
كنت اعرف أن هذه الشركة قوية جدا ولها لوبيات نافذة في جميع رحاب العالم، في أوربا وفي أمريكا، وهي الآن تود أن تلج السوق المغاربية. كنت واثقا أن النجاح لا يمكن أن يكون إلا مع الشركات الكبرى، وكانت أكور منها، كما أن ريزنيك كان رجلا مناسبا كمفاوض بفضل خبرته وتفتحه وهذا ما كنت على كل حال أظنه في حينه.
كانت المفاوضات تجري في أجواء حبية وصلت إلى حد الصداقة، وأصبحت منازلنا مفتوحة لبعضنا البعض، وكنا نتسامر كثيرا، ونهيئ الملفات ونفحص الأرقام، وخرجنا بخلاصة مفادها أن أكور يمكن أن تكون شريكا لدنيا أوطيل، وهيأنا عقدا وقعته مع ريزنيك واتفاقية أخرى وقعتها مع الشرايبي، والوثيقتان تنصان على خلق شركة جديدة نضع فيها نحن جميع ممتلكاتنا وتدخلها أكور بما يناهز 30 مليار سنتيم.
نصت الاتفاقية الأولى على أن يكون لكل واحد منا 50% في التسيير، ولكنهم تراجعوا، وقالوا نحن نقبل 50% في الملكية ولكن نريد 51% في التسيير، ووافقت على ذلك. لكنهم عادوا مرة أخرى ليقولوا إننا لا نريد شراكة ولكن نريد كل شيء، نريد أن نشتري دنيا أوطيل بأكملها.
كنت في هذا الوقت دائم الاتصال بالمستشار أندريه أزولاي، وكنت أعرفه قبل أن يعين كمستشار، التقيته سنة 1990 بالصخيرات، وكنت هيأت مشروعا نويت إطلاع صاحب الجلالة عليه وهو يتعلق بمذكرة تحاول معالجة تحسين صورة المغرب في الخارج كنوع من إقامة مشروع للعلاقات العامة

خارج المملكة على مستوى الدولة، وكنت أعتقد وأقول إننا مملكة ذات ماض عريق وحضارة متمكنة ولا تملك ما يكفي من استراتيجيات العمل الميداني خارج، فكان أن هيأت المشروع بمساعدة كوليت عمران، وكانت خبيرة في علم التواصل والدعاية والإشهار وتطلب منا هذا العمل أكثر من ثلاثة أشهر، ولقد علمت أنه في نفس الوقت الذي قدمنا فيه اقتراحنا إلى جلالة الملك عن طريق الحاج المديوري، طلب من السيد أزولاي أن يهيئ مشروعا مماثلا. ومن مكر المصادفات أن السيد أزولاي أطلعني على مشروعه قبل أن يقدمه بدوره لطالبيه، وإذا كنت قد جاملته حينها، فالواقع أنني وجدت المشروع متواضعا شكلا ومضمونا وأطلب منه بعد كل هذه السنين أن لا ينزعج من صراحتي.

أصبح أزولاي مستشارا واستمرت لقاءاتنا، وكنت أطلعه على كل أسرار مجموعتنا، حساباتها، نقط ضعفها، الخطط المقترحة للحلول المحتملة، كان يعرف تفاصيل التفاصيل، وعندما أحسست أن مسؤولي أكور غير حاسمين ومتذبذبين ويتحججون تارة بأن مركز الشركة اعترض على كذا وبأن مجلسها يرى كذا، اقترحت عليهم أن أقدمهم للمستشار أزولاي علّ اتفاقنا الأخير يصبح نافذا.

وأعترف الآن من باب الصراحة أن تصرفي هذا كان خطأ فادحا أساء إلى ملف دنيا أوطيل برمته.

أعجبني منذ البداية أسلوب أزولاي. فللرجل طاقة كبيرة على الإنصات، وإذا أعطاك موعدا استقبلك بدون تأخير وأحاطك بعناية توحي لك بأن لا شغل له إلا أنت.

وأول ما بدأنا النقاش حوله هو مجلة "مغرب ماگزين" التي أنشأتها للمشاركة في الإعلام المغاربي محاولة مني للتعريف

بالمملكة والمساهمة في ترويج صورة حضارتها وإبداعها. فخاطبته في الموضوع رغم ما علمت عن مواقفه إزائي في قضية "ليقي" يقينا مني أن المرء يمكن أن يغير ما به مع مرور الأيام.

وكنت أشتكي من انعدام أي دعم لنا من طرف الدولة في الميدان المادي ولا حتى المعنوي.

وكان دائما يجيبني بلطف وأسف شديد ظاهر على محياه مرددا: اعلم آسي عبد الهادي بأننا سنمشي رويدا رويدا، صحيح بأن كل شيء صعب ولكننا لن نفقد الأمل وسنتحلى بالصبر حتى ننال ما نريد.

وظلت مجلة "مغرب ماگزين" تواجه لوحدها قدر الإمكان في سوق إعلاميات معقدة تيارات معاكسة للمغرب ودام ذلك سنوات عدة ولم يتحرك أحد لمؤازرتها ودعمها، فراكمت الخسائر وتوقفت أخيرا وهي منهكة بعد أن أجبرت على المثول أمام القضاء بباريس في دعوى تقدم بها المعارض مومن الديوري ضدها، وكان مومن الديوري أساء إلى المغرب وإلى مؤسساته، فكانت له بالمرصاد. وهنا تدخل الجنرال عبد الحق القادري الذي كلف مساعده حميدو لعنيكري بمؤازرة دنيا أوطيل ودعمها وتغطية تكاليف محاميها الفرنسي.

ولم أكن أفهم حينها أن لأندريه أزولاي، الصحافي القديم، إلماما تاما بالصحافة، وأن بإمكانه دعم أية مجلة كانت تصدر بالمغرب أو بفرنسا وذلك لما له من علاقات مع الأوساط البنكية والإعلامية. غير أنه فيما يخص "مغرب ماگزين" لم يحرك ساكنا.

وأتت "مغرب اليوم"، الأسبوعية العربية المستقلة الأولى، فذهبت عنده بالعدد الأول، وأخبرته بما كنا عازمين القيام به:

مواكبة الدولة في برامجها الإصلاحية والإعلامية، فحبذ المشروع، ووعد بدعمه، دون أن يفي بوعده وسقطت "مغرب اليوم" كذلك بعد سنين طويلة من النضال بعد أن استحوذ القرض العقاري على كل ممتلكاتنا وزاد عليها احتياطاتنا الشخصية وكانت تفوق 30 مليون درهما في الأبناك، فزرته في مكتبه وأخبرته بذلك، فرفع يديه إلى السماء وقال مواسيا: يا للمصيبة.. وأضاف بالفرنسية: "Quel gâchis". واسترسل:
- السي عبد الهادي الصبر جميل وأنا متيقن أن الله سيأتي بالفرج بعد أن نتخلص من قضية الفنادق.
واستحضرت السنين التي قضيتها مترددا على مكتب أندري أزولاي بالقصر الملكي موضحا له نقطة نقطة ملف دنيا أوطيل وأهمية ممتلكاتها من جهة، وضيق هوامش تحركها من جهة أخرى لأسباب تقنية محضة كان باستطاعته فك ألغازها في أقل من أسبوع.
ولما بدأنا النقاش مع أكور، أخذت أشعر بالوحدة، فلا وزير مالية أو سياحة يقبل فتح الملف وأندري أزولاي يعرف الملف مثلي تماما أو أكثر ولا يحرك ساكنا... يا إلهي لطفك!
وبدأت أخشى عواصف جديدة لن تكتفي بالإتيان على الأخضر واليابس وتقتلع من دنيا أوطيل ممتلكاتها، بل عواصف أخرى يأتي بها إدريس البصري في إطار حملة تطهيره لما كان يسميه "الفساد الاقتصادي".
لقد أقفلت إذن الأبواب أمام دنيا أوطيل وأوصدت المنافذ وانكمش الأفق ووجدنا أنفسنا في فلك ضيق في وقت كان فيه الكل في فلكهم يسبحون. انتهت القصة، واشتد الخناق على دنيا أوطيل وأخذت أهيئ في قرارة نفسي الخروج من هذا المأزق تاركا كل شيء، ولكن محتفظا بكرامتي وكرامة من صنعوا دنيا

أوطيل وشيدوا مركب قصر المؤتمرات.
كان لوزير المالية آنذاك السيد إدريس جطو الفضل في إطلاق الرصاصة الأخيرة بعد أن سحب من يدي، ولم يجف مداد قلمي، الورقة التي أمضيت عليها تنازلنا عن ممتلكاتنا بأكملها للشركة الفرنسية أكور التي قيل إنها قبلت مشكورة طلب المغرب من أكور مساعدته في إعادة هيكلة مجموعاته الفندقية وتحديثها... إلخ. وكانت طموحات أكور تهم سلسلة فنادق السلام كذلك وبعض الأشياء الأخرى، كما توضحه الوثائق الرسمية والسرية والتي لازلنا نحتفظ بها حتى الآن. حقيقة أن أكور وعدت الدولة المغربية بضخ 300 مليون دولار طيلة سنوات معدودات، لكنها لم تأت إلا بـ15 مليون دولار من الخارج، الشيء الذي لم يمنعها من أن تصبح من أكبر المجموعات الفندقية بالمغرب في غضون 10 سنوات.
الحقيقة أنني لم أكن أشك في حسن نية أكور في الأول، بل إن خيوط الشك البسيطة التي كانت تراودني، كانت تطردها الصراحة المعلنة لمسؤولي أكور، وكشفهم لي لبعض أسرارهم. كان خبيرهم مثلا يقول لي إنهم سينالون من القرض العقاري والسياحي بطريقة أو بأخرى. لم يكن عرضهم الذي أجبرت على قبوله ورفض مولاي الزين الزاهدي التوقيع عليه يكتسي أية مصداقية ولا يحمل في طياته أي إنصاف.
كانت قيمة ممتلكات دنيا أوطيل تصل إلى 200 مليار سنتيم، وكانت سياسة أكور ترتكز على تحجيم هذه القيمة مستعملة أسلوبا تجاريا رديئا جدا وذلك عن طريق تضخيم ديوننا وتقليص قيمة ممتلكاتنا، فكانت مثلا تتكلم عن ديون تفوق 130 مليار سنتيم وعن ممتلكات لا تصل قيمتها إلى 70 مليار سنتيم ولم تكن بالطبع تملك أي دليل أو حجة على ما تدعيه، ولكن يعلم

بعضنا أنك إذا أردت أن تكون "نبيا" فارحل عن بلدك.
عندما التقى ريزنيك وصحبه مع أزولاي بفضلي ، أخرجت من الدائرة، وأخذت المخططات توضع في غيابي، وأقول بكل أسف أنني بسبب المناخ المليء بالمشاكل لم أتفرغ بما فيه الكفاية للتفكير الموضوعي السليم حتى أفهم مصدر الضغوطات التي كانت تمارس على دنيا أوطيل من مختلف الجهات: إنذارات القرض العقاري والسياحي، تهديدات بنمنصور في وزارة المالية ولامبالاة وزارة السياحة. كنت غافلا وكانوا يطبخون ملفي على نار هادئة، وذلك للاستيلاء على ممتلكات دنيا أوطيل.
تحرك المستشار أزولاي. كان الجميع يتبادل المعلومات حولي وأنا أنتظر، كانوا يهيئون ما يشاؤون، وفي كل مناسبة يضربون بقوة لإنجاح مخطط أكور.
كانت أكور تطالب دنيا أوطيل مثلا من بين ما كانت تطالبها به، وذلك حتى تهيئ مشروعا متكاملا تتعادل فيه المداخيل بالمصاريف أو الأصول بالخصوم، بالتخلي لصالحها عن 50 مليار سنتيم، 20 مليارا منها يتنازل عنها القرض العقاري والسياحي و10 ملايير يتنازل عنها البنك التجاري المغربي و20 مليار تساهم بها الخزينة العامة. ورغم ضخامة هذه المطالب وعدم جديتها ومصداقيتها، كانت أكور تفاوض بشراسة للحصول على امتيازات أخرى. والحقيقة أن وزارة المالية اتفقت على مجمل مخطط أكور ورفضت تنازل الخزينة لمدة، وبعدها قبلت الرضوخ والاستسلام، والشيء الغريب الملفت للنظر هو أن روبير ريزنيك طلب من الخزينة أن تضمن لهم مبالغ ضئيلة ومتواضعة كانت تمثل بعض ديون دنيا لصالح بعض الممونين، وكان بعض أطر وزارة المالية يعتبرون أن هذا الملف دخل في خانة العبث.
لم أكن أبدا أتصور كمفتش للمالية وكإطار من أطرها القدامى أن يصل الوضع إلى هذا المستوى، فلم أكن أطالب إلا بتطبيق تعليمات ملكية مكتوبة على ورق موقع من طرف وزير مسؤول في الوزارة الأولى، ولم أكن أنازع في دين أحد على أساس

موضوعي يعطي لكل ذي حق حقه ويجعل على كاهل الدائن أن يثبت دينه، كما لم أفهم كيف تقدم كهدية مجموعة اقتصادية مواطنة ورائدة لشركة أجنبية لم تكن تحمل في حقائبها إلا الوعود، ولم تكن تعتمد لنجاح مشاريعها إلا على اللوبيات. كنت على علم مثلا أن الشركة الفرنسية تدعي أنها بقبولها دخول المغرب بعلاماتها التجارية ستتأثر حتما السوق السياحية المغربية بصفة إيجابية تعود عليه بأكثر مما تطالب الاستفادة به شركة أكور. ومر الزمان وفوت مكتب السكك الحديدية لشركة أكور بأمر مكتوب من الحكومة أغلبية أسهم شركات فنادق مجموعتها "المسافر" بثمن لا يصل إلى مبلغ 55 مليون درهم، إذا لم تخن الذاكرة، كما استطاعت كراء الفندق الجميل والرمزي ذي الشهرة العالمية "قصر الجامعي بفاس" ب1,5 مليون درهم ملتزمة بإصلاح مرافقه بمبلغ لم يراقب صرفه مراقبة قانونية حتى الآن .

لا يمكن تصور ما بقي عالقا بيننا لتنفيذ اتفاقنا وسط كل هذه الامتيازات التي لم يحصل أي مغربي منذ الاستقلال على مثلها. ورغم ضخامة مطالب أكور وعدم مصداقيتها، علما بأن ما بني على خطأ فهو خطأ، فإنها قبلت بأكملها . وتم التوقيع على اتفاق إطار ثم اتفاق تطبيقي، الشيء الذي بقي عالقا هو قضية ديون الممونين التي لم تكن تتجاوز الثلاثين مليون درهم إلا بقليل، ألحت أكور أن تعطي وزارة المالية ضمانة على هذه الديون. ولكن، أن تضمن وزارة المالية الدولة فهذا مقبول، وأن تضمن القرض العقاري والسياحي مقبول، أما شيء آخر فلم تكن الوزارة مجبرة على ضمانه ودخل الملف في فوضى عارمة.

استنتجت متأخرا أن ريزنيك السَّمَر، وريزنيك البيوت

المفتوحة، أصبح ريزنيك الغنائم، لقد ذاق سهولة الاستحواذ، كان كلما مد يده إلا ويغنم شيئا، فلم لا يذهب أبعد؟

أكثر من كل هذا، كنت أجهل أن أكور ليست سلسلة سياحية عادية، فسبعة أو ثمانية بالمائة من مالكي رأسمالها هم الذين يسيرونها، ولهم شركاء دوليون وشركاء كثر في البورصة، وهذا كان يعني أن سياسة أكور مرتبطة بالمسيرين، إذا تغيروا تغيرت السياسة، وبمجرد التحاق ريزنيك بالمؤسسة، تغيرت طريقة التسيير الفرنسية التي كنت أعرفها وأحترمها، وحلت محلها منهجية أخرى مبنية على الجشع والاستحواذ.

فهمت متأخرا كذلك أن ريزنيك جاء إلى المغرب للاستفادة من الصعوبات الظرفية التي كان يعيشها آنذاك القطاع، ألم يفعلوا ذلك في باريس مؤخرا، حيث ابتلعوا جميع الفنادق التي كانت في حالة صعبة أو في إطار التسوية القضائية وكان صاحبها سوريا؟

كانت هذه الطريقة جديدة على رجل مثلي تأثر بالقانون والأخلاق ولم يستأنس بطريقة الذئاب التي لا تحترم القوانين ولا الأصول.

تمر الأيام، والقبضة تشتد علينا، وأكور تنتظر سقوطنا، وكنت منهمكا في تهييء الانتخابات بمراكش حينما استدعاني وزير المالية السيد محمد القباج، وكنت قد التقيت به قبل هذا مرتين أو ثلاثا وعرضت عليه الملف بتفصيل، وكان يتجاوب معنا وكنت أعلم أن الحل لم يكن بيده حتى يتخذ أية مبادرة من شأنها إنقاذ دنيا أوطيل، غير أنه والشهادة لله لم يتخذ أية إجراءات ضدنا لا بالكلام ولا بالفعل، وكنت واثقا بأن مساعده بنمنصور كانت تحركاته توفر ما يكفي من الثلج لتجميد حركة ملف دنيا أوطيل.

قال السيد القباج:

- لابد أن نجد حلا.
- على بركة الله وشكرا لمعالي الوزير.
- لابد أن تتفاهم مع أكور وربما سيكون هذا الحل في صالحك أيضا.
- أنا لا أرى مانعا في التفاهل مع أكور على أساس العدل والإنصاف، وبالطبع لن أعطهم أبدا المجموعة بدون مقابل.
- لا أقصد هذا، أنا وقعت الاتفاقية مع الوزير الأول بشأنهم، غير أن القضية أخذت أبعادا أخرى.
- لم أفهم.
- لا، بل تعرف آسي العلمي كيف صارت الأمور.
استحضرت حينها ما حبكته أكور بإتقان، إن المجموعات الدولية عندما تقصد أي بلد كبلدنا، تقصد مباشرة رئيس الدولة، وتحصل منه على اتفاق مبدئي، وتنزل بعد ذلك عند الوزراء لينفذوا الأمر الواقع.
هذا ما فعله "النادي المتوسطي" في بلدنا في أيام تريگانو الأب وتحاول أكور القيام بنفس الشيء مع التحاق ريزنيك بها، وريزنيك كما سبق ذكره وليد "النادي المتوسطي".
رتب لهم أزولاي لقاء مع جلالة الملك وقدمهم على أساس أنهم مجموعة دولية تريد استثمار 300 مليون دولار في المغرب كما سبق ذكره.
وصلتني أصداء لقائهم مع جلالة الملك وكانت حسب معلوماتي كالآتي:
سأل جلالة الملك المجموعة:
- ما رأيكم في سياحتنا؟
أجاب بدهاء جيرار بيلسون رئيس أكور:
- هذا سؤال يجيب عنه جلالة الملك، فهو ملك المغرب وهو

على علم بكل شيء.
- ولكن ما هو رأيك الشخصي؟
وبعد أن أجاب رئيس أكور، سأله جلالة الملك:
- مع من تريدون الاتصال؟
سردوا على جلالته أسماء متعددة، ومع كل اسم كان جلالته يعطي رأيه فيه، ولما وصلوا إلى إسمي، سألهم جلالة الملك إن كانوا يرغبون في أن أستدعى من طرف القصر، فأجابوا بمكر كبير بأنه لا داعي لذلك، بحجة أنهم يعرفونني وعلى اتصال مباشر بي.
هكذا تحايلوا حتى لا يتم هذا اللقاء الذي لو حصل لما كان يمكن أن يكون إلا في صالح معادلة نزيهة ترضي الجميع وتنصف دنيا أوطيل.
عرضوا على جلالة الملك شروطهم، إنهم سيأتون برؤوس الأموال ولابد أن يضمنوا من البداية 20% من الربح سنويا، ولما لم يعترض أحد من الحاضرين، وافق جلالة الملك مبدئيا على شروطهم.
وعلى أساس هذا الاتفاق المبدئي، هيأوا مشروع اتفاقية، وسلموها للوزير الأول عبد اللطيف الفيلالي الذي وقعها وسلمها لوزير المالية السيد القباج الذي وقعها بدوره، وكانت الدولة تتعهد فيها بالخمسين مليارا السالفة الذكر والكفيلة وحدها بأن تضمن لأكور أن تحقق نسبة عالية من الأرباح سنويا في مركبنا.
وهكذا اتضح أن أكور بدل أن تلجأ للوزارة وتبحث معها الملفات الفنية وبعدها يرفع التقرير إلى جلالة الملك، عكسوا الآية وجاؤوا إلى الوزراء بقرار لا يقبل النقاش.
كنت في هذه الحالة أبدو لهم كطريدة سهلة المنال، إما أن

ترضخ دنيا أوطيل والقرض العقاري والسياحي لشروط الربح المضمون بنسبة عالية وإما أن نداس تحت الأقدام.
كان تحقيق نسبة 20% من الأرباح سنويا بمجموعتنا يتطلب ألا تؤدي أكور الديون بأكملها. ولا أعرف حتى اليوم لماذا يستجاب في هذا الأمر للمستثمر الأجنبي ولا يستجاب للمستثمر المغربي الذي أنجز المشروع بماله وعرق جبينه وإبداعه؟ والأنكى أنه عندما كنت ألفت النظر إلى الصعوبات التي يعيشها القطاع برمته أجابه بأنني أسأت التصرف وربما هربت الأموال وامتنعت عنوة عن الأداء.
كانت دنيا أمام أناس لا يعرفون الملف البتة، وليست لهم إرادة لمعرفة ذلك والتوصل إلى حل، كانوا غير معنيين بالأمر وكانوا أمام أسوار وهم عالية.
كانت دنيا تسجل خسارات باهضة كل سنة، وأكور اليوم تطالب بـ20% ربحا كل سنة، كان بيننا فرق بشساعة السماء ودنيا أوطيل هي المستثمر الأساسي، ولكن أكور هي السيولة والطرق الملتوية والعلاقات الدبلوماسية والتحركات العائلية. أما دنيا أوطيل فهي الصعوبات الناجمة عن المشاريع المواطنة والملفات والقانون، وشتان ما بين طريقين لا تؤديان لنفس النتيجة.
استدعاني وزير المالية ثانية فاعتذرت له وقلت له في الهاتف:
ـ أنا سبق أن اتفقت مع أكور على كل شيء.
ـ ولكن آسي العلمي يجب أن تتيقن من أن وزارة المالية لا يمكن أن تعطيهم كل الضمانات التي يرغبون فيها والتي تهم علاقة دنيا وأكور مباشرة.
ـ أنا لا أطلب يا سيدي من الخزينة شيئا ولا أفهم كيف أجد نفسي داخل حلقة مفرغة مثل هاته.
وقفل الخط.

اتصل بي ريزنيك بعد ذلك:
- أرجوك يا عبد الهادي أن تذهب عند الوزير القباج، وأعدك أنك ستسير في الطريق السيار.
أخذت معي الخبير المرموق في الحسابات بارزلاي، وأتى السيد محمد القباج إلى قاعة الاجتماع بكافة رؤساء وزارته.
جلسنا، بدأ يقرأ ملفا، انتظرت إلى أن انتهى، فقلت له:
- هذه الأرقام التي قرأت آسي القباج قديمة، وقد غيرناها.
انفعل:
- ما غيرنا والو آسي العلمي
تدخل أحد المسؤولين وأكد أن الأرقام تغيرت، فأحرج السيد الوزير الخبير وهو يظهر أمام الجميع أنه لا يعرف حتى حقيقة الملف الذي يريد معالجته.
- ما علينا - يقول القباج آسي العلمي، أنت ابن مدينتي، وأحترمك وأقدرك، وأنت رجل مثالي بما فعلته للمغرب، ولكن شوف، حتى لا نستمر في النبش، أريدك أن تجيبني على سؤال واحد: هل تضع الآن مفاتيح دنيا أوطيل ونقول لك الله يهنيك؟
- آسي محمد، المشكل غير مطروح بهذه الطريقة. استدعيتنا لنطبق اتفاقا مكتوبا أرسلناه للسيد المستشار، وقلنا إن ذلك المبلغ الذي سيبقى للمجموعة نحن قانعون به، نريد القليل علنا نثب من جديد، وكل شيء واضح والسي بنمنصور سبق وأن قام ببحث عندما أتيناه بحل مماثل كنتم ترفضونه، وسلم الملف للمفتشية العامة للمالية، وبقي عندهم أربعين يوما، وبعدها قال لي بنمنصور أن ملفي ليس على ما يرام والأحسن لي أن أجد اتفاقا معينا، وكتبت لك، وقلت إن السيد بنمنصور يلمح لنا بأشياء جارحة، وأضفت أنني أريد أن يأتي مفتشو المالية ليعيدوا بحث الملف، وأتحدى أي واحد يستنتج أن هناك غموضا في أي شيء.

وتذكرت هنا كومضة السنين التي قضيناها في مجموعتنا ونحن نطالب هؤلاء الناس بأن يأمروا بمحاسبتنا عبر افتحاص Audit كما تنص على ذلك جميع عقود القروض من القرض العقاري والسياحي، وتذكرت الشيء الأغرب الذي لا يصدق عندما كاتبنا مولاي الزين الزاهدي يطلب منا اختيار واحدة من خمس مؤسسات دولية لتفتيشنا، وقد لبينا طلبه، غير أن القرض العقاري والسياحي لم ينفذ "تهديده" إلى اليوم.

كانت القضية مجرد حركات لتلطيخ سمعتنا. علمنا بأن أي تفتيش لا يمكن أن يكون أبدا إلا في صالحنا.

أجاب القباج:

- إيوا أنت شَكَوَ ْت بنمنصور وهو فعل نفس الشيء ويقول إنك مفاوض خطير.

- أرجو أن يكون كلامك هذا من باب النكتة، فإذا لم أحسن التفاوض من أجل البقاء، عن أي شيء آخر تريدونني أن أحسن التفاوض؟

- والجواب آسي العلمي؟

- لا، الرفض اليوم، والرفض غدا، والرفض بعد غد.

التقيت صدفة بالقباج، بعد أن غادر الوزارة، بالقصر الملكي بمراكش في عيد العرش لسنة 1998. وكان مع موظف سام يدعى السيد لحلو. قلت له:

- حرام عليك، أوقفت ملفنا واستكثرت علينا ذلك الفتات الذي كان سيبقى لنا.

- كيفاش؟! هذا غير صحيح، أنا اقترحت عليك مليارا ونصف المليار وأنت رفضت وطلبت ثلاثة ملايير.

- أتذكر عندما قال لك بارزيلاي إنك جئت بنا وخطبت علينا لمدة ساعتين لتخرجنا بهذه النتيجة التي تقترح علينا فيها أن نعود

بصفر درهم؟ أتذكر عندما ولجنا بعدها الممر، وتساءلنا كيف أنكم عاملتم ملفنا بهذه الطريقة في الوقت الذي عاملتم فيه ملف مستثمر بنى ميناء في الصحراء بشكل مختلف، حيث أعفيتموه من خمسين مليار سنتيم عن طريق صندوق الضمان، أتذكر أن كاتبك العام حينها بنمنصور أجابنا أمامك بأننا نهذي لأن السياحة ليست هي الصيد البحري؟

التقيت ريزنيك بعد ذلك، فحصل معه نفس الشيء، سألني:

- ما الذي وقع لك مع وزير المالية؟

- أنت الذي لا تعرف ماذا وقع؟

خطورة هذا اللقاء الفاشل مع محمد القباج لم تكن محصورة في النفق الذي لم نخرج منه، ولكنها تعدته إلى أننا ألبسنا ما لم يصدر عنا، وعندما اتصلنا بأزولاي، قال لي إنه لا يعرف ما جرى بيني وبين وزير المالية، وأضاف أن الجميع يقول إنك أنت الذي رفضت ما كنت متفقا عليه مع أكور، ووصل للأوساط العليا أن دنيا أوطيل رفضت الاتفاق، ونجحت خطتهم الجهنمية، ومن هنا أصبحت الطريق سالكة للضربة القاضية، والتي لن تتأخر كثيرا.

سيناريو الضربة القاضية لم يكن كافيا، لذلك كان لابد من مناخ ومن توزيع الأدوار، ولما كانت لوزير الخوصصة عبد الرحمن السعيدي مؤسسة إعلامية يملك أسهما فيها، فإنه فتحها لأكور وفتح من خلالها النار على سمعتنا. لم يكن مدبر هذه العملية يدخل في التفاصيل. يكفي أن يقول جملة عابرة مثل إن مجموعة دنيا أتعبتنا ولا تريد أن تؤدي فتنطلق الحملة.

القرض العقاري والسياحي كان له دور السوط النائم، ما أن يُعْطَى الأوامر حتى ينتصب ويبدأ في جلدنا، وقد تغير أسلوبه معنا مباشرة بعد فشل لقاءاتنا مع وزارة المالية, وبعد ذلك أخذت

التهديدات تتكثف ووتيرة المطاردة تزيد وتكبر إلى أن توصلنا برسالة من القرض العقاري والسياحي يهددنا فيها بإحالة ملفنا على مصلحة المنازعات. لم يكن باستطاعة الشبكة أن تصل إلى هذا الفصل من فصول هذه الدراما لولا تحويل قبولنا إلى رفض، ومحاصرتنا بل إرهابنا.

أدوار إدريس جطو، وزير المالية الذي خلف محمد القباج، وإدريس بنهيمة، وزير السياحة، كانت هي التنفيذ المباشر لعملية "القتل"، ومعهما سندخل زمن "القتلة".

في إطار اجتماعاتنا العادية داخل فيدرالية السياحة، ناقشنا الثمانين مليارا التي قدمتها الدولة للقرض العقاري والسياحي، وخلصنا بعد التجربة أنها لم تكن كافية ولن تكون مادام الفاعل الأساسي في القطاع لم يقم بدوره، وهو الحكومة التي تركت القطاع بدون تأطير ولا إشهار ولا تحفيز. كلفني زملائي أن أبلغ ما توصلنا إليه لوزير السياحة، كان شيئا عاديا، بل روتينيا أن نتصل كفاعلين سياحيين بأي وزير سياحة ونقدم له مطالبنا، ولكن العادي في هذا الزمن العجيب سيتحول إلى استثناء غريب.

اتصلت هاتفيا بوزارة لسياحة:

- آلو. صباح الخير.
- صباح الخير.
- هذه كتابة السيد الوزير؟
- نعم.
- أنا عبد الهادي العلمي.
- من أي مؤسسة؟
- من مجموعة "دنيا أوطيل"، أريد أن أتكلم مع السيد الوزير.
- لحظة سأوصلك بالسيدة المسؤولة.

- ألست أنت مدام أبا حنيني المسؤولة عن كتابة السيد الوزير؟
- نعم ولكن عندما أتى السيد الوزير الجديد، جاء معه بسيدة في الديوان تأخذ جميع مكالماته.
- هل لي أن أكلمها من فضلك؟
بعد كلمات المجاملة مع هذه السيدة، طلبت موعدا مع السيد بنهيمة.
- السيد الوزير جد مشغول.
- ألا يمكن أن أكلمه في الهاتف؟
- غير ممكن، ولكن سنتصل بكم.
مر أسبوع كامل دون أن تبادر السيد بالاتصال، فاتصلت:
- لم تتصلوا بنا سيدتي.
- ليس لدينا ملفكم وحده.
- إن القضية تتعلق بمشاكل قطاع برمته.
- إيوا احنا ماشي حائط مبكى اللي عندو شي مشكلة يجي يبكي علينا.
لم أكن أعرف هذه اللهجة، ولم يسبق لوزير سياحة أن تكلم مع المستثمرين في هذا القطاع بهذا الشكل وبهذا المنطق.
أجبت بتماسك:
- أنا لا أطلب سيدتي موعدا آنيا، اختاري الوقت الذي يلائمك ويلائم السيد الوزير، يكفيكم شهر؟
سكتت قليلا وقالت:
- طيب، طيب سنرى ما يمكن أن نقوم به.
لم أستسلم، وواصلت إلحاحي، إلى أن اتصلت يوما:
- لقد وجدت لك فجوة في أجندة السيد الوزير، وأرجوك ألا تتجاوز معه أكثر من عشرة دقائق.
من تكون هذه المرأة الصلبة؟ عرفت فيما بعد أنها ابنة عميد

شرطة، وأنها كانت قريبة من بنهيمة.
استقبلني بنهيمة، والبداية لم تكن تبشر بالخير، فليس هو فقط الذي كان بعيدا عن القطاع، ولكن الموظفين اللذين أحضرهما معه لم تكن لهما بدورهما دراية بالسياحة.
قلت لبنهيمة إنني مرتاح وأنا أمام رجل تكنوقراطي وجامعي.
انتظرت أن يجادلني، لكن، ظل يكرر كلمتين: طيب، سنرى.
- ولكن ماذا سنعمل في النهاية؟- سألته
- لقد سلمتني الملف، وقدمت أمامي عرضك، وسأتصل بك.
أقفل الوزير بعد هذا أبوابه ونوافذه وتركني مع المرأة الصخرة، وعندما أعيتها المكالمات التلفونية أجابت أحد مساعدي قائلة:
- سيرو خلصو القرض العقاري والسياحي وباركا علينا!
فوجئت يوما باستجواب للسيد بنهيمة خص به أسبوعية مغربية قال فيه إن كل أرباب الفنادق متحايلون ولا يؤدون ما بذمتهم ودعا إلى ضرورة تغيير هذا الوضع.
اتصلت بجريدة ليبراسيون، وطلبت منها نشر رد على بنهيمة، فكان لي ذلك. كان الرد عبارة عن مقال مطول توجهت في جزء منه لبنهيمة وقلت له إنني مثقف مثلك، وجامعي مثلك، وأنا كذلك أحب بلدي، ولا أسمح لك أن تقول إن الفندقيين ليسوا مهنيين، لأنك لا تعرف السوق ولم تتجشم عناء فتح الملفات، ولو فعلت، لوجدت وثيقة لسلفك القادري الذي تكون في الجيش ورغم ذلك استطاع أن يضع يده على مكمن الداء، وهو لا يتعلق بالفندقيين بقدر ما يتعلق بما يمكن أن أنعش به ذاكرتك وسردت. معوقات التطور السياحي.
جاء هذا الجواب في وقت حساس، كنت أحارب وأنا في مرحلة الخطر، ولكن كنت مقتنعا دائما أن الجرأة في الكرامة خير من الجبن من أجل المال.

عرفت من مسؤول تحرير ليبيراسيون أن نشر جوابي سبب لهم إحراجا، وهذا بسيط، لأن ما سببه لي الجواب كان أقوى.
كان الجواب المباشر لبنهيمة هو أنه كتب للقرض العقاري والسياحي يطلب منه أن يقاضينا ويطبق علينا الفصل 59 من مرسوم 1968 لحيازة ممتلكاتنا وتسليمها لمجموعة دولية. وبين السطور كانت هناك أكور بطبيعة الحال.
كانت أكور قد أخذت فنادق المسافر، وفتحت مكتبا بالمغرب برأسمال لا يتعدى 30 مليون سنتيم، وكنت أحدس أنها جالسة تحت شجرة تنتظر سقوط جبنة مجموعتنا في فمها.
أصبح محامي المجموعة هو ذ. التبر. قال لي إن مولاي الزين الزاهدي صديق له، ويمكن أن يبلغه ما أريد، فاقترحت عليه حلا جديدا.
عرض التبر على الزاهدي استعدادنا لتقديم وثيقة نتعهد فيها بأداء الستة ملايير ونصف مليار المتبقية برسم سنة 1997 خلال 5 أشهر مرفقة بتأمين دولي لن نؤدي عنه سوى 5% بالدرهم وليس بالعملة الصعبة، فقبل، كتبنا الرسالة وتنفسنا الصعداء معتقدين أننا نجونا من المصيدة.
وعدنا للزاهدي كان مبنيا على معطيات موضوعية، فقد كان مركب المنصور الذهبي ينتظر احتضان المؤتمر السنوي الضخم لجنرال موتورز، وكان رقم المعاملات في هذه الصفقة يقدر بما بين 7 و8 مليار سنتيم كانت ستترك لنا سيولات هائلة، من شأنها أن تعيننا على تأدية الأقساط للقرض العقاري والسياحي، وبالتالي نكون قد نجونا من مخالب أنياب أكور.
من سوء حظنا أن هذه الأخبار تسربت، ووصلت إلى ريزنيك، واستطاعت أكور أن تخترقنا، وبدأت تعرف أسرارنا وتطلع على رسائلنا قبل حتى أن تصل إلى المعنيين بها، وقع رد الفعل

الطبيعي، وتحركت الشبكة، فتراجع مولاي الزين الزاهدي.
كان وزير المالية جبهتنا الأعنف، فعندما خلف جطو محمد القباج، كتبت له رسالة أطلب تحكيمه، لم يمر إلا وقت وجيز حتى استدعاني.
وسط كل بحر اليأس هذا، كنت متفائلا، فكل أصدقائي كانوا يقولون عنه أنه رجل ذكي وبرغماتي.
سألته في الهاتف عما إذا كان يريد أن آتي وحدي، فقال إننا سنجتمع رأسا لرأس.
قال وهو يستقبلني بحفاوة:
ـ ما تقوم به جميل، وقد سافرت معك لعمان عندما كنت وزير للصناعة، وأذكر أنك كنت نشيطا...
ودخل بعد ذلك مباشرة إلى الجوهر:
ـ قل لي الآن صراحة، كم تريد في ملف أكور؟
لم أكن مهيأ لطرح كهذا، بل إن الطريقة صدمتني، كنت أنتظر أن يطلب مني عرضا لملفي، أو على الأقل أن يسألني عما جرى.
ـ صعب جدا أن أقول لك ما أريد وكم أريد، الملف كله بين يديك، وما قبلته بين يديك، ولم يقف هذا الملف إلا في التطبيق على عهد محمد القباج، أما إذا كنت تنوي تحسين ما هو مقترح علينا فجازاك الله خيرا.
ـ على الرغم من هذا، لا بأس أن تذكرني بهذا الاتفاق.
ـ ماذا أقول لك، قد لا يتجاوز المجموع 10 مليار سنتيم، علما بأن قيمة المجموعة تقدر بـ200 مليار وديونها، بما في ذلك الفوائد، تصل إلى أقل من 50 مليار سنتيم.
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أتعرف ماذا ستفعل الآن؟ هيئ لي ورقة في الموضوع، وأنا مسافر لمدة وجيزة إلى

الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما أعود، نلتقي من جديد.
التقينا مجددا، شرحت له الملف من ألفه إلى يائه، أعطيته الوثيقة التي كنت قدمتها لأزولاي والتي تتضمن قبولنا للفندق اليتيم والمبلغ البسيط.
لقاء آخر، لقاء ثالث طلب مني أن نجتمع بشكل موسع مع فريقنا.
كنت مع ذ. التبر وعبد العزيز بنجامع وكان معه وزير السياحة وبعض موظفي المالية، وتوجه إلي:
- يا الله آسي العلمي، لقد تعبنا من هذا الملف وأتعبتنا الاجتماعات. نريد حلا، هل تريد أكور أم ويستين؟
عندما كان القباج قد أغلق الباب أمام الحل المتفق عليه، بادرت واتصلت بمجموعة أمريكية تدعى ويستن، وقدمت عرضا أحسن من العرض الذي قدمته أكور.
أجبت جطو:
- أستسمح، أنا لم آت بويستين حبا فيها، لقد سد سلفك أمامي الباب، نعم لقد وصلنا إلى الباب المسدود ليس بسبب تراجعي أو عدم وفائي بالتزام وقعت عليه، فالاتفاق كان موجودا، وكان بإمكان أي موظف عاد أن يجبرني على تنفيذه.
- المهم، هل تريد ويستن أم أكور؟ إن السيل بلغ الزبى، وسأجد نفسي مضطرا السيد العلمي أن ألجأ إلى القضاء.
وهنا اشتعل بنهيمة وكأنه وجد ما يشفي غليله:
- ألم أقل لك هذا السيد جطو، ألم أقل لك أن الحل الوحيد مع السيد هو العدالة؟ ولو وافقتنا لأمرت أمين الشريف محامي الحكومة بالبدء في إجراءات الحيازة.
ذهلت، كان هذا المنحى مفاجئا في المناقشات، لم تكن له مقدمات طبيعية تجعل تصعيد اللهجة مفهوما، وفي كل هذا

الملف، لم تصل حدة النزاع لدرجة أن يصدر تهديدا صريحا كهذا.
طلب مني جطو أن أهيئ مذكرة حول سنتين، ففعلت وشرحت مزايا ومساوئ كل مجموعة وخلصت إلى أن لأكور ست مساوئ ولويستين ست مزايا. وزعت المذكرة على أعضاء اللجنة التي ضمها الاجتماع، وعدنا للمناقشات. سألني جطو مرة أخرى:
- هل تريد أكور أم ويستين؟
- ماذا تريد أنت السيد الوزير؟ أكور طريقها مفتوح واتفاقنا معها جاهز، وويستين جاءتنا بعرض فيه خمسة ملايير على الأقل كضمان سنوي...
شوف، لنلعن الشيطان، ونختر أكور.
- واخا نعم سيدي.
- ولكنها المرة الأخيرة.
- كيف؟ هل كانت هناك مرات أخلفت فيها اتفاقا، لماذا لا تصدقون إلى اليوم أنني ضحية تضليل، أنا لم أرفض اتفاقا مع أكور، ولكن رفضت التراجع عن مضمونه، أرجو أن تكون هذه المرة الأخيرة التي أذكرك فيها بأن الذي رفض وأغلق الباب ليست دنيا أوطيل.
كمن يريد أن يضبط شخصا في حالة تلبس، نادى جطو على ثلاثة موظفين من بينهم المسؤول عن مصلحة الخزينة التازي، وطلب منهم أن يسجلوا علي ما التزمت به، فخرجنا إلى قاعة اجتماعات مجاورة، وبدأ البرنوصي يرتجل رسالة وأنا أكتب التزامي باختيار أكور مقابل مبلغ كذا والفندق الفلاني، وبمجرد أن أكملت توقيعي نزعوا من تحت يدي الورقة، وأخذوها للوزير.

اتصل بي جطو بعدها:
- براڤو، ما قمت به يعتبر خطوة مهمة إلى الأمام، والآن ماذا سنفعل في الضمانات التي طلبتها أكور بخصوص ديون الممونين؟
- إيوا آسي إدريس هاد أكور أنهكتنا، خصمتم لها 20 مليارا من القرض العقاري والسياحي وعشرة من البنك التجاري و20 من الدولة، فهل تريد أن تأخذ مجموعتي بالدرهم الرمزي؟
- الله يخليك ما ندخلو فحسابات، إنه من الصعب أن نأتي بمجموعة دولية لتستثمر أموالها في مشروع فيه مخاطر.
- وما العمل؟
- ما رأيك في صيغة: أن تبيع أنت للقرض العقاري والسياحي وهو يبيع لأكور بعد ذلك؟
- طريقة لا اعتراض لي عليها.
- إذن أنت موافق.
- نعم، أنا موافق، لقد تعبت، أريد فقط أن أضع حدا لهذا الجحيم الذي أصبحت أعيشه. أن أخرج من هذا اليم ومن أمواج القلق، فلا يمكنك أن تتصور عمق ألمي وشدة تأثري، لم أعد أستطيع القيام بأي عمل لأن معنوياتي نزلت درجات تحت الصفر، وكلما طال هذا الموضوع كلما زادت حالتي تأزما، تعبت حقيقة من هذه الحلقات التي لا تنتهي، من وزير إلى آخر ومن مذكرة إلى أخرى ومن اقتراح بديل.
- لم يبق الكثير لقد طلب مني جلالة الملك أن أحل هذا المشكل، ووعدته بذلك، ولن تكون الخاتمة إلا خيرا وستنال حقك.
- إن شاء الله.
- إذن سيكون لنا غدا اجتماع موسع هنا، وبعد ذلك سأتركك لتتفق مع القرض العقاري والسياحي.

في الاجتماع الموسع، رأيت لأول مرة محامي الحكومة أمين الشريف، كان ينظر إلي بعينيه الغائرتين بارتياب وكأني متهم.
قدمت في هذا الاجتماع عرضا خرج من الملفات ومن الجوارح ومن سنوات الألم، تحدثت لمدة ساعتين أمام أكبر عدد من موظفي المالية والسياحة، شرحت كيف أنه ليس لي أي مشكل مع أكور، وأكدت إنني يمكن أن أبيعها حسب ما اتفقت عليه معها، كانت قناعتي أن هذا العرض سيكون سيلا يجرف، بدون رجعة كل الأفكار المسبقة وسوء الفهم الذي ألصق بهذا الملف، وأن الحاضرين سيتحولون إلى متفرجين على الواقع لا داخل قاعة سينما، ولكن...
في الغد، كنا بمقر القرض العقاري والسياحي، أمين الشريف بجانب المرأة الحديدية مدام الزراري، مستشار رئيس البنك السيد بنعبد الجليل، ومستشار عن أكور، وذ. التبر.
استمر هذا اللقاء من التاسعة صباحا إلى الثامنة ليلا. ماراطون اختلطت فيه المواجهات بالمساومات وغلب عليه عدم الكفاءة في الوصول إلى الهدف مباشرة، تعبت من هذا الدوران دون التمكن من إصابة الجوهر. التفتت نحو ذ. التبر وطلبت منه أن يجلس مع أمين الشريف، قلت لهما أنتما محاميا كبيران، وأنا سأقترح عليكم مشروع اتفاق وإذا أخطأت قوموه.
بدأت أرتجل الاتفاق وأكتبه: أنا الموقع أسفله عبد الهادي العلمي أبيع للقرض العقاري والسياحي المجموعة بالطريقة الفلانية وألتزم ألا آخذ سنتيما حتى أفعل كذا وكذا... فرضت على نفسي شروط الخزيرات، كتبت ما هو ضدي، ولكن كل شيء كان أبرد من نار تعبي، أحسست فعلا أن هذا الملف أصبح تعبا كله ولم أعجب إلا من راغب في مزيد.
عندما وقعت. نهض أمين الشريف وشد على يدي قائلا:

- هادو هو ما أولاد الناس.
أما بنعبد الجليل، مستشار مولاي الزين الزاهدي، فقد صاح:
- أي سمو هذا، لم يسبق لي أن رأيت شخصا يوقع على فقد ممتلكاته ويبقى مرفوع الرأس ممتلئا بكرامته.
على أساس الوثيقة التي وقعت، أنجزنا برتوكول اتفاق ولم يبق إلا توقيعه حتى تحط الحرب أوزارها وأودع نهائيا قصر المتاعب.
اتفقنا أن نوقع الاتفاق "التاريخي" بوزارة المالية، بحضور كل الشخصيات التي ساهمت في "طبخه"، وهذا ما أكده جطو عندما اتصلت به، ولا أعرف لماذا كان يهنئني؟ ألأنني وقعت على كل شيء؟ سألته عن ممثلي القرض العقاري والسياحي، فقال إنه أخبرهم بالموعد.
كنا في الموعد بوزارة المالية، وبين التهاني في الهاتف واصفرار محيا إدريس جطو ضاعت أجوبتي.
- ماذا جرى؟
رد السيد جطو بانكسار الجنرال الذي خسر الحرب للتو:
- مولاي الزين الزاهدي لا يريد أن يأتي للاجتماع، ثم انصرف بسرعة. ووقفت مشدوها أراقب كل هذا العبث، ولم أكن أعرف حينه أن الذي لا يسهى ولا ينام يهيئ أسباب قلب السحر على الساحر.
كان بروتوكول الاتفاق ينص على أن القرض العقاري والسياحي لابد له من وثيقة تغطية من وزارة المالية.
ونحن ننتظر جطو، كان بنهيمة كعادته هائجا:
- لقد تعبت من هذا الملف ومن شروطكم!
رد عليه محامي المجموعة وهو لا يصدق:
- عن أي شروط تتحدث؟ **لقد قمنا بكل** ما طلب منا.

كنا قد رفضنا تضمين الاتفاق بندا ينص على اللجوء إلى القضاء حتى تتمكن الخزينة من استصدار الضمان، وقد فاجأني المحامي وهو يصل مع بنهيمة إلى الخط الأقصى عملا بالمثل الدارج: "نوصلو الكذاب حتى لباب الدار".

- إننا مستعدون للجوء إلى القضاء إذا أردتم تسهيل الحصول على ضمان الخزينة.

وافقت المحامي، فرد بنهيمة:

- أكور تطلب شيئا، والقرض العقاري والسياحي يطلب شيئا وأنتم تطلبون شيئا، إن الحل الوحيد هو اللجوء إلى القضاء ليحل هذا المشكل بصفة نهائية وشاملة!

في طريق العودة، كان المحامي يحلل ويستنتج، ولكن الذي سأكتشفه متأخرا أننا كنا مغفلين، وأن القضية لم تكن تتعلق لا بحنكة ولا بجبن، ولكن كان مخططا مدروسا بعناية.

كانوا في هذا الاجتماع يلعبون بنا كدمى المسرح، وقبل هذا كانوا قد اجتمعوا وحرروا محضرا في 4 دجنبر 1997، موقعوه هم جطو وبنهيمة وجواد الزيات، مدير التهيئة والاستثمارات بوزارة السياحة، التازي وكيليطو، وقرروا فيه قرارهم النهائي ونحن لم نكن نعلم. يستقبلوننا، يتفاوضون معنا، يعبرون عن ضجرهم، وعن الأمل أحيانا، وهم حكموا علينا بالزوال.

قرروا في هذا المحضر أن نخرج من ممتلكاتنا بدون تعويض، وأن تسلم المجموعة لأكور، والأدهى والأمر أنهم قرروا أن يدفع العلمي صوائر التفويت، ومن سوء الحظ أننا لم نتوفر على هذا المحضر إلا بعد أن غادرت هذه الشخصيات مواقع مسؤولياتها.

كانت مسطرة الحيازة في طريقها إلى التحقق قضائيا، عدت عند جطو قبيل رحيله:

- لماذا فعلتم بي كل هذا؟
- أتعبتنا، لقد سبق أن قلت لك أنني وعدت جلالة الملك بأن أحل المشكل قبل ذهابي ويجب أن أحله.
- ولكنك ستظلمني، أنا لم أهرب من أي حل اقترحته، ألم تقل لي كم تريد؟ وبسطت أمامك أرقامي المتواضعة، ألست مستثمرا مغربيا من نفس وطنك؟
- إن ملفك ممتاز، ولابد للقضاء أن ينصفك.
كان مؤتمر جنرال موتورز على وشك الانطلاق، وكان اهتمام وزير السياحة به كبيرا، عرفت أنه سيزور مواقع الاجتماع بمركزنا، فسبقته على أن أتخلص من جدار برلين الذي كانت تقيمه سيدة ديوانه بيني وبين الاتصال به.
دخل بنهيمة، فوجدني أمامه، أخذته في جولة حول المركب، رأى قصر المؤتمرات، وتعرف لأول مرة على فندق المنصور الذهبي، معلمة شامخة وسط مراكش الحمراء فانبهر، وكنت بجانبه أتأسف على رجل يقرر إلى اليوم في مصيرنا دون أن يكون قد رأى ما يقرر فيه دون أن يعاين ما نحارب من أجله وما تحمل جدرانه وسواريه من عرق جبيننا، قال بنهيمة:
- هذا رائع، إنه إنجاز بديع، ولكن لم تكن لتشيده!
- لقد شيدناه والماضي لا يعاد، وإذا كانت لي اليوم بعض المتاعب، فللمغرب والحمد لله قصر مؤتمرات.
استضفت بنهيمة بشقتي بالمنصور الذهبي، وكان معنا والي مراكش.
قلت لبنهيمة:
- إن معنا الآن شاهد وأريد أن أقترح عليك شيئا.
- تفضل.
- ماذا لو جئتكم بالمبلغ الذي جاءت به أكور، وتركت أكور

لتسير المركب على أن أبقى في ممتلكاتي؟
- اقتراح جيد وليس عندي مشكل.
- هل يمكنك أن تؤكد لي هذا الكلام من بعد إذا طلبت منك ذلك؟
- بطبيعة الحال.
- اتجهت صوب الوالي وقلت له:
- تذكر سيدي الوالي هذا الكلام.
بعد توديع بنهيمة، كتبت لوزير المالية أخبره بما جرى وأرسلت مذكرة لجلالة الملك أشرح له فيها تفاصيل العراقيل التي وقفت أمام إيجاد حل لمشكلتنا، وبسطت فيها كذلك الاقتراح الذي اعتبرته طريقا جديدا منقذا فتحه الوزير بنهيمة.
كنت بحاجة لرسالة من جطو يقر فيها باتفاقه المبدئي على الحل حتى أستطيع أن آتي بالأموال بنسبة فائدة لا تتعدى الثمانية بالمائة.
اتصلت بأحد محامي البيضاء وكان صديقا لجطو، فوعدني خيرا، ومن سوء حظه أن ما اعتقده سهلا كان صعبا للغاية، وتعب من اللقاءات مع جطو الذي أبدع بدعة أخرى عندما لم يعد يفصله عن القدر المحتوم، وهو مغادرة الوزارة سوى أيام:
- رأس العلمي صلبة، فقد طلبت منه أن يكتب لي نموذجا للرسالة التي يريد حتى أوقع عليها ولم يفعل.
أليس هذا ضحكا على الذقون؟ أليس في وزارة المالية كلها من يستطيع كتابة رسالة؟ ولماذا هذا التكتم؟ هل نعمل مع المخابرات الأمريكية؟
قال لي المحامي الذي أمطرته باستنكاراتي هاته:
- مالك ولهذا العناد، اكتب الرسالة.
كتبت الرسالة وأرسلتها كاتبتي لجطو وبنهيمة. اتصلت بوزارة السياحة، فكان جدار برلين هناك قائما لم يحطم. بعد ذلك طلبت

أن أرى جطو. قال لي:
- لقد ارتكبت غلطة العمر، وستؤدي عنها ثمنا باهظا، لماذا كتبت لصاحب الجلالة؟ ما الذي ذهب بعقلك؟
- ولكن آسي جطو، ألم أقل لك إنني منذ 1993 أحمل ما تنوء به الجبال وحدي؟ ألم أقل لك إن صبري قد عيل؟ ألم أطلب منك، بل استعطفتك أن تتخذ قرارا بسرعة ولو لم يكن في صالحي؟ ألم أقل لك اتخذ القرار الذي تريد وأنا أوقع عليه؟ ألم تقرأوا علي أنتم نص اتفاق كتبته ووقعته؟ ألم تطلب مني أن أتفق مع القرض العقاري والسياحي وفعلت؟ فماذا تريدني أن أفعل؟ أن أجن، أن أنتحر، إن ملاذي الوحيد كان هو جلالة الملك، وهو أرحمكم لو لم يكن هناك وسطاء سوء.
- المهم لم يكن عليك أن تكتب لصاحب الجلالة، والخلاصة هي أنني مغادر لمقعدي ورسالتك سأوقعها وسأتركها لخلفي ولعلو وافعل معه ما تريد.
- اسمع معالي الوزير القوة والجبروت لله وحده ولا شريك له فيها.
- إن ما تقوم به اليوم من مماطلة في المحكمة معتقدا أنك ستربح الوقت حتى يأتي الاشتراكيون إلى الحكم لن ينفعك، إنك دخلت المصيدة، ووالله لن تخرج منها أبدا.
خرجت وأنا أستغرب كيف يؤاخذني جطو على ما أرسلته إلى القصر الملكي وأنا لم أكتب في مذكرتي سوى الحقيقة.
واستحضرت المناخ الذي كتبت فيه هذه الوثيقة:
- آلو السيد المستشار.
- نعم السي عبد الهادي
- الله يطول عمرك أريد منك لقاء سريعا إذا أمكن؟
- مرحبا بك غدا في السادسة مساء.

وشرحت للمستشار ما يقع من تصرفات لا أفهمها.
- سيدي المستشار هؤلاء الوزراء وزراء صاحب الجلالة وأنت مستشاره وعلى علم تام بخبايا هذا الملف، ألا تتكرم أخيرا وتتكلم معهم؟
- الحقيقة أنهم أتعبوني كذلك.
- كيف ذلك يا سيدي المستشار؟
- أنا لست وزيرا أول ولا علاقة لي بالوزراء... صحيح وعدوني بإيجاد حل لمشكلتك ولا أفهم اليوم معنى هذا التراجع.
- سيدي المستشار، إني أكاد أجن. هل لي أن أطلع مولاي صاحب الجلالة على ما يروج في هذا الملف؟
- إذا كتبت هذه الوثيقة أنقلها لك إلى صاحب الجلالة.
- ألف شكر وأطال الله عمرك...
وحضرت المذكرة، وسلمتها إلى الجنرال القادري بدلا من أندري أزولاي لأن الشك أخذ يساورني، فما الذي يؤكد ما إذا لم يكن كل هذا مجرد سينما وسيناريوهات؟
هل من المعقول ألا يطالب السيد المستشار هؤلاء الوزراء باسم صاحب الجلالة الذي أعطى الضوء الأخضر لكريم العمراني حتى يقوم بإعادة رسملة شركة دنيا أوطيل بطريقة تحافظ على حقوق الجميع، وهذا شيء عاد جدا في أي بلد من بلدان العالم يسيره وزراء يستحقون حمل هذا الاسم.
لم يحرك أزولاي ساكنا لما أخبرناه أن "الإدريسيين" بنهيمة وجطو والبصري مع القرض العقاري أقاموا علينا دعاوى لإخراجنا من ممتلكاتنا، وكنا لا نصدق ما نسمع وما نرى كأننا نعيش فيلما سينمائيا حقيقيا.
أخذونا إلى القضاء ظلما وحولوا دفاعنا المشروع عن أنفسنا إلى مماطلة، كانوا يتقنون لعبة يتحول فيها الضحية إلى جلاد.

وفي خضم كل هذا وجدت الوقت، والشك يخالجني، في استشارة أحد أصدقائي وهو مفتش للمالية في فرنسا. ومن المعلوم أن المفتشية العامة للمالية في فرنسا أنجبت وزراء أولين ووزراء مرموقين وحتى بعض رؤساء الدولة مثل فليري جسكار ديستان.
- صديقي العزيز، هل لك خمسة دقائق، أنا محتاج إلى معرفتك الواسعة في عالم المال والأبناك؟
فأجابني بحفاوة:
- آلو عبد الهادي، كيف أنت؟ أنا رهن إشارتك.
فشرحت للرجل في كلمات وجيزة قصة تمويل مشروع قصر المؤتمرات: شيدت دنيا أوطيل فضاء في مراكش مخصص للمؤتمرات وغيرها وزودته بفندق كبير بعد اقتراضها من الأبناك ما كانت تحتاج إليه من تمويل بفائدة 13,5%، ولمدة عشر سنوات، وبما أن مردودية قصور المؤتمرات تكون إما منعدمة أو صعبة جدا لدرجة أنه لا يوجد في العالم مستثمر من القطاع الخاص خاطر بالدخول في مثل هذه المشاريع.
أجابني الرجل بهدوء:
- اسمع يا صديقي ليس لنا قصر مؤتمرات واحد في فرنسا لم تشيده الدولة أو لم تسهر على كيفية تمويله من طرف البلديات بالدعم المباشر.
لقد سمعت بمشروعك. هنا في فرنسا نستعمل عند الحاجة ما يسمى بإعادة التمويل، وهذا لا يتطلب جهدا كبيرا، فالعملية لا تحتاج إلى أكثر من أسبوعين أو ثلاثة.
فالوزارة الأولى أو وزارة المالية أو حتى البنك المقرض نفسه بإمكانها البحث على قرض بأقل تكلفة وتسديد القرض الأول وجدولة الحاصل داخل أطول مدة ممكنة يستطيع خلالها

المقترض تسديد ديونه. نحن الآن في فرنسا نقرض بـ5% ويمكنك الحصول على أقل كذلك بالأبناك الأمريكية. أودعك وأبقى رهن إشارتك.
أعدت سماعة الهاتف إلى محلها وقلت في نفسي إذا كانت هذه القصة تتطلب أقل من شهر لتحل ألغازها وتقفل فصولها، فهي تحتاج عندنا إلى سنين طويلة. فلنترك الأمر لله وقضاء البشر على الأبواب.

قضاء البشر

أصبحنا في النفق، القضاء يستعد ليقول كلمته، ونحن محاصرون بضرورة التهيئ لاستقبال المؤتمر الضخم لمندوبي شركة جنرال موتورز العملاقة بقصر المؤتمرات، ولكن مصباح مجموعة دنيا أوطيل أصبح لونه أحمر، وإشارة الخطر هاته كانت تجعل تهيؤنا لهذا الحدث باردا، إن لم نقل منعدما، لم نكن نعرف ما يخبئه المستقبل القريب. في كل صباح، كان بالإمكان أن يداهمونا.

كتبنا لوزير المالية من جديد. ولم يكن هناك جواب. كنا نتلقى الأجوبة في المحكمة حيث يقاضينا محامي الحكومة الذي سبق وأن عرضنا أمامه، في الاجتماعات المشتركة، تحاليلنا وعناصر ومكونات ملفنا. كنا مرة أخرى ساذجين، لم نكن نعرف أننا نقدم لخصمنا سلاحا ضدنا.

بعد الإلحاح، تمكنت من الاتصال بوزير المالية:

- آلو... السي جطو؟

- نعم.

- أنا عبد الهادي العلمي، كيف حالك؟

- بخير، هل هناك حاجة نقضيها؟

- تعرف السيد الوزير أننا بصدد التهيئ لاستقبال مؤتمر جنيرال موتورز، وهذا لا ينسجم بتاتا مع ما آلت إليه قضيتنا، ألا ترى أنه من الأليق أن تتدخلوا شخصيا لإيقاف ما يمكن إيقافه من مساطر قضائية ضد المجموعة؟

- آسي العلمي، لقد طوينا هذا الملف، وأنت كتبت لصاحب الجلالة ولم يصلك جواب، ونحن الوزراء طلب منا أن نقوم بالواجب. إن قضيتك قد حسمت ولن ينفعك إلا مواكبة تطوراتها حيث هي.
- وما هي هذه المواكبة؟
- أنت أدرى بها من أي أحد. وعلى كل حال، فالعدالة ستقول كلمتها قريبا، وستعيد للدولة هيبتها ويسترجع القرض العقاري والسياحي قروضه، دفاعا عن الصالح العام.
- ولكن هناك جديد السيد الوزير.
- ما هو؟
- إن لنا الآن رصيدا يقدر بـ30 مليون درهم، ونريد أن نعرف هل سنحوله للقرض العقاري والسياحي أو نتصرف في الصيانة وبعض المشتريات الخاصة بالمركب؟
- كم قلت؟
- 30 مليون درهم توصلنا بها من وكالة الأسفار الممثلة لجينرال موتورز.
- مزيان... مزيان. سأتصل بك غدا.
- ولكن السيد الوزير لم تبق إلا ثلاثة أسابيع على مجيء المؤتمرين لاجتماعهم المقرر في 25 يناير 1998 الجاري.
- سأتصل بك غدا.
أن لا يفي جطو بوعده في الاتصال، فهذا تعودنا عليه. أما أن يستغل ما أخبرناه به، ويعطي أوامره ليحجزوا كل حساباتنا في الأبناك بما فيها الشخصية وتلك المتعلقة بمؤتمر لم ينعقد بعد، فهذا ما لم يكن يخطر لنا على البال.
خطوة أخرى إذن أكثر شراسة، اعتقدوا أنهم جففوا منابعنا، ومن الألم، تحولت ألوان مراكش البهية إلى سواد، ولم تعد تبدو

حدائق المنصور الذهبي الزاهية ومعماره البديع وروعة قصر المؤتمرات إلا كساحة معركة خلفت دمارا يسيطر على الدواخل والجوارح.

ووجدت نفسي مندفعا إلى التفكير في معنى "الصالح العام"، وهي كلمة متداولة، يستعملها الموظفون غالبا في غير محلها! الصالح العام بالنسبة إلي يبدأ بنكران الذات وينتهي بالتضحية بالنفس إذا اقتضى الحال، وعن أي صالح عام يتكلم هؤلاء وليس فيهم الكثير ممن يتقي الله في الناس وفي أعراضهم وأموالهم وممتلكاتهم؟

إذا كنت لا أحب الصالح العام فما هو إسم ذلك المحرك القوي الذي يدفعني مدى حياتي المهنية الطويلة إلى خلق عشرات المؤسسات والشركات وتكوين وتأطير آلاف المشتغلين والعمال؟

أهي الأنانية الضيقة التي جعلتني طيلة عقود وعقود أعيش فوق طاقتي البدنية أكد وأجتهد غير عابئ بالتعب والإرهاق؟

أهو التحايل على الدولة ومصالح الناس أن أوزع الثروة والمال حولي غير مبال بمآلي ومصيري؟

أليس حب الوطن كاف لملء حياة بأكملها؟

الواقع أن هناك حولي من يستعمل كلمة الصالح العام ولا يعرف حتى معناها اللغوي، في زمان "الديبوياردیز" و"السيستام د" والخداع... ألم يصارحني أحد رفاقي القدامى بأنه أذكى مني، فوافقت واعترفت بذنبي حتى لا يغتاظ مني؟

كيف أحارب كل هذا الغرور وأفقد محبة الناس؟ يا إلهي أنر طريقي!.

بدأت لأول مرة أستسلم للعياء. جبل عنادي وصخور إرادتي

بدأت تضعف. أنا لم أهرب طوال حياتي من أي معركة كان لابد أن أخوضها ولكن كيف السبيل إلى معركة اليوم التي علي أن أحارب فيها الأشباح الذين لا يقاتلون إلا في الخفاء؟
قررت أن أغادر مراكش. كنت أحس أنه سفر غير كل الأسفار. إنه بمثابة هجرة.
اتجهت صوب بيتي القديم في ضيعة صغيرة بأحواز مدينة النخيل، كنت قد اشتريتها بسبع مائة ألف درهم كفضاء للعطل الأسبوعية، وتحولت إلى محل سكني دائم قبل أن أملكها لكريم ونادية عربون حب لهما وخوفا عليهما من تقلبات الدهر، ومكثت مع زوجتي الأولى النهار بأكمله، كنا نتذكر الماضي بغبطة ونتساءل عن المستقبل بخوف. لم أخف عن زوجتي قراري بمغادرة مراكش والاستقرار بالبيضاء.
ودعتها بحرارة قبيل غروب الشمس، وفي الحديقة، كان الكلب "برينو" يقضي آخر أيام حياته بعد أن أنهكه مرض جلدي لم ينفع معه علاج، رفع عينيه وبدأ ينبح نباح المتألم، اقتربت منه وبدأت أمسح أذنيه حيث القروح، وقد فهم لغتي وتغيرت نظراته وكأني به يحاول التخفيف عني.
اغرورقت عيناي بالدموع، فهرعت نحو سيارتي، وغادرت المنزل وأنا أحمل حقائب كبيرة متاعها الألم.
مثل هذا الألم الهادر لا يصادف الإنسان مرارا، وقد عرفته وأنا بأحد شواطئ المحمدية، كنا في منتصف النهار والحرارة لا تطاق حتى ونحن تحت مظلة كبيرة وبجانبنا ماء بارد.
ظهر فجأة صبي، كان حافي القدمين، عاري الرأس يحمل قارورة ماء يبيع منها للعطشى كؤوسا، عندما التقت عيناي بعينيه ذعرت، كان كمن حمل سبعين سنة من المعاناة

وهو لم يتجاوز العاشرة من العمر، لم أشعر حتى انتفضت، وسألته عمن يكون وعن أهله، ناديت بأعلى صوتي حارس منزل صديقي، سألته عن الولد وعن عائلته، فأجابني ببرودة أن من أمثال هذا الطفل الآلاف، وبعد خمسة دقائق، أحضر لي أمه، فغضبت منها، واستنكرت ما تفعله بقاصر، ووصفتها بالمجرمة، وبعد أن هدأت، قالت ببرودة: "آسمع آلغريب، لي سبعة أطفال، وزوجي متوفى، والحياة لا ترحم". لم أقتنع. أخذت قبعة ابنتي ريم، ووضعتها على رأس الصبي، وأعطيت أمه كل ما كان في جيبي واعدا إياها بالمساعدة، وهربت من أصدقائي لأجد نفسي أبكي من نفس الألم الذي انتابني وأنا أغادر منزلي بمراكش.

رفضت دائما أن يكون موطن استثماراتي هو الدار البيضاء. وأنا اليوم مجبر أن أقيم فيها. كنت أعتبر الدار البيضاء قبلة للذين يعشقون سهولة الربح من المستثمرين، وأنا لم أكن أجد راحتي إلا في الاستثمارات التي تأخذ من المرء الجهد وتجبره على المخاطرة ومواجهة المصاعب والسير في طريق الأشواك.

وإذا كنت قد استسلمت لعيائي، فإنني لم أحس أنني انهزمت. واستراحة المحارب هاته لم تدم إلا قليلا.

طلبت موعدا مع أستاذي عبد العزيز العلمي رئيس البنك التجاري المغربي. ولما حدد الموعد، رجعت صور الماضي المشرق تطل على الحاضر الكئيب.

كنت أنصت دائما إليه دون أن أسمعه؟ إن الله يعطي الحكمة لمن يشاء.

في اليوم المقرر للقاء، وجدت جون روبير ريزنيك مع عبد العزيز العلمي، بسطنا آخر تطورات الملف، فتدخل عبد العزيز:

ـ أنا أظن أن كل ما حصل هو مجرد سوء تفاهم لا غير.

أنت السيد العلمي لا تعارض مشروع أكور، بل إنك وافقت واتفقت، وأكور لا تزال مستعدة لإتمام ما بدأت فيه. أكد وزير المالية ما التزمت به، وسيخلف الله لك كل شيء.
في هذه المرة لم أنصت فقط لعبد العزيز العلمي ولكن سمعته، وفعلت ما اقترحه علي، وفي الخامس من شهر يناير 1998، كتبت الرسالة التالية لوزير المالية إدريس جطو:
"السيد الوزير
تبعا لاتصالينا الأخيرين، واللذين سلمت خلالهما لمصالحكم التزامي بتفويت مجموعتي لأكور، أتشرف بأن أخبركم بأنه ابتداء من يومه الاثنين 5 يناير، فإن كل الممتلكات المزمع تفويتها للمجموعة الفرنسية هي رهن إشارتها.
لقد كنت قد وعدت بأن أتفق مع شركائي، وأن أجد معهم خطة استئناف مفاوضات بسرعة تتماشى مع توجيهاتكم...
وأريد أن أعبر لكم هنا عن خالص امتناني لسماحكم بتحقيق أسس إعادة الهيكلة هاته، التي أساهم فيها، كما لاحظتم، بجدية وتفان وليس لي كهدف في النهاية إلا إنقاذ هذا التراث الرائع الذي بنيته.
وابتداء من الآن، لم يعد للمتابعة القضائية من طرف القرض العقاري والسياحي ضد مجموعتنا أي سبب للاستمرار، وسنكون ممنونين لكم إذا استعملتم سلطاتكم لإنهائها، لنتجنب أي مخاطر انزلاق من شأنه أن ينحرف بمجموعتنا غداة مؤتمر جينرال موتورز.
وتقبلوا سيدي الوزير فائق تقديراتنا"
أخبرت جون روبير ريزنيك بالرسالة وأخبرت المستشار أندري أزولاي كذلك:
- آلو السيد المستشار.

- نعم السيد عبد الهادي العلمي.
- السيد أزولاي. لقد وصلوا معنا في الملف إلى حدود لم نكن نتصورها. فلم يكتف القرض العقاري والسياحي والوزراء بتهديدنا، بل حجزوا أموالنا ورفعوا دعاوى ضدنا، ولقد كتبت للسيد جطو فلم يجب حتى بالهاتف. وأنت السيد المستشار أعلم الناس بخبايا هذا الملف.
- Quel gâchis
- ما المعمول الآن؟
- أظن أن القضية الآن السيد العلمي، هي أن تهيئ الفندق وقصر المؤتمرات لاستقبال ضيوف المغرب وضيوف صاحب الجلالة، وأنا أعتمد عليك في هذا.
- كيف تعتمد علي، السيد المستشار، وقد قلت لك أنهم حجزوا جميع أموالنا بما فيها أموالي الخاصة في حساباتي الشخصية؟!
- نعم، نعم، ولكن ماذا يقول جطو وبنهيمة؟
- سبق أن تحدثت مع بنهيمة بمراكش، واتفقنا على حل، وكاتبت بشأنه الديوان الملكي ووزير المالية وكاتبتكم كذلك.
- السيد العلمي. هذا كلام لا يتناسب مع الظروف الخاصة التي نعيشها الآن. الله يخليك، المهم الآن هو جنيرال موتورز، ويفعل الله خيرا في الأشياء الأخرى.
- نعم السيد المستشار. شكرا، شكرا جزيلا.
أحسست بالاختناق. لم يكن هناك أوكسجين. وبحثا عن النوافذ، كاتبت الوزير الأول ووزير الداخلية والجنرال القادري ووالي ولاية مراكش ولمفضل لحلو وإبراهيم فرج وعبد الكريم بناني و...، وشرحت في رسائلي كيف أن دنيا أوطيل جاهدت من أجل إيجاد الحل المناسب للجميع، وكيف أن الإدارة أخفقت في تحقيق هذا الحل من الناحية التقنية ونسبت لنا هذا الإخفاق، مع أننا لم

نغير أبدا اتجاهنا، ولم نبدل في التزاماتنا.
إلا أننا اليوم أمام الطريق المسدود. إنهم يقاضوننا أمام المحاكم، وربما نفقد كل شيء. وهذا شيء غير معقول. فهل يعقل أن تكون مقاولة مغربية على حافة الانهيار وأصولها تضاعف خصومها ومشكلها الوحيد هو السيولة؟ إننا لم نعد قادرين على فهم ما لا يفهم.
وأخبرنا مخاطبينا كذلك بأن المحكمة الاستعجالية لمراكش تنظر في دعوى للقرض العقاري والسياحي لا يطلب فيها تسديد الأقساط الثلاث التي تأخرنا عن دفعها، ولكن يطلب أن ندفع الدين بأكمله. إنها قمة العبث.
لم تمح الكلمات والمكالمات الخطر المحدق بنا. ومثل هذه الوضعية لا تدفع المرء إلا لاستحضار الحصيلة ومحاسبة الذات.
أنا لم أندم. الحياة تجربة كبيرة، والنتائج فيها لا تقاس بإرادة الواحد منا وحزمه، ولكنها تتأثر كثيرا بالمناخ الذي يتحرك فيه.
لم يكن المناخ الداخلي وحده ملوثا ومعرقلا، بل إن كل محاولاتي للبحث عن شريك جديد أو ممول مختلف لم يكن لها إلا طريق واحد هو الخارج. وأول الطريق كان لسعة من أكور، والذين جاؤوا بعدها لم يكونوا أحسن منها.
في هذه الظروف الصعبة جاءت هبة ثانية من الله خففت الوطأة.
وللمرة الثانية حملت غزلان وولدت بنتا استبشرنا بقدومها في سنة الأهوال وسميناها غيثة، ولقد أبانت لنا الأيام أنها الغيث بنفسه بابتسامتها الساحرة وطبعها الهادئ، وفاجأتنا بمجيئها صباح يوم الخميس 16 يوليوز 1998 في نفس عيادة صديقي الأستاذ يوسف بوطالب، فأصبح لريم أخت تشاطرها بيتها

وعالمها الصغير، ولكن طريق المواجهة ظل مفتوحا.
خضنا مفاوضات قاربت السنتين مع شركة "سيمكو" لنكتشف أن رئيسها لا يملك إلا ما يعيش به أو يكاد. صدمنا بالمستثمر المغربي بالإمارات الذي يدعى المندري وبعدة سماسرة إنجليز وأمريكيين وإيطاليين وألمان وعرب. أما المجموعة الجنوب إفريقية "سطوك أند سطوك" التي أعلنت في الصحافة استعدادها لاستثمار مليار دولار في المغرب فلم تكن مختلفة عن الجوقة.
تعرفت على المجموعة من خلال رجل بسيط حلو المعشر، ساهمت في إدخاله إلى الإسلام وشجعته على الزواج من مغربية. وعندما سافرت مؤخرا إلى بريطوريا، والتقيت رئيس المجموعة فناشدني أن أجد له ممولا لا يغير من وضع مجموعته لدى الأبناك! لم أمكث عنده إلا ليلة واحدة، وعدت إلى المغرب.
أما شركة ويستين، فرئيسها المسكين من أصل ألماني جن أمام متاهة الإدارة المغربية رغم أن عروضه كانت ممتازة، حيث إنه في هذا الملف كله كان الوحيد الذي أعطى ضمانات مالية ملموسة. وقد غادر المغرب يائسا من هذه الإدارة العجيبة.
قضينا مع كل هؤلاء أوقاتا إن لم تسفر عن شيء، فإنها ملأت فراغ انتظارنا لقرارات إدارة كانت تفعل ما تريد.
كان بودي أن أقطع جميع خطوط الأمل وأنخرط في انتظار القدر. ولكن كان يصعب علي ذلك.
اتصلت برئيس مصلحة الخزينة بوزارة المالية:
ـ آلو السيد التازي.
ـ نعم.
ـ أنا عبد الهادي العلمي، لقد زرت رئيسك مرارا وتكرارا، وزرتك أنت كذلك، وتركت لكم ملف قضيتي منذ 1993.

فهل من حل قبل أن يحمى وطيس حرب القضاء؟
- الحل بيد الله.
- صحيح، ولكن ما الجديد؟
- الجديد هو أننا ننتظر الوزير الاشتراكي.
- ألم تقل مثل هذا الكلام عندما كان سيأتي الوزير جطو؟
- إن حل قضيتك يحتاج إلى قرار سياسي.
- ولماذا لا يكون هذا الحل تقنيا ماليا صرفا مادامت أملاكي تغطي جميع ديوني ولا تنقصني إلا السيولة؟
- هذه هي المشكلة بالطبع.
- آسي التازي، لنتكلم بصراحة. لماذا انتظرتم كل هذه السنين لتطالبوا القرض العقاري والسياحي بالحزم. ألم تكونوا على علم بأن له ديونا لم يستخلصها لأسباب دفعت الحكومة إلى تقديم دعم يفوق 800 مليون درهم للقطاع الفندقي؟!
- نعلم هذا، وماذا بعد؟
- أمن المنطقي أن تصموا آذانكم وتغمضوا أعينكم وتحجموا عن التدخل في ملفات استثمار وجدت لتخدم مصلحة البلاد قبل أن تخدم مصلحة أصحابها؟
- دعني أؤكد لك السيد العلمي أن ملفك لن يحل إلا بقرار سياسي.
- نعم، ولكن بأي نوع من القرارات قدمت وزارتكم دعما بعشرات مئات الملايين إلى صاحب مشروع صيد بحري وغيره؟
- أنا لا علم لي بكل القضايا والملفات.
- شكرا على كل حال.
- يا سيدي، كن متأكدا أننا في مصلحة الخزينة درسنا ملفك، وقدمنا بشأنه وفي كل مناسبة اقتراحات حلول، منها ما جاء

بصددها الرد، ومنها ما لم يأت أي جواب، وما جاء عليها الرد لم تكن تتضمن تعليمات يمكن أن تدخل حيز التنفيذ.
- حسنا، وماذا تتوقع أن يحصل مع قدوم الوزير الاشتراكي الجديد؟
- يفعل الله خيرا.
- شكرا مرة أخرى، وإلى اللقاء.
مثل هذا الحوار أجريته مع عدة مسؤولين في المالية والسياحة والوزارة الأولى. وفي كل مرة تتقوى صدمتي. وأستغرب أمر هذا البلد الغني بما حباه الله به والفقير لرجال إدارة قادرين على اتخاذ قرار حاسم وواضح، ولو حتى بالرفض التام وبتطبيق أي حكم يعيدنا إلى أنفسنا وينتشلنا من هذا الضياع الذي نعيشه في وسط اللامسؤولية.
كنت أواصل حياتي اليومية مع عائلتي بشقتي بالطابق السادس من نفس العمارة التي كانت تحتضن أسبوعيتنا "مغرب اليوم" بشارع الزرقطوني.
وقد تأزمت وضعية هذه الجريدة بعدما عجزت عن مواصلة دعمها ماديا، كما كانت شهرية "مغرب ماغازين" قد توقفت بعدما رفضوا دعمها ولو معنويا. ورغم كل هذا، مر مؤتمر جنيرال موتورز في ظروف جيدة وبدون أي حادث. ولكن الذي كان يهيأ مرة أخرى كان أخبث.
فبمجرد مغادرة آخر مؤتمر للمركب، بت قاضي الاستعجال، محمد يشو، في القضية طبقا لقراءة قانونية شخصية طعن فيها الأستاذ الكبير والوزير السابق محمد الإدريسي العلمي المشيشي في دراسة قيمة. ولم يكتف القاضي يشو بالحكم غير المناسب، وإنما أمر بتطبيقه بسرعة.
كان الأستاذ العلمي المشيشي يقول في ملخص دراسته:

"... فيما يتعلق بالأوامر الإستعجالية الصادرة عن كل من رئيس ابتدائية مراكش وابتدائية وارزازات والرئيس الأول لاستئنافية وارزازات.

الأمر الصادر عن رئيس المحكمة الابتدائية بمراكش حاد عن الصواب لرفضه العمل بقواعد الاختصاص المحلي، ولتأويله أجل الإنذار القانوني مع إغفال مدلول الحد الأدنى المنصوص عليه في المرسوم الملكي لسنة 1968 المنظم للقرض العقاري والسياحي، ولنطقه بالحيازة والتسيير دون تحديد واضح لنطاق تطبيقهما.

الأمر الإستعجالي الصادر عن رئيس المحكمة الابتدائية بوارزازات جانب الصواب لذات الأسباب المتعلقة بالاختصاص والإنذار وعدم توضيح نطاق التسيير، ولبته في موضوع النزاع فيما يخص قيام الدين وسابق أداء جزء منه.

الأمر الإستعجالي الصادر عن الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف بوارزازات حاد عن الصواب لارتباك تعليله بين القبول والرفض للحيثية المتعلقة بهوية خصم، ولمساسه ولتطبيقه مقتضيات مدونة التجارة عقد التسيير الحر والبت برفضه، ولتطبيقه مقتضيات مدونة التجارة بشكل مبتور في تكييف شروط العقد المذكور".

جاؤوا على الساعة التاسعة صباحا بصحبة القوى العمومية، ولم يسمحوا لموظفي دنيا أوطيل بمجرد جمع وثائق الشركة وحساباتها ومستنداتها. وأخرجوهم من مكاتبهم بالقوة كالمجرمين.

كان محامو الشركة يعتقدون خطأ أن إدريس جطو لن يطلب تنفيذ الحكم مادام يخطط لبيع المجموعة لأكور، ولابد أن يجنحوا إلى الحلول التوافقية، إلا أن الواقع أكد أن أكور لم تكن تجنح إلا

لجشعها وهو ابتلاع دنيا أوطيل بأية وسيلة.
وبعد هذا بقليل، انتقلوا ليستحوذوا على فندق كرم بلاص بوارزازات مع إقامته طبقا لمسطرة استعجالية لا تتماشى هي الأخرى لا مع المنطق ولا مع القانون.
هكذا أصبحت أيام دنيا أوطيل مظلمة، لقد مرت على عودتنا من أرفود 14 سنة، ومن سوء الحظ أن كل اهتمامي كان متجها إلى قاعات المحاكم بمراكش!
كان لابد من فرصة لأفجر ما يعتمل بصدري من غضب، فكانت التلفزة. في نشرة الأخبار الفرنسية الرئيسية بدوزيم، كان أول عنوان يقدمه الصحفي شعيب حمادي هو "قضية قصر المؤتمرات: عبد الهادي العلمي يشدد اللهجة". ومباشرة أحال المشاهدين على ربورتاج في الموضوع.
الصور كانت تظهر شوارع مراكش ليلا، ووصلت الكاميرا إلى قصر المؤتمرات وكان في غاية الروعة، وخرج صوت الصحفي هشام الدشراوي وهو يصف مسلسل القضية:
"يوجد مجموعة من الفندقيين ضمنهم عبد الهادي العلمي في المأزق وذلك لتراكم الديون عليهم وعدم احترامهم لبروتوكولات تسديدها، وهكذا لجأ القرض العقاري والسياحي في مارس المنصرم إلى القضاء وحجز مركب المنصور الذهبي.
ولما كان هذا المركب هو قاطرة السياحة بمراكش وفي المغرب عامة، فإن القرض العقاري والسياحي لم يرد أن يباشر التسيير بنفسه، لهذا، خاض مجموعة من المفاوضات مع مجموعات فندقية دولية ومغربية. وقد وقع الاختيار في النهاية على مجموعة أكور في 21 دجنبر.
إلى هنا يبدو أن الصفحة طويت، ولكن عبد الهادي العلمي لا يراها كذلك وينازع في طريقة تفويت التسيير لأكور".

وأحال الدشراوي المشاهدين على موقف القرض العقاري والسياحي من خلال مديره العام الذي كان ضيفا على نشرة سابقة بتاريخ 24 دجنبر. وظهر شعيب حمادي وهو يسأل عبد الواحد سهيل عن سبب التخلي عن عرض مجموعة سطوك أند سطوك.

فقال سهيل:

"ليست هناك مجموعة سطوك أند سطوك فقط، ولكن هناك مجموعات إسبانية مغربية، ولقد قلنا بما أن الأمر يتعلق بمركب سياحي هام وببنك له دين كبير، فلابد من مقياسين لتحديد اختيارنا، المقياس الأول هو حجم الأرباح التي ستعود على البنك من خلال التسيير، والمقياس الثاني هو أن تكون المجموعة المسيرة في مستوى حجم المركب السياحي وكل هذا كان متوفرا في أكور".

انتهى الربورتاج. ورجعت الكاميرا إلى الأستوديو، حيث قال شعيب حمادي، إن عبد الهادي العلمي غاضب، لهذا يوجد معنا هنا. وسأل:

- يبدو الأمر سليما بما أن القرض العقاري والسياحي حجز الفنادق بعدما عجزتم عن أداء ديونكم، وبعد ذلك عهد بالتسيير لمجموعة دولية محترفة، فما هو سبب غضبكم؟

- يجب أن أوضح من البداية أن ما سأقوله لا يستهدف مجموعة أكور، فليس لنا شيء ضدها، وأنا شخصيا جئت بالمجموعة للمرة الثانية إلى المغرب بعدما كانت قد أخفقت في المرة الأولى، ولي علاقات ودية مع مسيرتها منذ مدة. المشكل هو أن مسلسل القضية ليس هو بتاتا ما جاء في ربورتاج زميلكم قبل قليل.

لقد شيدنا سنة 1989 قصر المؤتمرات بروح وطنية نضالية،

واستثمرنا في ثمانية عشر شهرا ما ستستثمره أكور بمساعدة عدد من المؤسسات والأبناك وشركات التأمين خلال سنوات.
شيدنا قصر المؤتمرات بعدما قلنا للسلطات العمومية أننا قادرون على تشييده، ولكن قصرا للمؤتمرات ليس مطعما أو مقهى، لقد شيدناه بحب ووضعنا فيه كل أموالنا وخبرتنا، واستطعنا أن نبني أربعة وتسعين ألف متر مربع في ثمانية عشر شهرا، وكونا الأطر وهيأنا الطريق التجاري واشتغلنا بكل قوانا، ولكن لم نستطع بعد هذا أن نواصل، فَطِنَّا إلى أن هناك مشكلا من البداية، وراجعنا السلطات العمومية، وقلنا حذار، فتوقعات استغلال المركب التي ارتكزت على 60% من تشغيل غرف الفندق وكراسي قصر المؤتمرات لم تتجاوز 40%. فالقضية تهم مراكش ككل، وهي ظرفية والحلول التقنية موجودة إذا حسنت النيات وجعل حد لتدخل اللوبيات.
لقد قيل لنا من طرف السلطات العمومية، وأحتفظ بالوثائق في الأرشيف حول ذلك، بألا نقلق، على أساس أنهم سيجدون لنا شركاء، تماما مثل الصيغة التي وجدت للقناة الثانية فيما بعد، وانتظرنا سنة 93 و94 و95 وحتى 96 ولا أحد تحرك. مئات الإجتماعات ومئات الرسائل وطلبات التحكيم، ولا أحد حرك ساكنا، هذا في الوقت الذي نجد فيه مقاولين تمت مساعدتهم كصندوق الضمان الذي أعفى مقاولا في الصيد البحري مما قيمته خمسين مليار سنتيم، ولن أدخل في تفاصيل أكثر. المهم، أن تجاوب السلطات العمومية لم يجد امتثالا من طرف الإدارة.
إن مشكلتنا مع القرض العقاري والسياحي كانت في الفوائد على الديون التي وصلت إلى 32 مليار سنتيم، إننا لسنا مقترضين سيئين، والخلط هو أن نوضع في خانة المستثمرين العاديين. هذا خطأ، وأعتقد أن القضاء سينصفنا لا محالة في هذا الملف وكنت

ممن يؤمنون بالقضاء المغربي ويثقون في مقدرته وخبرته. وكانت هذه هي تجربتي الأولى معه. وأظهرت الأيام فيما بعد أن حدسي كان صائبا.

هذا جوابي الأول على ما قلت، جوابي الثاني هو أنني لست متفقا مع السيد سهيل، فعندما استقبله جلالة الملك نصره الله قال له يجب أن يحصل الديون التي تستطيع وتعمل على تخفيف الفوائد، وتحاول أن تساعد المغاربة. فمن ساعدنا نحن؟ لا أحد. إننا نطلب عُشُرَ ما تعطيه السلطات العمومية للأجانب ولا نحصل على أي شيء، ما حصلنا عليه هو أن قدمنا للقضاء.

- هناك نقطة أخرى تثير غضبكم وهي عرض سطوك أند سطوك المرفوض.

- إنهم يمكرون، إن لنا ملفا صلبا يسائل جميع الحكومات منذ حكومة كريم العمراني الثانية إلى هذه الحكومة التي لم تستقبلنا، إننا لا نحظى إلا بالقليل من الإنصات من طرف الحكومة الاشتراكية وأغلب وزرائها هم أصدقاء دراسة وينتمون لنفس جيلي.

- بماذا تؤاخذون الحكومة الحالية والحكومات السابقة؟

- اسمع، ليس أي أحد يمكن أن يشيد في بلد قصر مؤتمرات، إن الدولة هي التي تقوم بهذا، فلماذا يريدون رمي أصحاب "دنيا أوطيل" إلى الشارع؟ ألم نستثمر 400 مليون درهم في هذا المشروع؟ إنهم اليوم يهددوننا بالشارع، ولن نتركهم يفعلون.

لقد طبقت معنا لغة مزدوجة، من جهة يقولون لنا لا تصرحوا بشيء ولا تتواصلوا، فالأمر سيحل، ومن جهة أخرى يمكرون. هذا غير معقول.

- أنت الآن تهدد بمقاضاتهم.

- إن بلديكوّنني، وجعل مني ما أنا الآن، ولكن ماذا تريدني أن

أفعل؟ إننا مضطرون اضطرارا للجوء إلى القضاء حتى نفسر له أننا عندما كنا نقول للقرض العقاري والسياحي بأننا قادرون على الأداء- ويجب أن تعلم أنهم جرونا إلى القضاء لمجرد تأخير أداء ثلاثة أقساط كان يرفض...
- ولكن ألا تعتقد أن طموحكم كان أكبر من اللازم عندما شيدتم مركبكم؟
- ولم لا، فطموحي سيظل دائما وإلى آخر أيام حياتي أكبر من أجل بلدي، وسأبرهن لكم على كل شيء. عندما أحسسنا أن هناك خيوطا تحبك في الخفاء، ذهبنا عند البنك وطلبنا منه تسديد أقساطنا بضمانة دولية، لكنه رفض. وأخذونا للقضاء. فليكن. سنذهب إذن للقضاء.
إن قصر المؤتمرات اليوم حقيقة مجسدة، وهو معلمة تضخ الدماء في شرايين اقتصاد المدينة الحمراء، ولكنني مقيم بالدار البيضاء، أعيش على الذكرى وأنتظر أملا أعتقد بإيمان راسخ أنه الإنصاف.
إذا كنت قد بددت الجزء الأكبر من حياتي في معارك البناء والتشييد، فإن معارك اليوم أكثر ضراوة. إنها معارك ضد الخواء وضد الأشباح وضد اللامنطق. إن شعوري لا يختلف عن شعور المظلوم- إن لوحته تصبح بلون واحد قاتم، ولكن الظلم يفجر مناعة طبيعية تبدأ بالانتظار وتتحول إلى آمال، وكل هذا يظل يتصارع داخل المرء مع أحاسيس قاسية كاليأس والإحباط.
هكذا كانت دواخلي عندما اتصل بي مساعدي بنجامع العلمي في إحدى صباحات أبريل ليخبرني بأن محامي الشركة رجح أن يكون لديه خبر جميل في اليوم الموالي.
كانت الأمور مضببة بالنسبة لبنجامع، وعندما جاءني هاتفه

وهو يحمل وعدا بخبر سار وبعض الاحتمالات، قضيت نهاري وليلتي وأنا أسبح في عشرات الأسئلة التي لا تنتهي.
رجعت إلى أوراقي، قلبت الجداول والرسائل والتصاميم والأرقام والمذكرات والأفكار المدونة، قرأت مقدمة آخر احتجاج وزعته على الصحافة والمسؤولين: "... جرنا القرض العقاري والسياحي أمام القضاء، ضدا على القانون، حجزت ممتلكاتنا وأموالنا وسمح هذا البنك لنفسه بالاحتفاظ بضعفي قيمة دينه علينا.
وكان موقفنا خلال هذه السنوات التي توالت علينا فيها خيبات الأمل هو الصبر، إلا أن هذا الأخير عيل لما رفض القرض العقاري والسياحي حلا منصفا للجميع هو عبارة عن عرض تسيير في أفق شراء مركبنا من طرف شركة دولية وفضل المجموعة السياحية الفرنسية "أكور" باتفاقية تسيير لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد وبدون ضمانة أو مبلغ كراء قار.
إن هذا يعني ببساطة أنه لم يعد لنا الحق فيما بنيناه خلال 25 سنة، وإلا فمتى سينتهي مسلسل هذا التسيير ونحن لا نراقب شيئا؟
لهذا قررنا أن نحتج على القرض العقاري والسياحي، وعلى الذين لم ينفذوا حلولا رسمية منذ سنة 1993 وكانوا سببا في تراكم فوائد ديوننا، كما قمنا بالاحتجاج على الصمت وعلى إهمال ملفنا من طرف المعنيين.
إن يقيننا راسخ في أن ما وصلت إليه أحوالنا هو نتيجة مخطط مدروس كان يهدف منذ البداية إلى الاستحواذ على ممتلكاتنا".
تساءلت عما إذا كان المستحيل سيتحقق، وعن قدرة حكم فرعي رفعه بعض دائنينا الصغار على تغيير مجرى هذه الوضعية الشائكة التي أصبحت واقعا جبارا يستعصي على التطويع.

في ذات الليلة استعدت احتمالا طرحه محامو الشركة حول دخول دنيا أوطيل إلى التسوية القضائية.
وصلني فاكس في الصباح من الأستاذ المستاري محامينا بمراكش، التهمت سطوره متحديا عدم وضوحها: "يطيب لي أن أخبركم أن المحكمة التجارية بمراكش قد أصدرت حكمها لصالحكم، وذلك بتقرير التسوية القضائية ضد شركة دنيا أوطيل المالكة لفندق المنصور الذهبي وقصر المؤتمرات وإقامة المنارة ومقركم التجاري الجهوي المتواجد بمراكش".
حكم لصالحنا وضد شركتنا؟! فعلا. هذا هو التناقض الذي يصبح حلا في مثل هذه الملفات التي لا يضبطها وكان على كل حال هذا فهمي آنذاك.
اتصل بي بنجامع مرة ثانية، خضنا في نقاش تختلط فيه الأسئلة بأشباه الأجوبة، قلبنا الموضوع من جميع الجهات، أعدنا قراءة الفاكس عشرات المرات، وقفنا على الكلمات، كنا نبحث عن جواب لسؤال واحد: هل نعتبر الأمر خبرا سارا أم لا؟
كانت الحاجة إلى الفرح بالنسبة لي توازي الحاجة للأوكسجين بالنسبة لغريق، لذلك قررنا أن نكون فرحين. هكذا تتحول الأحاسيس في مثل هذه الأوضاع إلى أشياء تتخذ بقرارات.
كانت تكهنات المحامين إذن على صواب، وعندما أخبرتهم بالمستجدات رد بعضهم التأكيد أن هذه القضية لا يمكن أن تحل إلا بالتسوية القضائية، وفهمنا أن هذا هو ما يمكن أن يدفع به إنسان، خسر الرهان، لحفظ ماء وجهه. والواقع أن مسطرة التسوية القضائية كانت جديدة علينا كلنا. كانت جديدة على المحامين الذين اعتادوا أن تقضي صعوبة المقاولة إلى الإفلاس، وكان الأمر جديدا على المحكمة كذلك، وعلى السنديك الذي سيدبر هذه التسوية، وعلى القاضي، وجديدة كذلك على محاميي

خصومنا الذين علقوا على هذا الحكم في الصحف بأن قضية "دنيا" ستمضي لا محالة إلى الإفلاس.

وفي نفس يوم وصول الفاكس، أرسلت من يبحث عن كتاب للقانون التجاري بإحدى المكتبات وعكفت على قراءة الفصول الواردة في رسالة المحامي، وفهمت أن الشركة غير معرضة للخطر.

إن الحكم بالتسوية القضائية يصدر في حق شركات لم تصل بعد إلى حالة الإفلاس، ويعطيها القضاء فرصة لمراجعة حساباتها وتقديم برنامج للإصلاح، وإذا اتفقت المحكمة على هذا البرنامج، يكون أمام الشركة 10 سنوات لتسدد ديونها بضمانات كافية مقبولة من طرف القضاء، وإذا وصلت قناعة المحكمة إلى أن الشركة ليست لها إمكانات لمواجهة إكراهاتها المالية، يمكن أن تطبق صيغا أخرى تتراوح بين البيع أو البحث عن شركاء جدد أو التصفية القضائية، والاحتمال الأخير لا يطبق إلا في حالة الضعف الشديد للمداخيل وللأصول.

عندما توصلت بنسخة من الحكم، واطلعت على حيثياته، تأكدت أن المحكمة لم تصدر حكما يهدد شركتنا لأن أصول هذه الأخيرة تغطي خصومها، وعلى الرغم من هذا، لم تتبدد تخوفاتي، وكان ذلك شيئا طبيعيا.

عشت منذ 1993 في حلقة مفرغة تبدأ بأمل وتنتهي بخيبة أمل، فيعود الأمل ثم خيبة الأمل. كنت مرهقا معنويا، وكانت حبال الثقة التي أصر على التشبث بها مجرد حبال للهروب من اليأس، وليست شعورا طبيعيا خالصا، وكان طبيعيا أمام هذا الحكم أن أظل متخوفا، أن تحذر نفسي نفسي، أن أشك في ما إذا كان الأمر فخا جديدا.

في هذا الأسبوع كنت أجمع عناصر الفرح حبة حبة، حتى إذا

شارفت السبحة على الاكتمال تقطع خيطها وتبدد الشعور، وكنت أجمع عناصر الحزن فتنفرط، وكان صوت الإيمان يصدح داخلي.

ألا يكون القاضي الذي حكم لنا بما حكم به ضدنا قد سخره الله ليضع حدا لهذه المأساة التي أودت بطعم الحياة أو تكاد؟

إن الحكم في النهاية كان في عمقه يقترب مما كنا نطالب به منذ سنة 1993. كنا نطالب دائمبلحَكَمٍ، وزير أول كان أو وزير مالية أو وزير سياحة. المهم أن يكون هناكحَكَمٌ ينصفنا، كنا نطلب من يخصص وقتا لدراسة ملفنا ويقترح علينا حلا سواء في إطار التعليمات السامية التي أعطيت سنة 1993 أو في إطار آخر، كنا نطمح أن نتخلص من هذه الهوامش لنعود إلى الطريق المعبدة ونرجع إلى مهنتنا الأصلية وهي الأشغال الفندقية والسياحية، ولكن مشيئة الله أرادات أن يظهر بصيص الأمل في هذا الوقت بالذات.

منذ يوم الأربعاء 5 مارس 1997 حيث اقتحمت القوى العمومية فندق المنصور الذهبي وأخرجت موظفي دنيا منه، بدأت لأول مرة، مع بصيص الأمل هذا، أشعر بما يشبه التمزق بين الاستسلام والصمود. التسليم بقضاء الله، والصمود أمام المحن دفاعا عن مبدأ الكرامة حتى النهاية.

صحيح أن نظام حياتي اليومية تغير كثيرا، وكدت أنسى معنى اجتماعات المجالس الإدارية وحروب الفاكس والمذكرات وكذا المطاردات بالهاتف، ولكنني لم أصل إلى درجة الخشية من سرير النوم. كنت آخذ قسطي من الراحة، غير أنني لما أستيقظ، لا أشعر بذلك النشاط المتوهج الذي كان يغمرني في الأيام الخوالي.

صباحاتي اليوم متشابهة، لا حزن عميق ولا أمل كبير، ولما

أتجول بجنبات منزلي بالبيضاء، أحس أحيانا كأني سجين نفسي. حتى حوض الأسماك الذي كان يحتضن عشرات السمكات الصغيرة لم تبق فيه إلا أربع سمكات.

لابد من طرد هذه السحب الرمادية، ولعل الوسيلة التي كانت متاحة لي في هذه الظروف هي الكمبيوتر وطاقته الهائلة على السفر بك، عبر شبكة الأنترنيت، من قارة إلى قارة في بحر من المعطيات لا قعر له.

جلست أمام الشاشة. ضغطت على زر. سألت عن أكبر الشركات الفرنسية في القطاع الفندقي، فكان الجواب عبارة عن لائحة ضمنها اسم أكور.

كانت أرقام هذه الشركة ضخمة: رأسمال، أرباح، احتياطات للاستثمار. وتساءلت: ترى لو لم يفتح أمامهم في المغرب أبواب خاصة للربح السهل، ألم يكونوا قد اشتروا دنيا أوطيل في يوم واحد ودفعوا ثمنها بأكمله؟

مساء نفس اليوم، خرجت إلى مكتبي بشارع الزرقطوني لمقابلة الأستاذين العباسي والفقير. محاميان جديدان للشركة عوضا بعض الأساتذة القدامى.

فتحنا ملف التسوية القضائية.

كان المحاميان يؤكدان أنهما كانا على صواب عندما نصحونا بقبول حكم التسوية القضائية وعدم الطعن فيه. ولكن عبد العزيز بنجامع ظل مع ذلك قلقا:

- ولكن الحكم ينص على أن القرض العقاري والسياحي يقوم مقامنا، وهذا غير مقبول.

وأجابه الأستاذ الفقير:

- هذا غير صحيح، والجملة التي نشير إليها في الحكم القائلة بـ"أو من يقوم مقامه" لا تعني قطعا القرض العقاري والسياحي،

وإنما تعني أي مسؤول في شركة دنيا يقوم مقام رئيسها عند غيابه. كان معنا خبير حسابات تدخل أكثر من مرة وأكد بقوة ما ذهب إليه الأستاذ الفقير :
- إن التسوية قررت لإيجاد مخرج للمقاولة. من يقول المقاولة يقول رئيسها المسؤول الأول والأخير عن مصيرها.
استمر نقاشنا ساعات. وخلصنا إلى الاطمئنان لسير العدالة، وانتظار تاريخ 7 يوليوز كآخر أجل لإقفال لائحة الدائنين.
شعرت أن قلق عبد العزيز بنجامع بدأ يتقلص تدريجيا وبدا في لحظة منشرحا وهو يردد:
- الاَ... إن شاء الله ما يكون غير الخير.
لا أعرف لماذا انتبهت لمساعدي عبد العزيز بنجامع هذه المرة انتباها مختلفا قد يكون وصل إلى حد الإشفاق. قلت وأنا أمسح محياه بعينين متعبتين: مسكين هذا الرجل، لا يكاد ينتهي من مواجهة حتى يجد نفسه أمام أخرى أقوى. يقضي كل أسبوعه في المحاكم والإدارات بين البيضاء ومراكش والرباط، ولا يعير اهتماما لكل مشاكله الصحية.
انتبهت إلى نفسي كذلك، فوجدتها على وشك أن تؤسر في كابوس، هربت منه بسرعة من المكتب إلى البيت. كانت السمكات الأربع **المتبقيات** بالحوض كالأشباح لأن الإنارة تعطلت. هربت مرة أخرى. فوجدت الملاذ.
كانت غيثة بشهورها العشر تلهو، إنها لا تعرف الخوف ولا الفزع، ابتَسَمَت، فانقشعت سمائي، وجلست القرفصاء أداعبها. فصاحت ريم من ورائي بغيرتها البيضاء:
- بابا، بابا، أنت لست باباها وحدها، إنك بابانا جميعا.
كانت ريم تعتبرني ملكا لها يجب أن تصنع بي ما تريد، وكنت بها وبأختها أمسح كل هذا الألم الذي يفجره واقع لم نختره

وأصبحنا أسرى له.
في المساء، زارني ابني كريم في البيت. سألته عن شقتنا بباريس، فأخبرني أنها بيعت باتفاق مع أمه وأخته. ورغم أنه لم يستطع الحصول إلا على نصف ثمنها الحقيقي، فإنه كان مرتاحا لحصوله على سيولة مالية كفيلة بتغطية نفقات المساطر القضائية المتعددة.
هكذا كنت عندما اتصل بي أحد موظفي وزارة المالية هاتفيا:
- آلو، السي فلان؟
- نعم.
- كيف حالك؟
- شكرا جزيلا. قل لي آسي العلمي، كيف تجد الآن رمال شواطئ هواي؟
- هواي؟! أنا أكلمك من الدار البيضاء، وأنا لا أعرف شواطئ هواي، والأكثر من هذا، أنا في وضعية لا تجعل مجرد كلمة عطلة مواتية لي.
- أنا أمزح. على كل حال، لقد خرجت رابحا من معركتك ضد القرض العقاري والسياحي، وأعتقد أنك اليوم رجل سعيد.
مباشرة بعد وضعي لسماعة الهاتف، انطلقت في بحث عقيم محاولا تفسير ما يقصده هذا الرجل بكلامه التافه. ولم أستطع أن أصل إلى تأويل مقنع. فقررت أن أجمع العائلة وبعدهم ما تبقى من أطر المجموعة.
وسألتهم واحدا واحدا:
- سؤال واحد يا كريم: هل تعتقد أننا ماكرون نوحي بالتضحية في سبيل البلاد ونخدم مصالحنا الخاصة؟
- معاذ الله يا أبي، الكل يعرف أنك لا تملك إلا شركاتك السياحية، وسيارتك المرسيدس وعمرها عشرون سنة، وتعيش

من مرتبك كرئيس للمجموعة.
وجهت نفس السؤال لابنتي نادية، فأمطرت "جماعة المفسدين" كما تسميهم بوابل من السب والشتم.
لم تكن زوجتي إليان مندهشة من سؤالي، وقالت ببرودة:
- ألم تسمع هذا الكلام من قبل؟ إنه متداول جدا، حيث جعلوا من شقتنا المتواضعة بباريس قصرا يشبه الإليزيه، وتكلموا عن داري بـ"پو" كما لو كانت Château متكاملا. أما حساباتك البنكية بفرنسا وسويسرا فلا تعد ولا تحصى.
- ألا يقولون شيئا آخر؟
- نعم، يقولون إنك لا تحسن التسيير، ولم تستثمر ولا درهما واحدا من جيبك في مشروع مركب قصر المؤتمرات.
- شي آخر.
- أما كفاك هذا؟!
- لا، كفاني، ولكن ما هو موقفك أنت مما يشيعه هذا الموظف؟
- شاب وأنا متيقنة أنه يحترمك، ولكن طموح الشباب دفعه إلى دعم الأطراف الرابحة.
- شكرا لك وله.
- اسمع يا زوجي المغفل، إن تصرفاتك "الساموراوية" ومواطنتك العتيقة لم تعد تهم أحدا. ابحث لك عن استراتيجية تدافع بها عن مصالح عائلتك قبل أن يرموا بنا في الشارع.
- وماذا تقول غزلان؟
- أنا أعتقد أن لك أعداء كثيرين، وإنهم لن يتركوك حتى يجردونك من كل ما تملك. فلماذا لا تعطيهم كل ما يريدون، ونذهب إلى حال سبيلنا ونبدأ حياة جديدة أنا وأنت والبنات.
- نحن لا نموت جوعا يا غزلان.
- لا، ولكن نكاد.

- كيف ذلك ونحن لم نغير شيئا في طريقة عيشنا؟
- صحيح أننا لم نغير الكثير من مستوى حياتنا المعيشية، ولكننا نعيش من يوم لآخر دون أن نعرف ما يحمله المستقبل القريب. أنسيت أننا لا نملك أي حساب بنكي فيه رصيد **يذكر** ؟
- ولكن هذا مشكل سيولة فقط.
- آش من سيولة... السيولة تهم الشركات، أما نحن فما عسانا نبيع إذا نفذ ما عند أبنائنا من احتياطات تفوق حاجياتهم؟
- الله كبير، ولم يخلق أحد منا بمال، وعلى كل حال هذا مشكل غير مطروح الآن؟

استدعيت بعد هذا عبد العزيز بنجامع والعسري، المدير المالي للمجموعة، فقابلا سؤالي المقلق بنوع من الاستهزاء:
- أقمنا بكل هذه الجرائم ولم يلقوا علينا القبض؟ سيدي الرئيس، لا تبالي، فهذا كلام لا يتفوه به إلا مغرض أو حاسد أو متربص.

وقررت أن أغلق هذا الملف، وأفوض أمري إلى الله.

جاءت الحكومة الاشتراكية التي كنت أنتظر. كان يقيني راسخا بأن هذه الحكومة لابد من أن تتقصى الحقيقة، وكان يزيد في اطمئناني كوني أعرف فيها بعض أعضائها كالوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالشؤون العامة أحمد لحليمي الذي درس معي بكوليج مولاي إدريس، ووزير السياحة حسن الصبار الذي عمل معي كمستشار في دراسة حول قطاعنا وبعض الوزراء من التجمع الوطني للأحرار وغيرهم.

بعد تعيين الحكومة، بعثت عبد العزيز بنجامع بملف ضخم حول قضيتنا إلى الرباط، وسلم لكل وزير وزير نسخة. كان الملف مفصلا وفي خاتمته نقول: إننا لا نطالب بحق ليس لنا، ولا نطالب بأن تتخلى الدولة عن حقها، ولكن نريد أن تطلعوا على الحقيقة، وبعدها تتخذوا قرارا، أي قرار.

وبكل صدق. لم أكن أشك قيد أنملة في كون الحكومة الحالية لن تكون كسابقتها، وأن وزيرا كفتح الله ولعلو لا يمكنه أن يفرط في المبادئ. ومن أجل هذه المبادئ حاربت بدون خوف في زمن "القتلة".

ومن سوء حظي مرة أخرى أن وزراء التناوب لم يقرأوا ملفي. واضطررت إلى احتراف أسلوبي القديم: دوامة الفاكسات والهواتف التي لا تنتهي. بصعوبة استطعت أن أظفر بلقاء مع لحليمي بمنزل الجنرال القادري.

كانت للحليمي نفس القدرة القديمة على حسن الإصغاء، ساعتان من العرض، ساعتان من الإصغاء، وفي النهاية، قال لي:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ملفك لابد وأن نجد له حلا.

خرجت من هذا اللقاء مرتاحا، لاقتناعي بأن ملفي هضم من طرف رجل ذي تكوين جامعي وسياسي ولي معه صداقة قديمة وله وزنه في الحكومة، وحتى إذا لم يصل إلى حل المشكل فعلى الأقل سيحاول.

حسن الصبار إطار تقني في الإحصائيات، ورجل لم يكن له إلمام بملفنا. كان مقتنعا بشيء واحد: إن القضية سياسية، ولا يجب أن يتورط فيها! لهذا لم يكن يقدم جوابا حاسما. لا يقول نعم ولا يقول لا. وفي لقاءاتي المتتالية معه، ظل على غموضه في اللقاء الرابع، قلت له:

- يجب أن تطلع جيدا على الملف السيد الوزير.
- ولكنك أغرقتني بالأوراق.
- سأختصر، وسأرسل لك مذكرة من صفحتين.
- ولكن...
- إن دنيا مقاولة مغربية، وهي تعمل في قطاع تابع لك، وعليك

أن تتحمل مسؤوليتك كاملة فيما يخص ملفها.
- آسي العلمي، إنني وزير السياحة لا وزير القرض العقاري والسياحي.
- سأتجاوز ما قلته. إذا صعب عليك التدخل المباشر، فلنذهب جميعا عند صديقنا المشترك لحليمي.
- لا، أنا لا أتجرأ على الذهاب عنده.
- يا سلام، أين خطابكم الاشتراكي؟
رجعت إلى طريق لحليمي. فكانت طريقا وعرة. عشرات الاتصالات ولا أحد إلا حائط الكتابة. وفي الأخير، اهتديت إلى حل. بحثت عن صديق له يعرف هاتفه النقال، واتصلت به:
- آسي أحمد، لاباس.
- أهل... ان، فين واصل المشكل؟
- حاولت الاتصال....
- اسمح لي بزاف آسي العلمي، إنني أنتظر سفيرا الآن.
- نعم، أتصل بك غدا؟
- ممتاز.
اتصلت في الغد:
- آلو السي أحمد.
- أهل... ان، واشوف، الوزير الأول سيستقبل حالا الوزير الأول للدولة كذا، غدا في الواحدة إلا ربع بالضبط اتصل بي.
الواحدة إلا ربع بالضبط من يوم الغد:
- أهل... ان، السي العلمي بخير، يا سيدي هداك المشكل ديالك...
- المشكل ديالي آسي أحمد سهل، فاللقاء الذي وعدتنا أن تجمعنا فيه مع القرض العقاري والسياحي ضروري ومن خلاله ستأخذ فكرة. فلا مبلغ القرض، ولا الطريقة التي عولج بها هذا الملف صحيحة. لقد أدينا أصل الدين، وبقيت الفوائد، وهي بالنسبة لنا

ثقيلة جدا، وما نحتاجه هو أن نجلس إلى الوزير الأول أو وزير المالية أو بنك المغرب أو مكتب الصرف أو... فالحكومة لها جميع الوسائل لتتخذ قرارا في هذا الملف.
- إن المسألة حقيقية في يد العدالة، ولكن ... واشوف، غدا، لا، الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم، اتصل بي.
فعلت، فكان نفس السيناريو. وعندما وصل عدد مكالماتي مع الوزير إلى 17 مكالمة، ولم نصل إلى التحرك ولو خطوة، اتصلت به، فكان محرجا، وتأسف جدا:
- أسي أحمد الله يعطيك الخير...
- الله يخليك إلى ما اسمح لي آسي العلمي ولكن غدا على الساعة الثانية بعد الزوال اتصل بي في المنزل.
اتصلت:
- آسي العلمي، والله ما عرفت فين غادي ندير وجهي منك، ولكن والله العظيم إلى خارج حالا في جنازة فلان.
- سأتصل غدا.
اتصلت:
- قبل أن تقول آسي أحمد أي كلمة، أعطيك وعدا صريحا أنني لن أتصل بك في هذا الموضوع أبدا.
- وعلاش؟ آشنو السبب؟
- ألا تعرف السبب؟ ألم تحص عدد المرات التي اتصلت بك فيها من أجل مجرد الحصول على موعد؟ إن كل اتصال يجعلني أدفع نفسانيا ثمنا غاليا ليقيني بأن هذه القضية تسبب لك بعض الإحراج.
- وهل نسيت أنني قلت لك يوما أن الناس يعاتبونني لكوني صديقا لك؟
- الحمد لله أنك يا صديقي لم تستقبلني بمكتبك، فلو كنت فعلت

لاحتجوا عليك بدل عتابك.
- إنني أتألم من أجلك آسي عبد الهادي.
- الله يجازيك بخير.
هكذا تركت طريق لحليمي، وأنا **غير** متيقن أنه صادق في التعاطف معنا. ولكن ظهر لنا أن الملف كانت له ظروفه القاهرة، وأخذت طريق وزير المالية فتح الله ولعلو. بدأت بمكاتبته، وبعد شهور، حصلت على موعد. كنت وحدي في الموعد، ووجدت مع ولعلو كاتبه العام الجديد.
- تفضل آسي العلمي.
- هل أحكي لكم السيد الوزير قصتي الكاملة، أم جزءا منها؟ بمعنى آخر، هل لكم سابق اطلاع على ملفنا؟
- خد راحتك.
وبدأت أحكي تفاصيل الملف بإسهاب، وعندما وصلت إلى 40 دقيقة، قاطعني ولعلو:
- أنا آسف السي العلمي، لنترك التتمة لما بعد، وأشهد أمام الله بشيء واحد أقوله لك وهو أنك مهني كبير.
كانت هذه رسالة وقد فهمت منها أن السيد ولعلو كان يتمنى لو أن الإدارات السابقة تفهمت ضرورة بقاء الكفاءة المغربية لتسيير مشاريعها وعملت على إيجاد حل توافقي. وقد أعجبت بهذه الملاحظة، التي غطت على خيبتي في تخصيص 40 دقيقة فقط من وقت الوزير لملف ضخم متعثر كملفي.
اتفقنا على أن نلتقي بعد شهر. مرت شهور، ورغم الفاكسات التذكيرية، والرسائل والهواتف، لم يستجب ولعلو.
رغم تحفظ حسن الصبار، وتأسف أحمد لحليمي، وانشغال فتح الله ولعلو، فإن أملي ظل كبيرا في أن الاشتراكيين لابد وأن يحلوا المشكل. ولكن بعدما انصرمت سنة من عمر الحكومة،

أصبحت أرى أن طريقة التعامل مع ملفنا تحولت إلى لغز محير. ورجعت إلى نقطة الصفر وضرورة مواصلة الكفاح ضد الإدارة وفي جميع الاتجاهات.

في خضم هذا السواد، بزغ في الأفق أمل جديد بادر إلى إذكائه في مجلس النواب نائب شاب نابغة من حزب الاستقلال اسمه عبد الغني عادل، وهو منتخب في الدائرة التي يتواجد بها قصر المؤتمرات.

لم أكن أتصور أن أصل إلى البرلمان. كنت أعتقد أن الحل لا يمكن أن يكون إلا تقنيا على يد الوزراء أو المسؤولين، يضاف إلى هذا أنني لم أكن أرغب في إعطاء القضية طابعا سياسيا. ولكن مبادرة النائب عادل، تصادفت مع يأس السنة البيضاء على عهد حكومة التناوب، فرجحت الدخول إلى هذه المعركة كخطوة تحسيسية على الأقل.

في 20 يناير 99، وجه النائب عبد الغني عادل سؤالا كتابيا للوزير الأول يستفسره فيه عن مآل اقتراح أكتوبر 1993 الذي جاء عقب التعليمات الملكية السامية، وعن المستفيد من تحويل إدارة وتسيير مركبنا من مستثمر مغربي إلى شركة أجنبية، وعن تجاهل الحكومة لاقتراحات الكنفدرالية العامة لمقاولات المغرب المتعلقة بتفادي المحاكمات وبيع الممتلكات للأجانب، وعن الأساس الذي ارتكز عليه القرض العقاري والسياحي ليحجز ممتلكاتنا وحساباتنا.

وبعد شهر، طالب عادل باجتماع عاجل للجنة القطاعات الإنتاجية. وفي مارس قدم سؤالا شفويا لوزير المالية، وعندما تقرر تاريخ اجتماع اللجنة، كان توقيته غير ملائم تماما بحيث إنه جاء أياما قبل عيد الأضحى، فطالب نائب عن الإتحاد الدستوري بتأجيل الاجتماع فرفض طلبه وانسحب محتجا، وقدم

وزير السياحة عرضا كان فيه كالناطق باسم القرض العقاري والسياحي، وقدمت فرق أخرى أسئلة في الموضوع، حيث تدخل السيد محمد بولعسري عن التجمع الوطني للأحرار وتدخل نواب من حزب الحركة الديمقراطية الإجتماعية...

ولكن ماء الملف ظل جامدا.

في العمق، كان الهدف من البرلمان هو التحسيس، وقد بلغناه، وأصبحت في النهاية مؤمنا أن الطريق الوحيد الصلب الذي يجب أن ترتكز عليه جهودنا هو طريق القضاء. لقد حاربونا في المحاكم ويجب أن نهزمهم فيها.

بعد الربح المعنوي في المحاكم، ظهر أمل جديد يسير في اتجاهنا الملموس مع صديقي عضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال مولاي امحمد الخليفة.

كانت عند الخليفة شكوك بخصوص ملفنا. كان يقول إن الإنسان لا يمكن أن يأخذ قروضا ولا يسددها، ويشاع أن العلمي بنى وشيد وأخذ اللب وأخفاه وترك القشور. لذلك كان يتعامل معنا بحذر، وحتى في البرلمان، ترك لعبد الغني عادل الحق في الدفاع عن ملفنا كما اقتنع بذلك ولكن تحت مسؤوليته.

اتصل بي عادل، وقال لي إنه شرح للخليفة الملف ويظهر أنه غير رأيه.

اتصلت بالخليفة، وضربنا موعدا، وكعادته، كان رجل نكتة، وجعل جو لقائنا ببيته أخويا. شرحت له الملف، فأشاد بطريقة عرضي، واعتذر عن حذره السابق من الملف، وسألني عما أريد. فقلت له إنني أريدك كمحام، فقبل.

وحول مائدة عشاء بالرباط، درسنا شروطه للدفاع عنا وأتعابه، وبعدما اتفقنا، وجه إلي الرسالة التالية في 2 ماي 1999.

من الأستاذ مولاي امحمد الخليفة

إلى
السيد رئيس شركة دنيا أوطيل:
لقد عقدنا عدة جلسات خاصة بملفكم وإنني، بعد تأكدي من الظلم الذي لحق بكم وعدم فتح حوار جدي معكم ونظرا للعهد الجديد الذي دخل فيه المغرب، بسبب التجارب التي يسير فيها، وبمعرفتي الدقيقة بفكر السيد فتح الله ولعلو ووطنيته الصادقة وهو الذي يؤكد دائما حرصه على نجاح المقاولة المغربية والتعامل معها بصفة موضوعية لا دخل للذاتية فيها. ونظرا لكونه يعلن في كل المناسبات أنه مستعد لحل كل مشاكل المقاولات المغربية كيفما كانت في إطار الوضوح والشفافية واحترام القانون ودعم الاستثمار الوطني، لكل هذا فإنه من بين جميع الحلول المتنوعة التي ناقشناها بعد صدور حكم التسوية رقم 98/1 بتاريخ 7/ 4/ 99 والذي أصبح معه مركزكم قويا، أقترح عليكم، بعد قبولي النيابة عليكم، أحد الحلين الاثنين اللذين من شأنهما أن يجدا مخرجا توافقيا يضع حدا للتوتر الحالي ويربح الوقت للجميع:
-1 التعامل مع صندوق القرض العقاري والسياحي شريككم وممولكم الرئيسي، بصفة تجعلكما تقودان التسوية القضائية، معتمدين في ذلك على خبرة مزدوجة تكلفان بها خبيرين تعهدان لهما بمهمة التعرف على قيمة الدين وما دفع منه بطريقة موضوعية لا تقبل الخلاف. والهدف من هذا الحل هو الحفاظ على مركزيكما كمالك من جهة وكممول رئيسي من جهة ثانية، وبطبيعة الحال سيدخل هذا في إطار التسوية القضائية التي تفرض على كل دائن أن ينقص من مبالغ دينه ويعطى تسهيلات لأدائها.
-2 قبول شراء مديونية القرض العقاري والسياحي بعد الخبرة

والتفاوض، وتبعا لسوابق الملف، وطبقا لمسطرة التسوية.
وعند قبولكم لما سبق سأتصل مع السيد وزير المالية وأطلب منه أن يتشرف بقبول مراقبة هذا الملف مراقبة تصون جميع مصالح الأطراف المعنية وتنصفها.
وإني أعتقد بكل صدق أنكم ستجدون في هذا الإطار الآذان الصاغية سواء لدى السيد وزير المالية أو لدى المؤسسة المقترضة التي هي شريكة لكم.
وفي انتظار ردكم الإيجابي أبقى رهن إشارتكم لربط موعد أولي مع السيد وزير المالية".
وافقت على ما اقترحه الأستاذ الخليفة، وحصل على موعد مع وزير المالية في نهاية ماي. استقبلنا الوزير في الساعة المحددة بالضبط وكان معي عبد العزيز بنجامع. تدخل الأستاذ الخليفة مباشرة:
- إنني السيد الوزير لا أزورك اليوم كزميل، ولكن كمحام.
إن هذا الرجل مظلوم.
- وماذا يمكنني أن أفعل أنا؟
- إن السيد العلمي سيقترح عليك ما يعتقده في صالح الجميع.
فتدخلت.
- قبل كل شيء، أزورك اليوم السيد الوزير لأن حديثنا لم نكن قد أكملناه لظروف تعرفها. وجئتك أساسا لتسمعني، فإذا سمعتني وأنصفتني، فجازاك الله خيرا. وإذا سمعتني ولم تنصفني، فستكون قد سمعتني.
ورد ولعلو وهو يبتسم:
- وما هي اقتراحاتك؟
وسردت عليه بتفصيل أكثر، ما تضمنته رسالة الأستاذ الخليفة، وبعدما أنهيت سردي، توجه ولعلو للخليفة:

- ولكن أنا لا سلطة لي على القرض العقاري والسياحي، فهذه البنك شركة، ولست طرفا فيها.
فأجابه الخليفة:
- ولكن أنت وزير المالية، وللوزارة صندوق الإيداع والتدبير، وهو أكبر مساهم في القرض العقاري والسياحي.
- أعدك أن أتصل بالصندوق وبالقرض لأعرف مدى استعدادهم لقبول هذا الحل.
- ولكن كن حكما، فإذا ظهر لك أن ما طرحناه منطقيا، وأن المقاول مظلوم، فلماذا لا تحسم؟
طلب ولعلو من الخليفة مهلة أسبوع. خرجت أنا وبنجامع، وبقي الخليفة مع الوزير لمدة نصف ساعة. وأخبرني الخليفة أن ولعلو تكلم عني بشكل إيجابي وأنه وصفني بالرجل الشعلة.
كان الانطباع الذي خرجت به من هذا الاجتماع سلبيا. شيء ما كان يدفعني إلى الإحساس بأن الأيادي الخفية مازالت وراء عرقلة أي حل، ولكن صديقي الخليفة كان يتكهن بالعكس. ويقول إن ولعلو لا يمكن أن يخذلنا.
مر الأسبوع الأول، وتبعه الثاني وبعده الثالث، ولم يصلنا خبر. اتصلنا بالأستاذ الخليفة، فقال إنه ينتظر ويحاول الاتصال. جربنا حظنا واتصلنا مباشرة بوزارة المالية، ولكن بدون نتيجة. وفي إحدى المساءات، وأنا ببيتي مع عبد العزيز بنجامع، عرفنا أن الكاتب العام لوزارة المالية يبحث عنا. فاتصل به بنجامع، فكانت الصدمة. قال:
- إن اقتراحاتكم على السيد وزير المالية لم تلق القبول، فالقرض العقاري والسياحي رفض الحلين، ونحن آسفون لأن لا سلطة لنا على هذا البنك.
أصبحنا على أبواب الصيف. وكانت الحرارة التي ترتفع يوما

عن يوم تضغط على برودة الأعصاب الأسطورية التي حافظنا عليها في كل هذه المواقف القاتلة. قررت أن أسافر، فالسفر ليس هروبا بقدر ما هو رحمة.

أخذت ابنتي ريم، وتوجهنا إلى فاس. تناولنا وجبة العشاء بقصر الجامعي، وهو الفندق الذي تسيره أكور. أكلنا طاجين سمك وسباغيتي بالجبن وشربنا قارورة ماء، فجاءت الفاتورة: 990 درهما. وأمام استغرابي، تحول الرقم إلى 660 درهما، ليقبلوا في الأخير 500 درهم. إنها المهزلة: شركة بحجم أكور تطبق في فندق من هذا المستوى نوعا من الفندقة يشبه ما يمكن أن نجده بجامع لفنا.

اتصلت هاتفيا بفؤاد الشرايبي، ممثل أكور بالمغرب، واعتذرت له بعدما كنت قد قبلت دعوته بقضاء الليلة عندهم.

لم أنم تلك الليلة نوما عميقا. فشريط اليوم كان يختلط أمامي بشريط السنوات السوداء، وكانت تمر أمامي النجاحات والإخفاقات ، الأحلام والانكسارات، حتى المستقبل كان يرخي بظلاله المخيفة ويعين الماضي عليَّ. ألن يكون لهذه القصة نهاية؟ هل أنا منذور لأن أكون سيزيفا، أحمل الصخرة حتى رأس الجبل لتسقط وأعيد الكرة إلى أن ألتحق بالرفيق الأعلى؟

في الصباح، كان الكابوس قد سلمني لدفء الأشعة المتسللة إلى غرفتي. اتصلت بجون روبير ريزنيك، ولا أعرف لماذا؟ عرفت أنني أيقظته من النوم. ولكن صوته في الهاتف كان صوت رجل فوجئ بشيء كان ينتظره من سنوات فحصل. اتفقنا أن نلتقي عند منتصف النهار بالفندق.

تركت ريم مع معلم السباحة بمسبح الفندق. وجلست أمام ريزنيك. كنت أتأمله جيدا وأتساءل عما يدور في ذهنه هذه المرة، ولأي مقلب يخطط. ولكن، لماذا سأتخوف وأقسى ما

يمكن أن تقوم به جماعة ريزنيك قد قامت به؟ قال لي:
- إنني مسرور جدا لرؤيتك اليوم، فبمجرد أن اتفقنا على اللقاء، أخذت ملفي القديم الذي كنا قد هيأناه بشكل مشترك، وأطلعنا عليه السيد المستشار. أتذكره؟
- بطبيعة الحال، إنه الملف المعلوم الذي قلنا لكم فيه إننا سنبيعكم كل شيء ونخرج بلا شيء باستثناء...
- إنه هو بالذات.
- مع الأسف السيد ريزنيك، فهذا الملف تجاوزته الأحداث، فنحن اليوم في إطار التسوية القضائية، ولم يبق للحكومة أو الإدارة أي إمكانية للتدخل أو إملاء شيء على أي كان. الآن القضية أمام القضاء.
- ولكن أنت السيد العلمي، كصديق وحبيب، ماذا تقول؟
- أنا لم أتغير، ولكن الأرقام تغيرت. فلا يجب أن ننسى الظروف التي هيأنا فيها هذه الأرقام، إنها ظروف تم فيها تيئيس المجموعة. والأزمة المصطنعة التي أغرقت فيها كانت تدفعها لقبول أخف الضررين.
- أرجوك لا تصور الأمور بهذه القتامة. فكل ما هناك أنه كان بيننا اتفاق، وكنت مرتاحا له.
- المهم، ماذا تقترح؟
- عندي اقتراح، ولكن انتظر.
اتصل ريزنيك في الحال بمنزل عبد العزيز العلمي رئيس البنك التجاري المغربي. لم يجده، فترك خبر الاتصال لزوجته. وقبل أن نستأنف حديثنا. اتصل عبد العزيز العلمي:
- آلو، من معي؟
- عبد الهادي العلمي.
- لقد اتصل بي جون روبير ريزنيك، فهل كان معك؟

- إنه لا يزال معي.
- قال ريزنيك لعبد العزيز:
- إن لي اقتراحا، وأريد أن يسمعه العلمي من ممثلنا أمين العلمي وبعد ذلك، نلتقي عندك، وإذا اتفقنا، نذهب عند القرض العقاري والسياحي، ونتفق معه بطريقة أو بأخرى. وأمين العلمي هذا هو شاب ذكي مختص في الشؤون المالية والتابعة للبورصة، وهو ابن المحامي محمد العلمي الذي كان شعلة زمانه واضطر إلى مغادرة المحاماة بسبب جريمة **شيكات بدون رصيد** .

اتصل ريزنيك بأمين العلمي، فلم يجده، وترك له رسالة ملحة للاتصال به أو بي.

هكذا بدأت العجلة تدور من جديد، وتذكرت أيام القباج والزاهدي والفيلالي وغيرهم، وتذكرت الجحيم واستغربت كيف نتحدث اليوم وكأن كل هذا الجبل من الإرهاق المادي والمعنوي مجرد سحابة عبرت العلاقة بين صديقين جلسا لحل ما لازال عالقا بينهما.

قضيت ما تبقى من شهر يونيو بالدار البيضاء. وصلتنا أخبار من مركب المنصور الذهبي بأن موظفي أكور يتقاضون أجورا خيالية تحتسب كمصاريف يؤدي عنها المركب الضريبة على القيمة المضافة.

كنا نتابع التطورات بالمحاكم. أحسسنا بالبطء الممل، اجتمعت مع المحامين، وقررنا الهجوم. تقدمنا بدعاوى نطلب فيها تطبيق مسطرة التسوية وفقا للقانون، أي أن يخرج القرض العقاري والسياحي وممثلته أكور من مركبنا، فلا تسوية بدون صاحب المقاولة.

دخلنا في شهر يوليوز، ورفضنا قبول طلب القرض العقاري والسياحي بالتسوية في وارزازات وزاكورة لأننا لسنا مدينين له

في هذه الفنادق.
حضرت شخصيا جلسة المحكمة التجارية بمراكش، فطلب مني الرئيس أن أتقدم أمام هيأة المحكمة. كانت المرة الأولى في حياتي التي أقف فيها هذا الموقف. لم أشعر بالخوف ولا بالقلق. كنت مقتنعا أن ما وصلنا إليه لا يستدعي الوقوف أمام قاض واحد، بل أمام عشرات القضاة.
سألني الرئيس:
- إن القرض العقاري والسياحي يطلب التسوية في فندق كرم بلاص وزاكورة.
فاسترجعت الذكرى، وكيف أنني سنة 1985، عندما غادر جلالة الملك فندق وارزازات، أغلقت الجناح الذي كان به لمدة سنة، ولو لم يعطني المديوري الضوء الأخضر لفتحه لما فعلت. كنت أقدس التاريخ، وكان هذا البنك الصغير يتطاول على القانون ويطلب التسوية في فندق ليست له مشاكل معه.
أجبت القاضي:
- إن القرض العقاري والسياحي ليس له دين علينا بوارزازات، ونحن نرفض فيه التسوية إلا إذا أمرت بها المحكمة.
في منتصف يوليوز، علمنا أن محمد البلغمي صاحب مجموعة "رياض السلام" التي كانت في إطار التسوية، قد طلب تفسيرا لهذه الأخيرة من المحكمة، وقضت الهيئة بأن التفسير الوحيد للتسوية هو أن يتكلف بالتسيير المالك وليس البنك. كانت هذه سابقة وفأل خير، واتصلت ببنجامع، وطلبت منه أن يطلب استشارة قانونية في شكل دراسة من **أستاذ القانون الكبير** المشيشي العلمي. ولكن السابقة أقبرت بسرعة بعدما حكمت المحكمة لصالح القرض في طلبه حول صعوبة التنفيذ.
وكانت هذه السفينة الضخمة، بكل آلامها التي أصبحت ثقوبا

تدخل الماء إلى جوفها، وبكل آمالها في الوصول إلى أقرب ميناء، تواصل هزم الأمواج العاتية. كنت الربان وكنت الركاب. كنت أحمل على عاتقي مسؤولية الوصول إلى البر. ولم أكن مخيرا. فلابد من النجاة، وحتى إذا خسرت السفينة، فلا يمكن أن أخسر قارب النجاة.

هكذا كنت أبحر، وفي الأفق دائما هناك جزيرة تلوح، أو أضواء مدينة، حتى إذا تبين أن الأمر مجرد تهيؤات، رجعت أبحر.

وفجأة حصل ما لم يكن متوقعا. حصل ما جعل كل هذه المعركة التي رسمت صورتها في هذا الكتاب تبدو صغيرة كسمكة في محيط.

اتصل بي صديق، وقال إن الحسن الثاني مات. كيف؟ هرعت نحو التلفاز، وبدأت أبحث في القنوات إلى أن تأكدت من الفاجعة.

ما أصغر الكلمات الآن. ماذا تعني قضية دنيا أوطيل؟

هل يستقيم بعد هذا المصاب الجلل، تظلمٌ أو مواصلة تأريخ للحظات ألم؟ لا مواصلة للكتابة بعد اليوم، فللبشر قضاؤه وهو زائل، ولله قضاؤه، وهو رجاؤنا.

وجلست إلى مكتبي في آخر جلسة، لا لأكتب نهاية صراعي مع الموج، ولكن لأكتب ما امتلأ به قلب مكلوم بفقدان ملك عظيم.

لقد استطاع أخيرا الإرهاق في خدمة الصالح العام والمرض الذي لا يرحم أن يسقط العملاق، شعلة القرن العشرين ومنبع الإلهام وأب المغاربة قاطبة الحسن بن محمد ملك المغرب الفذ... مات الحسن وخلفه في نفس اليوم محمد بن الحسن بن محمد أطال الله عمره. عند سماع الخبر لم أصب بالذهول أو الحزن فحسب، بل غمرت قلبي مشاعر الشفقة على هذا البلد الذي فقد

أعز ما كان يملك... كان ولي العهد الحسن شابا متألقا مليئا بالحيوية والطموح وكان بإمكانه أن يلعب دورا **سياسيا مريحا** يحافظ **له** على صحته ومناعته، ولكنه فضل خوض غمار الكفاح الطويل وطرق المخاطر **والآفات** المميتة. ها هو الآن يدفع ثمن كل هذا الجهد والعناء... وداعا يا مولاي...

لم أطلب أبدا أجرا، فرضاكم كان يكفيني، ومع هذا فقد تسلمت أجري كاملا لمدة تطوعي وراءكم... فعطفكم يا مولاي يساوي أملاك الدنيا بأكملها. اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أسمع وأرى المذيع يقدم الخبر المشؤوم ولا يستطيع أن يتحكم في مشاعره، وأخذت أشهق بالبكاء، ورفضت أن أقر أن الموت حق وأن كل من عليها فان... كيف يموت الملك بهذه السرعة؟... كيف تأخذ الموت من تريد ولا ترحم الأحياء من أحبابه؟ كيف يتم قضاء الله على الأحياء والأموات في نفس الآن؟ يا لعظمة الخالق القاهر الجبار. الملك لله والدوام لله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وداعا يا مولاي، ولتلتحق روحك الطاهرة بأرواح الشهداء والصديقين، فأنت فديت بلادك بحياتك فلتدم ذكراك بيننا إلى يوم الدين.

23 يوليوز 1999

بعد موت الملك، قررت طبع هذا الكتاب في ألف نسخة، غير أنني عدلت بسرعة عن توزيعه وقمت شخصيا بإحراق 990 نسخة منه محتفظا بـ10 نسخ للتاريخ. ومرت السنين وانتصرنا على الأشباح ودخلنا في عهد جديد يحمل في طياته آمالا كبيرة وانتعشت الروح وقررت طي قصة قصر المتاعب بنشر فصلها الأول والاستعداد لتهييء فصليها المتبقيين، وذلك لسبب لم أذكره سابقا وهو شعوري بأن الكتابة دواء في حد ذاتها للنفس والخاطر والروح.
وهكذا راجعت ما كان مدونا، وكنت أشعر كالكاتب الفرنسي بروست بنفس الشعور الذي كان يراودني وأنا أقوم بكتابة المشروع الأول. كانت لي في كل لحظة نفس الأحاسيس التي كانت تحركني أيام محنة قصر المتاعب وكتابة فصوله. وكنت كمن عاش المرحلة مرتين.

الاثنين 9 يونيو 2008